جون فانتي

22.9.2017

انتظر حتى الربيع يابنديني

رواية

ملحمة ارتورو بانديني

١

ترجمة أماني لازار

كلاسيكيات أثر Athar Classics

انتظر حتى الربيع.. يا بانديني!

الجزء الأول من ملحمة آرتورو بانديني

رواية

جون فانتي

تقديم

دان فانتي

ترجمة

أماني لازر



انتظر حتى الربيع.. يا بانديني!

انتظر حتى الربيع.. يا بانديني / رواية

جون فانتي

ترجمة: أماني لازر

الطبعة الأولى 1438 / 2016

ردمك 978-9938-880-50-2



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

إهداء المؤلف

هذا الكتاب مهدى إلى أمي:

ماري فانتي، مع الحب والولاء؛

وإلى أبي: نيك فانتي،

مع الحب والإكبار!

مقدمة

منذ عدة سنوات، روى لي صديق قديم لوالدي القصة التالية:

كان جون فانتي في عام 1930 يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، مفلساً، حديث العهد في كاليفورنيا، يحصل بصعوبة على دولار، بالعمل على أرصفة الميناء ومعامل تعليب الأسماك في ويلمنجتون، على بعد أربعين ميلاً جنوب لوس أنجلس. كان الدخل الذي يحصل عليه والدي من كلّ عمل يقوم به يذهب لمساعدة أمه وأخته وإخوته.

لكن جون فانتي هذا كان فتى شجاعاً. بدأ بكتابة رسائل إلى هـ. ل. منكن، الذي يعمل محرراً في المجلة الأدبية الشهيرة (the American Mercury)، يقترح بشدة على منكن نشر مواده. كانت المجلة، وفقاً للشاب فانتي، تفوّت على نفسها فرصة النشر لشيروود أندرسن أولاً، وكنوت هامسن تالياً.

كانت إجابات منكن رحبة الصدر. كتب يشجّع والدي على إرسال قصصه. وهذا ما خلق مشكلة لجون فانتي. لم يكن لديه قصص، بل مجرد أفكار. لكن كانت لديه قناعة تامة بأنه يستطيع أن ينتج أدباً رائعاً، ماعون الورق اللعين وكمية كبيرة، فقط لو يدفع له أجراً. كانت هناك مشكلة أخرى صعبة أيضاً: لم يكن في وسع أبي الضرب على الآلة الكاتبة.

مقداماً، في جيبه علبة سجائر Lucky Strikes، متوهجاً بابتسامته العريضة التي لا تبلى، قفز جون فانتي على درَج مكتب صحيفة محلية، في وقت متأخر ذات أصيل. استفسر في حجرة الطابعات من صحفي في فريق العمل، عمّا إذا كان لديه مانع من أن يستعمل آلة كاتبة شاغرة فترة المساء. شرح فانتي أن لديه قصة يرغب في كتابتها، قصة عظيمة، رائعة، حكاية طويلة فيها بُعد وعمق، حتى أن طبيعة الأدب الأمريكي نفسها قد تتحول مع مطلع الشمس. حكّ الصحفي رأسه، كما يقول صديق والدي، مرشداً الوالد نحو مكتب فارغ، وقال:" أنجز عملك!"مع صباح اليوم التالي لم يصبح جون فانتي فقط ضارباً على الآلة الكاتبة بإصبعين، بل أصبحت الصفحات التي كتبها، أيضاً، في مغلف بريدي، في طريقها إلى مجلة American Mercury في بالتيمور.

كان أبي كاتباً شاباً مفعماً بالطاقة. عندما كنت أسأله، في سالف الأيام، عن أفضل كاتب في أمريكا، كان يصيح في طرفة عين:" يا يسوع، إنه أنا، جون فانتي، ومن سواي؟!"

إذاً، ما الذي حل بسيرة جون فانتي الأدبية؟ كيف حدث أن انتهى واحد من أروع الكتّاب بين أبناء جيله، إلى المجهولية، ليعاد اكتشافه بعد خمسين سنة، قبل أشهر فقط من وفاته؟

مرّ الزمن. أصبح والدي مشاركاً منتظماً في مجلة منكن ومجلات أخرى. كسب شهرة أدبية لائقة، لكن حلّت أيام الكساد الكبير وكانت الظروف قاسية للغاية.

ذات ليلة في عام 1934 في مطعم Musso /Frank's في جادة هوليوود، جاء فرانك فنتون، نديم جون فانتي في الشرب، ورجل مدمن على لعب البينبول، بمكيدة لتجارة رابحة: سلب لفكرة جون ديلينجر. بوسعهما

كتابتها وبيعها للسينما. يعرف فنتون رجلاً في أحد الأستوديوهات، محرر قصص يدعى روس ويلز. كان أبي كالعادة مفلساً، وهكذا كان راغباً في أن يجرب أي شيء للحصول على المال بسرعة.

خلال بضعة أيام أنهى الاثنان الهراء وتقدما إلى شركة Warner Broth-ers. قصة رائعة! مع نهاية الأسبوع حصل جون فانتي على أجر أول عمل له بصفة(كـ) كاتب سيناريو: مئتين وخمسين دولاراً في الأسبوع. ثروة! منذ ذلك الحين وخلال الفترة المتبقية من أفضل سنوات حياته الأدبية، سوف يعصر أبي ضروع هذا الخنزير المالي السمين للحصول على كل دولار ممكن. أتمّ تأليف الكتاب الذي تحملونه بين يديكم : انتظر حتى الربيع يا بانديني، بعد فترة مثمرة في كتابة السيناريو، في واحد من أكبر استوديوهات هوليوود.

لقد أجمع الكثيرون على أن جون فانتي " باع " موهبته، مقابل الحصول على مبلغ كبير من أموال الأعمال السينمائية، وأن مسيرته الأدبية انتهت في ساحة انتظار سيارات استوديوهات باراماونت. ساهمت في أعمالي الأدبية الخاصة بهذه الفكرة. لكن، في حقيقة الأمر، هذه فقط نصف الحقيقة. الحظ السيّئ هو السبب الحقيقي لأن يصبح والدي كاتباً منسيّاً. حظ سيّئ، شنيع، ملعون!

تعتبر رواية (اسأل الغبار) لجون فانتي، اليوم في أمريكا، بعد أكثر من ستة عشر عاماً على وفاته، تحفة صغيرة. في الواقع، قالت مجلة أمريكية مؤخراً إنه يجب اعتبار جون فانتي من كتاب القرن العشرين العظماء.

إذاً، لماذا عندما صدرت (اسأل الغبار) بداية عام 1939 لم يُبَعْ منها سوى أقل من ثلاثة آلاف نسخة؟ تناولت الكتاب مراجعات رائعة. أمل جون فانتي، عن استحقاق، أن من شأن الرواية أن تثبته باعتباره كاتباً هاماً في زمنه. حتى الناشر Stackpole & Sons كان يعتقد ذلك.

إذاً، ما السبب؟

يمكنني تذكّر عددٍ من القصص عن سوء حظ والدي الغريب ككاتب، لكن هذه هي القصة الأبرز حالياً. في الواقع، عام 1939 نشرت شركة Stackpole (دون إذن من الكاتب) كتاباً يدعى "كفاحي". كان الكاتب هاوياً للأدب في أفضل أحواله. كان بناء جُمَله مشوشاً، أحمق، فقراته مفككة، وكان يميل للحديث بشكل مسهب عن التفاصيل والهراء. وبالتأكيد كان أدولف هتلر غاضباً من الجميع. لذا كان قرار الفوهرر أن يقاضي Stack-pole & Sons لعدم الاستئذان بنشر مانيفستو السجن. لذا فإن المال، الذي كان من المفترض أن يُصرف على الدعاية لرواية (اسأل الغبار) عام 1939 ويمنح جون فانتي الاعتراف الذي يليق به، صُرف على المحامين، لتسوية معركة قانونية.

كان كتاب والدي منسياً، إلى أن ذكر تشارلز بوكوفسكي لجون مارتن، صاحب دار نشر Black Sparrow أنه سحب نسخة من (اسأل الغبار) من على رفّ عفِن، في مكتبة لوس أنجلس العامة.

وهكذا كان حظّ جون فانتي الأدبي.

لكن هناك الجانب الإيجابي، عاش والدي حياة مسلّية ومغامرة، كانت هواياته المفضّلة لعب البوكر في فندق The Garden of Allah في جادة صانسيت، يشرب مع رفاقه الكتّاب، ويضرب كرة الجولف أربعة أيام في الأسبوع في حديقة رانشو للعب الجولف. كان نثر والدي رائعاً. كان بمقدوره-وكان يجب عليه-أن يحقق سمعة هيمنجواي أو شتاينبك أو ساروين، لكن القدر تواطأ ليمنحه ورقة "جويزة" فقط، وليس عدداً كبيراً من أوراق الملوك.

إذاً، ها هي ذي رواية "انتظر حتى الربيع.. يا باندينى!"، رواية جون

فانتي الأولى. إنها بداية ملحمة آرتورو بانديني الأدبية. يعبر الكتاب بنفسه عن تفوقه. على حد تعبير والدي: " ... ما دام بوسع الشفاه القراءة، والعيون الرؤية، ما دام هذا حياً، فهو سيمنح لك الحياة".

استمتعوا!

دان فانتي

لوس أنجلس

تموز- 1999

الفصل الأول

جاء يركل الثلج العميق. كان ههنا رجل مشمئزّ يدعى سفيفو باندينيـ، يسكن على مبعدة ثلاثة شوارع. كان يشعر بالبرد وكان حذاؤه مثقوباً في عدة أماكن. رقع ذلك الصباح الثقوب من الداخل بقطع من الورق المقوّى اقتطعها من صندوق للمعكرونة. لم تكن تلك المعكرونة الموجودة في ذلك الصندوق مدفوعة الثمن. فكّر في ذلك وهو يضع الورق المقوّى داخل حذائه.

كره الثلج. كان بنّاءً بالآجر، والثلج جمَّد الملاط بين الآجر الذي بناه. كان في طريقه إلى البيت، لكن ما المغزى من الذهاب إلى البيت؟ كان يكره الثلج عندما كان صبياً في أبروتزي، إيطاليا أيضاً. ما من شمس مشرقة، ما من عمل. هو الآن في أمريكا، في بلدة روكلين، كولورادو. كان لتوه في قاعة إمبريال للبلياردو. كان هناك جبال في إيطاليا أيضاً، مثل تلك الجبال البيضاء التي تبعد بضعة أميال غرباً. كانت الجبال ترتدي حلة بيضاء ضخمة مسدلة نحو الأرض كما لو أنها الشاقول. منذ عشرين عاماً، عندما كان في العشرين من عمره، تضوّر جوعاً لمدة أسبوع كامل في ثنايا تلك الحلّة البيضاء الضارية. كان يبني موقداً في كوخ جبليّ. وكان البقاء هناك في الأعلى، شتاء، محفوفاً بالمخاطر. قال: فليذهب الخطر إلى الشيطان، لأنه لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره عندئذٍ، وكانت لديه فتاة في روكلين، وكان بحاجة إلى المال. لكن سطح الكوخ انهار تحت الثلج الخانق.

لطالما كان ذلك الثلج الجميل يضايقه. لم يتمكن أبداً من فهم سبب عدم ذهابه إلى كاليفورنيا. وهو لا يزال حتى الآن مقيماً في كولورادو، في الثلج العميق، لأن الأوان قد فات. كان الثلج الجميل الأبيض مثل زوجة سفيفو بانديني البيضاء الجميلة، ناصعة البياض، الولود، التي تستلقي على سرير أبيض في منزل يقع آخر الشارع. 456 شارع ولنات، روكلين، كولورادو.

دمعت عينا سفيفو بانديني في الهواء البارد. كانت عيناه بنيّتين، رقيقتين، كعيون امرأة. عندما ولد استلّهما من أمه -لأن حال أمه تغيّر بعد مولده، كانت بعدها مريضة دوماً، ودوماً بعيون سقيمة، ثم ماتت، وحان دور سفيفو في أن يحمل العيون البنيّة الرقيقة.

كان وزن سفيفو باندينى مئة وخمسين باونداً، وكان لديه ابن يدعى آرتورو، أحب أن يلمس أكتافه المدورة ويجسّ أحشاءه في الداخل. كان سفيفو باندينى رجلاً حسناً، مفتول العضلات، وكانت زوجته تدعى ماريا ولم يكن عليها سوى أن تفكر بالعضلة في سوءته حتى يذوب جسدها وعقلها مثل ثلج الربيع. كانت ناصعة البياض، ماريا تلك، وكنت إذا ما نظرت إليها تراها من خلال غشاوة من زيت الزيتون.

لماذا خسر سفيفو عشرة دولارات في لعبة البوكر، الليلة، في قاعة إمبريال للبلياردو؟ كان رجلاً فقيراً ولديه ثلاثة أطفال، والمعكرونة لم تكن مدفوعة الثمن، ولا المنزل الذي كان يؤوي الأطفال الثلاثة والمعكرونة.

كان لسفيفو باندينى زوجة لم تقل يوماً: أعطني مالاً من أجل غذاء الأطفال، لكن كان لديه زوجة بعيون سوداء واسعة، متألقة بالحب على نحو عليل، وتلك العينان كانت لهما طريقة بارعة في التحديق في فمه، أذنيه، معدته، وفي جيوبه. كانت تلك العينان ذكيتين جداً على نحو حزين، لأنهما علمتا دوماً متى كان يكسب مبلغاً جيداً من المال، عندما يلعب في قاعة

الإمبريال للبلياردو. يا لهما من عينين لِزوجة! رأتا كل ما كانه وكل ما تمنى أن يكون، لكنهما لم تريا أبداً روحه.

كان هذا أمراً غريباً، لأن ماريا بانديني، كانت امرأة تعتبر جميع الأحياء والأموات أرواحاً. عرفت ماريا ما هي الروح. كانت تعلم أن الروح خالدة. كانت الروح أمراً خالداً لن تجادل بشأنه. كانت الروح أمراً خالداً. حسناً، أياً تكن، فالروح خالدة. كان لديها سبحة بيضاء، ناصعة البياض يمكنك أن ترميها في الثلج وتضيعها إلى الأبد، وصلَّت لروح سفيفو بانديني وأطفالها. ولأنه لم يكن هناك وقت، أملت أن يجد شخص في مكان ما من العالم، راهبة في دير هادئ، أياً يكن، وقتاً ليصلّي لروح ماريا بانديني.

كان لديه سرير أبيض ينتظره، استلقت فيه زوجته، دافئة تنتظر، وكان يركل الثلج ويفكر بشيء كان سيخترعه ذات يوم. كانت مجرد فكرة في رأسه: محراث للثلج. كان قد صنع مصغراً عنه من علب السيجار. كانت لديه فكرة هناك. ومن ثم اقشعر كما يحدث عندما يمسّ المعدن البارد جانحك، فجأة، تذكّر المرات العديدة التي دخل فيها إلى السرير الدافئ بجانب ماريا، ومسّ لحمه الصليب البارد البالغ الصغر على مسبحتها، في ليالي الشتاء مثل أفعى باردة صغيرة تضحك بشكل متقطع، وكيف انسحب بسرعة نحو جزء من السرير أكثر برودة، ومن ثم فكر بغرفة النوم، بالمنزل الذي لم يدفع ثمنه، بالزوجة البيضاء التي تنتظر الرغبة أبداً، ولم يُطِقْ ذلك، وعلى الفور اندفع في حمّاه في الثلج الأكثر سماكة بعيداً عن الرصيف، مطلقاً العنان لغضبه كي يصارع الثلج. Dio cane. Dio Cane..

كان لديه ابنٌ يدعى آرتورو، وكان آرتورو في الرابعة عشرة من عمره، ولديه زلاجة. بغتةً، وهو يدخل إلى باحة منزله غير المدفوع ثمَنُه، عدت قدماه نحو قمم الأشجار، وكان ممدداً على ظهره، وزلاجة آرتورو لا تزال

في حركتها، تنزلق نحو كتل الثلج التي أثقلت أجمات الليلك. Dio cane! سبق أن قال لذلك الصبي، ذلك الوغد الصغير، أن يبعد زلاجته عن الممر الرئيس. شعر سفيفو باندينى ببرودة الثلج تهاجم يديه مثل نمل مسعور. نهض على قدميه، رفع بصره نحو السماء، هز قبضته نحو الرب، وكاد ينهار من شدة الغضب. آرتورو، ذلك الوغد الصغير! جرَّ الزلاجة من تحت شجيرة الليلك، وبوحشية منتظمة انتزع الشفرات. فقط عندما خرّبها تماماً تذكّر أن ثمن الزلاجة سبعة دولارات وخمسون سنتاً. وقف ينفض الثلج عن ملابسه، ذلك الشعور الحارّ الغريب في كاحليه، حيث دخل الثلج من أعلى فردتَي حذائه. سبعة دولارات وخمسون سنتاً مُزّقت أشلاء. Diavolo! دع الولد يشتري زلاجة أخرى. سيفضّل واحدة جديدة على أي حال

لم يكن قد سدّد ثمن المنزل. كان ذلك المنزل عدوّه. كان له صوت، وكان دوماً يتحدث إليه، كالببغاء، يثرثر أبداً بالأمر نفسه. كلما أصدرت قدماه صريراً على أرض الشرفة، قال المنزل بوقاحة: أنت لا تملكني، يا سفيفو باندينى، ولن أنتمي إليك أبداً. كلما لمس قبضة الباب الرئيس حدث الأمر نفسه. طوال خمس عشرة سنة كان هذا المنزل يضايقه ويغيظه باستقلاليته البلهاء. رغب مرات أن يضع الديناميت تحته ويفجّره إلى أشلاء. فيما مضى كان تحدّياً، ذلك المنزل يشبه امرأة إلى حدّ بعيد، تتحدّاه ساخرة أن يمتلكها. لكن خلال ثلاثة عشر عاماً ملَّ وفترت همّته، وازداد المنزل تكبّراً. لم يعد سفيفو باندينى يهتم. كان المصرفيّ الذي يملك المنزل واحداً من ألدّ أعدائه. الصورة الذهنية لوجه ذلك المصرفيّ جعلت قلبه يطرق جوعاً ليأكل نفسه بعنف. هيلمر، المصرفي.. قذارة الأرض. اضطر مراراً وتكراراً إلى الوقوف أمام هيلمر ليقول بأنه(إنه) لا يملك ما يكفي من المال لإطعام عائلته. هيلمر، ذي الشعر الرمادي المفروق بإتقان، بيدين ناعمتين، بدت عينا المصرفيّ مثل

محارتين، عندما قال سفيفو بانديني بأنه(إنه) لا يملك مالاً ليدفع قسط منزله. كان عليه أن يفعل ذلك عدة مرات، ويدا هيلمر الناعمتان أوهنتا عزيمته. لم يستطع أن يتكلم مع هذا النوع من الرجال. لقد كره هيلمر. كان يود أن يكسر عنق هيلمر، وأن ينتزع قلبه ويقفز فوقه بقدميه. قد يفكر بهيلمر ويغمغم: اليوم قادم! اليوم قادم! لم يكن منزله، ولم يكن عليه سوى أن يلمس مقبض الباب ليتذكر أنه لا يخصّه.

كان اسمها ماريا، والظلمة كانت نوراً مقارنة بسواد عينيها. مشى على رؤوس أصابعه نحو الزاوية والكرسي هناك، بالقرب من النافذة وحجابها الأخضر مسدلٌ. عندما جلس أصدرت ركبتاه طقطقة. كانت مثل رنين جرسين لماريا، وفكّر:لابد أن تكون شديدة الحماقة الزوجة التي تحب رجلاً إلى هذه الدرجة. كانت الغرفة شديدة البرودة. تعثرت أقماع من البخار من شفتيه الزافرتين. نخر كمصارع وهو يفك شرائط حذائه. يعاني دوماً مع رباط حذائه. Diavolo! هل سيصبح عجوزاً على سرير موته قبل أن يتعلم أن يربط شرائط حذائه كباقي الرجال؟

" سفيفو؟"

"نعم".

" لا تقطعها، سفيفو. أشعل النور وسوف أفكّها. لا تغضب وتقطعها".

يا رب السماء! يا أمّنا الحبيبة مريم! ألم يكن ذلك مثل امرأة تماماً؟ أغضب؟ ما الذي سيغضبني؟ أوه يا إلهي، شعر برغبة في أن يسحق النافذة بقبضته! انبرى بأظافره عند عقدتي شريطتي حذائه. شريطتي حذائه! لماذا لا بدّ من وجود شريط للحذاء؟ أوه.

"سفيفو".

"نعم".

"سأفكّها. أضِئ المصباح".

عندما يخدّر البرد أصابعك، يكون الخيط المعقود عنيداً كسلك شائك. بالرغم مما في ذراعه وكتفه من قوة، فقد صبره. انقطع الشريط مُصدراً صوت قرقرة، وكاد سفيفو بانديني يسقط عن الكرسي. تنهّد، وكذلك فعلت زوجته.

"آه، سفيفو.. لقد قطعتَها ثانية!"

" باه"، قال بازدراء". هل تتوقعين مني أن أذهب إلى السرير وأنا منتعل حذائي؟"

نام عارياً، كان يحتقر الملابس الداخلية، لكن مرة في السنة، مع أول هطول للثلج، كان يجد دوماً سروالاً داخلياً طويلاً موضوعاً من أجله على الكرسي في الزاوية. هزئ فيما مضى من هذه الحماية: تلك كانت السنة التي كاد يموت فيها من الأنفلونزا وذات الرئة، في ذلك الشتاء، عندما نهض من سرير الموت، كان يهذي من شدة الحرارة، مشمئزاً من الحبوب والشراب، وترنّح نحو حجرة المؤن، حشا حنجرته بنصف دزينة من فصوص الثوم، وعاد إلى السرير ليتعرّقها مع الموت. كانت ماريا تؤمن بأن صلواتها هي التي شفتْه، وبعد ذلك كان يعتقد بأن ما شفاه هو الثوم، لكن ماريا زعمت بأن ذلك الثوم قدّمه الله، وذلك ما لم يكن سفيفو بانديني بحاجة إلى النزاع بشأنه.

كان رجلاً، وكره منظره في السروال التحتي الطويل. كانت ماريا، وكل لطخة على سرواله، كل زر وكل خيط، كل رائحة وكل لمسة، تجعل حلمتيها تتألمان بفرح انبثق من صميم الأرض. فقد تزوجا منذ خمس عشرة سنة، وكان له لسان ويتحدث جيداً تارة عن هذا وتارة عن ذاك، لكنه لم يقل

أحبّك إلا نادراً. كانت زوجته، ولم تكن تتحدث إلا نادراً، لكنها قد أتعبته كثيراً، بتكرارها كلمة أحبك.

مشى إلى جانب السرير، أقحم يديه تحت الأغطية، وتلمّس طريقه باحثاً عن تلك المسبحة الضالة. ومن ثم انزلق بين البطانيات والتصق بها مسعوراً، ذراعاه توثقان ذراعيها، مطوّقاً ساقيها بساقيه. لم تكن رغبة، بل برد ليلة شتائية وحسب، وكانت مدفأة صغيرة من امرأة جذبه حزنها ودفؤها منذ البداية. خمسة عشر شتاء، ليلة بعد ليلة، وامرأة دافئة يرحّب جسدها بقدمين كالجليد، يدين وذراعين كالجليد، فكّر بهذا الحب وتنهّد. ومنذ فترة قصيرة سلبته قاعة الإمبريال للبلياردو آخر عشرة دولارات كان يملكها. فقط لو أن في هذه المرأة مثلبة لترمي بظل يغطي على مواطن ضعفه. خذ تيريزا ديرينزو.

كان ليتزوج تيريزا ديرينزو، لولا أنها كانت متطرفة، ثرثارة للغاية، ولأنفاسها رائحة مجرور، وهي-المرأة القوية مفتولة الساعدين-أحبّت التظاهر بضعف خفيف في ذراعيه: فكّر في الأمر! وكانت تيريزا ديرينزو أطول قامة منه! حسناً، مع زوجة مثل تيريزا استمتع بدفع الدولارات العشرة في قاعة الإمبريال للبلياردو في لعبة بوكر. لقد فكّر في ذلك النفَس، ذلك الفم الثرثار، وشكر الله على منحه فرصة لهدر ماله المجني بصعوبة. لكن ليس ماريا.

"كسر آرتورو نافذة المطبخ"، قالت.

"كسرها؟ كيف؟"

"دفع رأس فدريكو من خلالها".

"ابن الزانية!"

"لم يقصد ذلك. كان يلعب فقط".

"وماذا فعلت؟ أتصور أنك لم تفعلي شيئاً".

"وضعت اليود على رأس فدريكو. جرح صغير. لاشيء يدعو للقلق".

"لاشيء خطيرٌ! ماذا تعنين، لاشيء خطيرٌ! ماذا فعلت مع آرتورو؟"

"كان غاضباً. أراد الذهاب إلى العرض".

"وذهب".

"يحب الأولاد العروض".

"ابن الزانية الصغير القذر".

"سفيفو، لماذا تتحدث بهذه الطريقة؟ إنه ابنك!"

"لقد أفسدتِه. لقد أفسدتِهم جميعاً".

"هو مثلك، سفيفو. كنت ولداً سيئاً أيضاً".

"كنت-كالجحيم! أنت لم تمسكي بي وأنا أدفع رأس أخي من النافذة".

"لم يكن لديك من إخوة، سفيفو. لكنك دفعت أبيك على الدرَج وكسرت ذراعه".

"هل يمكنني أن أتمالك نفسي إذا كان أبي... أوه، انسي الأمر!"

تلوّى مقترباً منها وأقحم وجهه في شعرها المجدول. منذ أن ولد أوغست، ثاني أولادهما، كان لأذن زوجته اليمنى رائحة المخدّر. لقد جلبتها معها إلى البيت من المستشفى منذ عشر سنوات: أم كان يتخيل ذلك؟ كان قد تشاجر معها حول هذا طوال سنوات، لأنها أنكرت دوماً أن هناك رائحة مخدر في أذنها اليمنى. حتى الأطفال جرّبوا وفشلوا في شمّها. لكنها كانت هناك، دوماً، تماماً كما كانت تلك الليلة في الجناح، عندما انحنى ليقبّلها، بعد

أن خرجت منه، على وشك الموت، ومع ذلك على قيد الحياة.

" ماذا لو دفعت والدي على الدرج؟ ما علاقة ذلك بالأمر؟"

" هل أفسدك؟ هل أنت مدلل؟"

" كيف لي أن أعرف؟"

" أنت لست مدللاً".

أي نوع من التفكير كان ذلك بحق الجحيم؟ بالتأكيد كان مدللاً! لطالما قالت له تيريزا ديرينزو بأنه كان شريراً وأنانياً ومدللاً. وكان هذا مدعاة لسروره. وتلك الفتاة-ما كان اسمها؟ -كارميلا، كارميلا ريتشي، صديقة روكو ساتشوني، ظنّته شيطاناً، وكانت محقّة، كانت متخرجة من جامعة كولورادو، خرّيجة جامعية، قالت بأنه كان شقيّاً، رائعاً، قاسياً، خطيراً، يشكل تهديداً على الشابات.

لكن ماريا-أوه ماريا، ظنّت بأنه ملاك، نقيّ كالخبز. ما الذي تعرفه ماريا عنه؟ لم تحظَ بتعليم جامعي، لم تُنهِ تعليمها الثانوي أيضاً، ولا حتى المدرسة الثانوية. كان اسمها ماريا بانديني، لكن قبل أن تتزوجه كان اسمها ماريا توسكانا، ولم تنهِ أبداً المدرسة الثانوية. كانت الابنة الصغرى في عائلة مكونة من فتاتين وصبي. توني وتيريزا-كلاهما متخرجان في الثانوية. لكن ماريا؟ انصب بلاء العائلة عليها، هذه الأدنى من جميع أفراد العائلة، هذه الفتاة التي رغبت في الأشياء على طريقتها، ورفضت التخرج في المدرسة الثانوية. التوسكانا الجاهلة. لا تحمل الشهادة الثانوية-كادت تحصل على الشهادة -ثلاث سنوات ونصف السنة، لكن مع ذلك لم تحصل عليها. حاز طوني وتيريزا عليها، وكارميلا ريتشي، صديقة روكو، ذهبت أيضاً إلى جامعة كولورادو.

من بينهم جميعاً، لماذا كان عليه أن يقع في حب هذه المرأة التي بجانبه، هذه المرأة التي لا تحمل الشهادة الثانوية؟

" عيد الميلاد يقترب، سفيفو"، قالت". صلِّ. اسأل الله أن يجعله عيد ميلادٍ سعيداً".

كان اسمها ماريا، وكانت دوماً تقول له شيئاً يعرفه سلفاً. ألا يعرف من دون أن يخبره أحد بأن عيد الميلاد على الأبواب؟ هذه كانت ليلة الخامس من كانون الأول. عندما يذهب رجل إلى النوم بجانب زوجته في ليلة الخميس، هل من الضروري لها أن تخبره بأن اليوم التالي سيكون الجمعة؟ والفتى آرتورو-لم كان ملعوناً بولد لعب بالزلاجة؟ آه، povera America ! وعليه أن يصلي من أجل عيد ميلاد سعيد.

" هل أنت دفآن بما فيه الكفاية، سفيفو؟"

كانت هناك، ترغب دوماً بمعرفة إذا ما كان يشعر بالدفء الكافي. كانت قامتها أطول بقليل من خمسة أقدام، ولم يعرف أبداً ما إذا كانت نائمة أو مستيقظة، كانت على هذا الحال من الهدوء. زوجة مثل شبح، دوماً قانعة، في الجزء الخاص بها من السرير، تنقّل حبات المسبحة بين أصابعها، راجية عيد ميلاد مجيداً.

هل كان مستغرباً أنه لم يتمكن من دفع ثمن هذا المنزل، مستشفى المجانين هذا الذي تشغله زوجة متعصبة دينياً؟ رجل احتاج إلى زوجة تحثه، تلهمه، وتجعله يعمل بجدّ. لكن ماريا؟ آه مسكينة أمريكا! انزلقت من جانبه على السرير، أصابع قدميها وجدت، بدقّة واثقة، الخفّين على البساط، في الظلمة، وعرف أنها كانت ذاهبة إلىٰ الحمّام أولاً، ولتتفقّد الأولاد فيما بعد، زوجة كانت دوماً تخرج من السرير لتلقي على أولادها الثلاثة النظرة الأخيرة، قبل

أن تعود لتمضي بقية الليل في السرير آه، أي حياة! Io sonofregato!

كيف يمكن للرجل أن ينام في هذا المنزل، دوماً في حال من الاضطراب، تخرج زوجته دوماً من السرير دون أن تنبس بكلمة؟ اللعنة على قاعة الإمبريال للبلياردو! منزل ممتلئ، ملكات على ورقة الجويزة، وكان عليه أن يخسر. يا مريم العذراء! وعليه أن يصلي من أجل ميلاد سعيد! مع ذلك النوع من الحظ، هل عليه أيضاً أن يتحدث إلى الرب!؟ يا يسوع المسيح، إذا ما كان موجوداً فعلاً، فدعْه يُجِب!

-عجباً! بالهدوء الذي ذهبت به عادت إلى جانبه.

" فدريكو يعاني من البرد"، قالت.

وهو أيضاً مصاب بالبرد-في روحه. يمكن لابنه فدريكو أن يعاني من الزكام وماريا ستفرك صدره بالمنتول، وتضطجع هناك نصف الليل تتحدث عنه، لكن سفيفو بانديني يعاني وحده، لا بجسد متألم، بل أسوأ: بروح متألمة. في أي مكان على الأرض كان الألم أعظم مما في روحك؟ هل ساعدته ماريا؟ هل سألته يوماً عمّا إذا كان يمر بظروف عصيبة؟ هل قالت يوماً: سفيفو، حبيبي، كيف حال روحك هذه الأيام؟ هل أنت سعيد، سفيفو؟ هل من فرصة للعمل في هذا الشتاء، سفيفو؟ Dio maledetto! وأرادت ميلاداً مجيداً! كيف يمكن لك أن تحظى بميلاد مجيد عندما تكون وحدك بين ثلاثة أولاد وزوجة؟ ثقوب في حذائك، حظك سيئ في لعب الورق، ليس لديك عمل، تتعثر بالزلاجة اللعينة وتكسر عنقك، عيد ميلاد مجيد! هل كان مليونيراً؟ ربما كان له أن يكون، لو تزوج النوع المناسب من النساء. هيه: كان أحمق للغاية مع ذلك.

كان اسمها ماريا، وشعر بأن ليونة السرير تنسحب تحته، وكان عليه

أن يبتسم لأنه علم بأنها تدنو منه أكثر، وافترّت شفتاه قليلاً لتلاقيهما ثلاث أصابع من يد صغيرة، تمسّ شفاهه، ترفعه إلى أرض دافئة في الشمس، ثم كانت تنفخ أنفاسها بخفوت في منخريه من شفاه ناتئة". Cara sposa"، قال". زوجتي العزيزة". كانت شفتاها رطبتين وفركتهما بعينيه. ضحك همساً.

" سأقتلك"! همس.

ضحكت، ومن ثم أصغت، تأهّبت، أصغت لصوت الأولاد مستيقظين في الغرفة المجاورة.

" Chesara,sara"، قالت. " ما سيكون، سيكون".

كان اسمها ماريا، وكانت صبورة جداً، تنتظره، تمسّ العضلة عند سوءته، صبورة جداً، تقبّله هنا وهناك، ومن ثم الحرارة العظمى التي أحبّها، أنهكته واستلقت إلى الوراء.

" آه سفيفو، رائع جداً!"

أحبَّها بهذه الضراوة المهادنة، فخوراً جداً بنفسه، مفكّراً طوال الوقت: إنها ليست حمقاء، هذه الماريا، تعلم ماهو جيد. الفقاعة الكبيرة التي طارداها نحو الشمس انفجرت بينهما، وتأوّه بارتياح بهيج، تأوّه مثل رجل مسرور من أنه كان قادراً على نسيان الكثير من الأشياء لفترة قصيرة، وماريا، هادئة تماماً في نصف السرير، أصغت إلى خفقان قلبها وتساءلت: كم وجب عليه أن يخسر في قاعة الإمبريال للبلياردو؟ مبلغاً كبيراً لا شك، ربما عشرة دولارات، لأن ماريا لم تحصل على شهادة الدراسة الثانوية، لكن بوسعها أن تقرأ تعاسة ذلك الرجل من مقياس رغبته.

" سفيفو"، همست.

لكنه بدا نائماً. بانديني، كاره الثلج، قفز من السرير في الخامسة صباحاً، كسهم ناريّ، مستاء من الصباح البارد، هازئاً به بازدراء: كولورادو هذه، مؤخرة خلق الله، متجمدة دوماً، ما من مكان لبنَّاء إيطالي، آه، كان ملعوناً بهذه الحياة. مشى على جانبي قدميه نحو الكرسي، اختطف بنطاله وأقحم ساقيه فيه، مفكّراً بأنه كان يخسر اثني عشر دولاراً في اليوم، أدنى الأجور، ثماني ساعات من العمل الشاق، وكل شيء من أجل ذلك! هز خيط الستارة، ارتفعت وجلجلت مثل رشاش، وغاص الصباح الأبيض العاري في الغرفة، يلطّخه ببهاء. تشكّى منه. Sporca chone الوجه القذر، سمّاه.

Sporcaccione ubriaco: وجه قذر ثمل. نامت ماريا بإفاقة ناعسة لهريرة، وجعلتها تلك الستارة تستيقظ بسرعة، بدا في عينيها رعب خفيف.

" سفيفو. لا يزال الوقت مبكراً جداً".

"نامي! من يسألك؟ نامي!"

" كم الساعة؟"

" هو وقت نهوض الرجل. ووقت نوم المرأة. اخرسي".

لم يسبق لها أن استيقظت في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح. كانت ساعتها السابعة، بغضّ النظر عن الأوقات في المستشفى، وذات مرة، بقيت في السرير حتى الساعة التاسعة، وحينذاك أصابها الصداع، لكن هذا الرجل الذي تزوجته يثب دوماً من السرير في الساعة الخامسة شتاء، وفي السادسة صيفاً. عرفت ألمه في سجن الشتاء الأبيض، عرفت أنه عندما تنهض بعد ساعتين سيكون قد جرف كل برد الثلج من كل درب، ومن حول الفناء، حتى منتصف الشارع، تحت حبال الغسيل، في الزقاق، يكدسه عالياً، ينقله، يقطعه بوحشية برفشه المسطّح.

وهكذا كان. عندما نهضت وزلقت قدميها في الخفّ، أصابع القدمين متباعدة مثل زهور مهترئة، نظرت من خلال نافذة المطبخ ورأته، هناك في الزقاق، خلف السياج العالي: رجلاً ضخماً، عملاقاً مصغراً مخفيّاً، على الجانب الآخر من السياج الذي يرتفع مسافة ستة أقدام، يظهر رفشه من فوق القمة بين الحين والآخر، يقذف مرجعاً نفخات الثلج إلى السماء.

لكنه لم يشعل ناراً في موقد المطبخ. أوه لا، هو لم يشعل ناراً أبداً في موقد المطبخ. وهل كان امرأة؟ فالمرأة هي التي عليها أن توقد النار. مع ذلك، أحياناً، عندما اصطحبهم إلى الجبال، بالطبع، لم يكن مسموحاً لأحد سواه أن يوقد تلك النار، لقلي شرائح اللحم. لكن موقد المطبخ! هل كان امرأة؟

كان البرد قارساً ذلك الصباح، قارساً جداً. ارتجف فكّها وأفلت منها. ربما كان مشمّع الأرضية الأخضر الداكن صفيحة من الجليد تحت قدميها، الموقد نفسه كتلة من الجليد. يا له من موقد! طاغية، غير مروّض وسيّىء الخلق. لطالما روّضته، استرضته، تملّقته، دبٌّ أسود من موقد عرضة للقيام بثورة أحياناً، يتحدّى ماريا في أن تجعله يتوهّج، موقد مشاكس، عندما يسخن ويصبّ حرارة حلوة، يهيج فجأة ويطلق ألسنة حرارة صفراء، مهدّداً بتدمير المنزل برمّته. ماريا فقط يمكنها التعامل مع تلك الكتلة السوداء من الحديد العبوس، في الوقت المناسب، وتلحظه في الحال، ملاطفة اللهب الخجل، مضيفة زنداً من الخشب، ثم آخر وآخر، حتى يخرخر تحت رعايتها، يحمى الحديد، الفرن يتسع والحرارة تلطمه، حتى ينعر ويئن في سرور، كالأبله. كانت ماريا، والموقد لم يحبّ سواها. دع آرتورو أو أوغست يرمي كتلة من الفحم في فمه الجشع وسوف يجنّ بسخونته، محرقاً ولاذعاً الطلاء على الجدران، متحولاً إلى أصفر فظيع، قطعة من الجحيم تهسهس من أجل ماريا، التي تأتي مقطّبة وقديرة، تحمل ممسحة في يدها وهي تلومه هنا وهناك، تقفل

الثقوب ببراعة، تهزّ أحشاءه إلى أن يستأنف حالته السويّة الحمقاء. ماريا، بيدين ليستا أكبر من زهرات ذاوية، لكن ذلك الشيطان الأسود كان عبداً لها، وهي كانت مولعة به كثيراً حقاً. حافظت عليه مضيئاً وخبيثاً بشكل مبهرج، الاسم التجاري المطليّ بالنيكل يكشر بخبث، مثل فم فخور جداً بأسنانه الجميلة.

عندما يعلو اللهب بإسهاب ويتأوّه بتحية الصباح، تضع الماء عليه من أجل القهوة وتعود إلى النافذة. كان سفيفو في قنّ الدجاج، يلهث وهو ينحني على رفشه. خرجت الدجاجات من السقيفة، تقوقي وهي تحدّق به، هذا الرجل الذي رفع السماوات البيضاء الساقطة على الأرض ورماها على السياج. لكن، من النافذة رأت أن الدجاجات لم تتهادَ مقتربة منه كثيراً. وعرفت السبب. كانت دجاجاتها، أكلت من يديها، لكنها كرهته، هي تتذكّره على أنه من أتى أحياناً من ليلة السبت بنيّة القتل. هذا كان صحيحاً، كانت ممتنّة كثيراً أنه أزال الثلج بالرفش بعيداً، بحيث يمكنها أن تخدش الأرض، ثمّنت الدجاجات هذا، لكن لا يمكنها أبداً أن تثق به كما تثق بالمرأة التي أتت بالذرة التي يتقطّر ماؤها من يديها الصغيرتين. والمعكرونة أيضاً، في طبق، قبّلتها بمناقيرها عندما جلبت لها المعكرونة، لكنها ظلت تحْذر من هذا الرجل.

كانت أسماء الأولاد: آرتورو، أوغست، فدريكو. كانوا مستيقظين الآن، عيونهم بنيّة ومغسولة ببهاء في نهر النوم الأسود. كانوا جميعهم في سرير واحد، آرتورو (أربع عشرة سنة)، وأوغست (اثنتا عشرة سنة)، وفدريكو (ثماني سنوات). فتية إيطاليون، يتحامقون هناك، ثلاثة في سرير واحد، يضحكون ضحك البذاءة المميّز السريع. آرتورو واسع المعرفة. كان يخبرهم الآن بما يعرفه، خرجت الكلمات من فمه في بخار أبيض حار في

الغرفة الباردة.

كان واسع المعرفة. ولقد رأى الكثير، وعرف الكثير.

أنتم أيها الأولاد لا تعرفون ما رأيت. كانت جالسة على درج الشرفة. كنت بعيداً عنها هذا القدر من المسافة تقريباً. رأيت الكثير.

سأل فدريكو، ذو الثماني سنوات: "ماذا ترى، يا آرتورو؟"

"اسكت، أيها الأحمق الصغير. نحن لا نتحدث إليك!"

"لن أقول آرتورو".

"آه، اسكت أنت صغير جداً!"

"إذاً، سأقول!"

تعاونا حينئذ ورمياه خارج السرير. ارتطم بالأرض، يئن باكياً. تلقّفه الهواء البارد بغضب مفاجئ ووخزه بعشرة آلاف إبرة. صرخ وحاول أن يندسّ تحت الأغطية ثانية، لكنهما كانا أقوى منه، وانطلق من حول السرير نحو غرفة أمه. كانت ترفع جواربها القطنية الطويلة. كان يصرخ فزعاً.

"لقد طرداني! آرتورو وأوغست!"

"واشٍ!" صرخا من الغرفة المجاورة.

كانت تجده جميلاً جداً ذلك الفدريكو، كانت ترى أن بشرته جميلة جداً. ضمّته بين ذراعيها وربتت بيديها على ظهره، تقرص مؤخرته الجميلة الصغيرة، وتعصره بشدّة مدفئة إياه، وفكّر بعطرها متسائلاً عن اسمه وكم كان طيباً في الصباح.

"نم في سرير ماما"، قالت.

صعد إليه بسرعة، وثبّتت الأغطية من حوله، وهزّته ببهجة. كان مسروراً جداً لأنه كان إلى جانب أمه في السرير، ورأسه في العشّ المصنوع من شعر الماما، لأنه لم يحبّ وسادة أبيه، كانت رائحتها حمضية وقوية، لكن وسادة أمه كانت حلوة الرائحة وجعلته دافئاً في كل مكان.

" أعرف شيئاً آخر"، قال آرتورو". لكن لن أبوح به".

كان أوغست في العاشرة من عمره، لا يعرف الكثير. بالتأكيد يعرف أكثر من أخيه الغلام فدريكو، لكن ليس نصف ما يعرفه أخوه الذي بجانبه، آرتورو، الذي يعرف الكثير عن النساء وأمورهن.

" ماذا ستعطيني إذا أخبرتك؟" قال آرتورو.

" أعطيك آيس كريم (milk nikel) ".

" آيس كريم! يا للدهشة! من يريد آيس كريم في الشتاء؟"

" أعطيك إياه في الصيف القادم".

" معتوه. ماذا ستعطيني الآن؟"

" أعطيك أي شيء أملكه".

" هذه مخاطرة. ماذا تملك؟"

" لا أملك شيئاً".

" حسناً.. لن أخبرك شيئاً، إذاً".

" ليس لديك ما تخبره".

" كالجحيم ليس عندي!"

" أخبرني دون مقابل".

"لا البتّة".

"أنت تكذب، هذا هو السبب. أنت كاذب".

"لا تنعتني بالكاذب!"

"أنت كاذب إذا لم تقل. كاذب!"

كان آرتورو في الرابعة عشرة من عمره، نسخة مصغرة عن أبيه، دون الشارب. شفته العليا تجعدت بتلك القسوة الخفيفة. دَبّ نمشٌ على وجهه كما يدب النمل على قطعة حلوى. كان الأكبر وفكّر أنه كان صارماً للغاية، وما من أخ أحمق يمكن أن يدعوه بالكاذب دون أن يدفع الثمن. خلال خمس ثوانٍ كان أوغست يتلوّى. كان آرتورو تحت الأغطية عند قدمي أخيه.

"هذا موطئ قدمي"، قال.

"أوه! ساقي!"

"من كاذب؟!"

"لا أحد!"

كانت أمهم ماريا، لكنهم يدعونها ماما، وكانت بجانبهما الآن، لا تزال مرعوبة من واجب الأمومة، مربكة به. كان هناك أوغست الآن، كان من السهل أن تكون أمه. شعره أشقر، ومئة مرة في اليوم دون سابق إنذار على الإطلاق، فكرت بأن شعر ابنها الثاني أشقر اللون. قبّلت أوغست وطيّبت خاطره، انحنت وتذوقت الشعر الأشقر وضغطت فمها على وجهه وعيونه. كان فتى طيّباً، كان أوغست. بالتأكيد، لقد عانت الكثير من المشاكل معه. "كلى ضعيفة"، قال الطبيب هيوسن، لكن ذلك انتهى الآن، وتلك الحشيّة لم تعد مبلّلة في الصباحات قط.

سيكبر أوغست ويصبح رجلاً ممتازاً، لا يبلل السرير أبداً. كان عليها أن تمضي مئة ليلة، جاثية على ركبتيها إلى جانبه، وهو نائم، تقرقع حبات سبحتها في الظلمة، وهي تصلّي لله: رجاء أيها الرب المبارك، لا تدع ابني يتبول في السرير بعد اليوم. مئة ليلة، مئتين. لقد وصفها الطبيب بكلى ضعيفة، وهي سمّتها إرادة الله، وسفيفو بانديني سمّاها إهمالاً ملعوناً، وكان راغباً في جعل أوغست ينام في فناء المطبخ، بشعر أشقر أو من دونه. كان هناك جميع أنواع الاقتراحات للشفاء.

استمر الطبيب بوصف الأدوية. كان سفيفو مؤيّداً للجَلد بسلك شائك، لكنها دوماً تحايلت عليه لإبعاد الفكرة، وأصرّت أمّها دونا توسكانا على أن يشرب أوغست بوله. لكن اسمها كان ماريا، وكذلك اسم والدة سفيفو، وكان عليها أن تذهب إلى ماريا الأخرى تلك مسافة أميال وأميال من حبات المسبحة. حسناً، توقف أوغست، ألم يفعل؟ عندما زلقت يدها تحته في ساعات الصباح الباكر، ألم يكن جافاً ودافئاً؟ ولماذا؟ تعرف ماريا السبب.

ليس بوسع شخص آخر تفسير الأمر. قال بانديني مقسماً بالله إن الأوان قد حان، قال الطبيب إنها الأدوية التي وصفها له، وأصرت دونا توسكانا على أنه كان سيتوقف منذ وقت طويل، لو أنهم اتبعوا ما اقترحته عليهم. حتى أوغست كان ذاهلاً ومبتهجاً في تلك الصباحات، عندما كان يستيقظ، فيجد نفسه جافّاً ونظيفاً. يمكنه أن يتذكر تلك الليالي عندما استيقظ، فوجد أمّه جاثية على ركبتيها بجانبه، وجهها قبالة وجهه، والخرزات تقرقع، أنفاسها في منخريه، والكلمات القليلة المهموسة: السلام عليك يا مريم، السلام عليك يا مريم، مسكوبة في أنفه وعينيه، حتى شعر بكآبة مخيفة وهو يستلقي بين تينك المرأتين، خنقه الإعياء وجعله يصرّ على إرضائهما هما الاثنتين. هو

ببساطة لن يتبوّل في السرير ثانية.

كان من السهل أن تكون أمّاً لأوغست. يمكنها أن تلعب بالشعر الأشقر متى شاءت لأنها كانت تراه مترعاً بالعجب والغموض. لقد فعلت ماريا الكثير من أجله. لقد جعلته ينمو. لقد جعلته يشعر بأنه فتى حقيقي، ولم يعد بمقدور آرتورو أن يضايقه ويؤذيه بسبب كليتيه الضعيفتين. عندما جاءت بهدوء إلى جانبه كل ليلة، كان عليه فقط أن يشعر بالأصابع الدافئة تلاطف شعره، ليتذكر ثانية بأنها وماريا الأخرى غيّرتاه من فتىً جبان إلى فتىً حقيقيّ. لا عجب في أن رائحتها طيبة جداً. وماريا لم تنسَ أبداً غرابة ذلك الشعر الأشقر. وحده الله يعلم من أين أتى، وكانت فخورة جداً به.

فطور لثلاثة أولاد ورجل. كان اسمه آرتورو، لكنه كرهه وأراد أن يسمى جون. كان لقبه بانديني، وأراده أن يكون جونز. كان والداه إيطاليَّين، لكنه أراد أن يكون أمريكيّاً. كان والده بنّاءً، لكنه أراد أن يكون رامياً في فريق أشبال شيكاجو. عاشوا في روكلين، كولورادو، التي يعدّ سكانها عشرة آلاف نسمة، لكنه أراد أن يعيش في دنفر، التي تبعد ثلاثين ميلاً. كان وجهه منمّشاً، لكنه أراده أن يكون صافياً. التحق بالمدرسة الكاثوليكية، لكنه أراد أن يذهب إلى مدرسة رسمية. كانت لديه فتاة اسمها روزا، لكنها كرهته. كان شمّاساً ، لكنه كان شرّيراً وكره الشمامسة. أراد أن يكون فتىً طيباً، لكنه كان خائفاً من أن يكون طيباً، لأنه كان خائفاً من أن يدعوه أصدقاءه بالفتى الطيب. كان آرتورو وأحب والده، لكنه عاش في وجل من اليوم الذي يكبر فيه ويكون قادراً على ضرب أبيه. لقد كرّم والده لكنه ظن أن أمه كانت جبانة وحمقاء.

لماذا كانت أمه مختلفة عن سواها من الأمهات؟ كانت كذلك، ورأى ذلك بشكل يومي. والدة جاك هاولي أثارته: كانت لها طريقتها في مناولته

الكعك المحلّى، ما جعل قلبه يخرخر. لوالدة جيم تولاند ساقين جميلتين. لم ترتدِ والدة كارل مولا شيئاً سوى فستان من نسيج قطني مضلّع، عندما مسحت أرض مطبخ مولا، وقف على الشرفة الخلفية تغمره البهجة، يراقب السيدة مولا تمسح، تجرّعت عيناه الحارّتان حركة وركيها. كان في الرابعة عشرة، ولقد كره أمه سراً عندما أدرك أنها لا تثيره. راقب أمه بطرف عينه دوماً.

أحب أمه، لكنه كرهها. لماذا تسمح أمه لبانديني أن يترأس عليها؟ لماذا كانت تخاف منه؟ عندما كانا في السرير وهو يتمدد مستيقظاً يتعرق كراهية، لماذا تسمح أمه لبانديني أن يفعل هذابها؟ عندما تغادر الحمّام وتدخل إلى غرفة نوم الأولاد، لماذا تبتسم في الظلمة؟ لم يستطع أن يرى ابتسامتها، لكنه عرف أنها كانت مرسومة على وجهها، سرور الليل ذاك، تحب الظلمة حباً جماً والأضواء المخفية تدفئ وجهها. ثم كره كلاً منهما، لكن كرهه لها كان الأعظم. شعر كأنه يرغب بأن يبصق عليها، وبعد وقت طويل من عودتها إلى السرير، كانت الكراهية لا تزال على وجهه، تجهد عضلات خدّيه.

كان الفطور جاهزاً. سمع أبيه يطلب القهوة. لماذا كان والده يصرخ طوال الوقت؟ ألا يمكنه أن يتحدث بصوت منخفض؟ يعرف جميع من في الحي كل ما يجري في منزلهم، لأن والده لا يكفّ عن الصراخ. عائلة موري المجاورة-لا يمكنك أن تسمع أدنى صوت يندّ عنهم، أبداً، أناس أمريكيون هادئون. لكن والده لم يكن مكتفياً بكونه إيطالياً، كان عليه أن يكون إيطالياً صاخباً.

"آرتورو!" نادت أمه "الفطور".

كما لو أنه لا يعرف أن الفطور جاهز! كما لو أن جميع من في كولورادو لا يعرفون أن عائلة بانديني، في هذا الوقت، كانوا يتناولون الفطور!

كره الصابون والماء، ولم يستطع أن يفهم أبداً لِمَ عليك أن تغسل وجهك كل صباح. كره الحمّام لعدم وجود حوض للاستحمام فيه. كره فراشي الأسنان. كره معجون الأسنان الذي اشترته أمه. كره مشط العائلة، المسدود دوماً بالملاط من شعر والده، وكره شعره لأنه لم ينسدل أبداً. وفوق كل شيء، كره وجهه المبقّع بالنمش، مثل عشرة آلاف بنس متناثرة على بساط. الشيء الوحيد الذي أحبه في الحمام كان لوح الأرضية الرخو في الزاوية. هنا أخفى مجلتي "الجريمة الحمراء" و"حكايات مرعبة".

"آرتورو! سيبرد البيض".

بيض. يا رب كم يكره البيض!

كان البيض بارداً، لا بأس، لكن ليس أكثر برودة من عينَي والده، اللتين حملقتا إليه وهو يجلس. ثم تذكّر، ونظرة أخبرته أن أمه وشت به. يا يسوع! أمه غدرت به! أومأ بانديني نحو نافذة الغرفة ذات الألواح الزجاجية الثمانية، أحد الألواح مفقود، الفتحة مغطاة بمنشفة الأطباق.

"إذاً، أنت دفعت رأس أخيك من النافذة؟"

كان كثيراً على فدريكو. رآه مجدداً: آرتورو غاضب، آرتورو يقحمه في النافذة، تكسّر الزجاج. فجأة بدأ فدريكو بالبكاء. لم يبك الليلة الماضية، لكنه تذكّر الآن: الدم ينزف من شعره، أمه تغسل الجرح، تطلب منه أن يكون شجاعاً. كان رهيباً. لِمَ لم يبكِ الليلة الماضية؟ لم يستطع أن يتذكر، لكنه كان يبكي الآن، برجمة قبضته تجدل دموع عينيه.

"اخرس!" قال بانديني.

"دع شخصاً يدفع رأسك من النافذة"، نشج فدريكو"، وانظر إذا كنت لن تبكي!"

كرهه آرتورو. لِمَ كان عليه أن يكون لديه أخ صغير؟ لِمَ كان عليه أن يقف أمام النافذة؟ أي نوع من الأشخاص كان هؤلاء الإيطاليون؟ انظر إلى والده، هناك. انظر إليه يسحق البيض بشوكته ليُبدي شدة غضبه. انظر إلى صفار البيض على ذقن والده! وعلى شاربه. بالتأكيد، كان إيطالياً، وكان عليه أن يربّي شارباً، لكن هل كان عليه أن يسكب هذا البيض من خلال أذنيه؟ ألا يمكنه أن يجد فمه؟ يا إلهي هؤلاء الإيطاليون!

لكن فدريكو هدأ الآن. لم يعد عذابه ليلة أمس يثير اهتمامه، لقد وجد فتات خبز في حليبه، وذكّره بمركب يعوم في المحيط: درررررر، قال الزورق المزود بمحرك. ماذا لو كان المحيط مصنوعاً من حليب حقيقي-هل يمكنك أن تحصل على آيس كريم في القطب الشمالي؟ فجأة فكر بالليلة الماضية مجدداً. ترقرق دفق من الدموع في عينيه وانتحب. لكن فتات الخبز كانت تغرق. لا تغرق أيها المركب! لا تغرق! كان بانديني يراقبه.

" لأجل المسيح!" قال". هل ستشرب ذلك الحليب وتكفّ عن التحامق؟"

كان استخدام اسم المسيح بطيش مثل صفعة على فم ماريا. عندما تزوجت بانديني لم يكن قد سبق لها أن أقسمت. لم تعتد على ذلك أبداً. لكن بانديني أقسم على كل شيء. كانت أولى الكلمات الإنجليزية التي تعلمها ليلعنه الله. كان فخوراً جداً بلعناته. عندما كان غاضباً لطالما خفف عن نفسه بلغتين.

" حسناً"، قال"، لماذا دفعت رأس أخيك من النافذة؟"

" كيف لي أعرف"؟ قال آرتورو". لقد فعلت وهذا كل شيء".

قلَب بانديني عينيه في رعب.

" وكيف تعرف بأني لن أتخلص من حماقتك اللعينة؟"

" سفيفو"، قالت ماريا". سفيفو أرجوك!"

" ماذا تريدين؟" قال.

" لم يقصد ذلك، سفيفو"، ابتسمت" لقد كان حادثاً. الأولاد يظلون أولاداً".

وضع منديل المائدة بضربة. صرّ على أسنانه وأمسك شعر رأسه بكلتا يديه، وتأرجح في كرسيه للأمام والخلف وبالعكس.

" الأولاد يظلون أولاداً!" قال". ذلك الوغد الصغير يدفع رأس أخيه من النافذة والأولاد يظلون أولاداً! من سيدفع ثمن تلك النافذة؟ من سيدفع فاتورة الطبيب عندما يدفع أخاه عن المنحدر؟ من سيدفع للمحامي عندما يرسلونه إلى السجن لأنه قتل أخاه؟ قاتل في العائلة! أوه Deo uta me أوه يا رب ساعدني!"

هزّت ماريا رأسها وابتسمت. قلَبَ آرتورو شفتيه في سخرية قائلة: إذاً، كان أبوه ضده أيضاً، وقد اتهمه بالقتل. رأس أوغست تعذّب بحزن، لكنه كان سعيداً جداً لأنه لن يتحول ليصبح قاتلاً مثل أخيه آرتورو، سيصبح أوغست كاهناً، ربما سيكون هناك ليناول القربان المقدس الأخير، قبل أن يرسلوا آرتورو إلى الكرسي الكهربائي. أما فدريكو، فقد رأى نفسه ضحية انفعال أخيه، رأى نفسه ممدداً في الجنازة، كان جميع أصدقائه من سانت كاثرين هناك، يجثون ويبكون، أوه، لقد كان مريعاً. عيناه عامتا مرة أخرى، وبكى بمرارة، يتساءل عمّا إذا كان بوسعه أن يشرب كأساً آخر من الحليب.

" هل يمكن أن أحصل على زورق مزود بمحرك في عيد الميلاد"؟ قال.

حملق بانديني فيه مندهشاً.

" هذا كل ما نحتاجه في هذه العائلة"، قال. ثم رفرف لسانه بتهكم: " هل تريد زورقاً مزوداً بمحرك حقاً، يا فدريكو؟ ذلك الذي يطلق صوت بوت بوتبوت؟"

" هذا ما أريد!" ضحك فدريكو". ذلك الذي يسير مصدراً صوت بوت بوت! " كان فيه الآن، يوجّهه نحو طاولة المطبخ وعبر بحيرة زرقاء نحو الجبال. جعلته نظرة بانديني يطفئ المحرك ويلقي المرساة. كان هادئاً جداً الآن. كانت نظرة بانديني ثابتة، عبره مباشرة. أراد فدريكو أن يبكي ثانية، لكنه لم يجرؤ. رمى عينيه على كأس الحليب الفارغ، رأى قطرة أو اثنتين في قعر الكأس، فشربهما بحذر، تسترق عيناه نظرة إلى أبيه من فوق الكأس. جلس سفيفو باندينى هناك ينظر شزراً. شعر فدريكو بقشعريرة تسري فيه.

" يا هذا"، أنَّ". ماذا فعلت؟"

لقد كسر الصمت. ارتاحوا جميعاً، حتى بانديني، الذي تحمّل المشهد لوقت طويل بما فيه الكفاية. تحدث بهدوء.

" ليس هناك زوارق مزودة بمحرّك، أتفهم؟ ما من زوارق إطلاقاً".

هل كان هذا كل شيء؟ تنهّد فدريكو بسعادة. وآمن طوال الوقت أن والده اكتشف أنه هو من سرق البنسات من بنطال عمله، وكسر مصباح الشارع على الناصية، ورسم صورة الأخت ماري كونستانس تلك على السبورة، ضرب ستيلا كولومبو على عينها بكرة الثلج، وبصق في جرن الماء المقدس في كنيسة القديسة كاثرين.

قال بعذوبة:" لا أريد زورقاً مزوداً بمحرّك بابا، إذا كنت لا تريد أن تجلب لي واحداً، لا أريد بابا".

أومأ بانديني باستحسان لامرأته: هكذا تتم تنشئة الأطفال، قالت

إيماءته. عندما تريد من ولد أن يفعل شيئاً حدّق به فقط، هكذا تتمّ تنشئة الأولاد. أكل آرتورو آخر ما تبقّى من البيض في الطبق وتهكّم: يا يسوع، أي أحمق كان والده! عرف آرتورو فدريكو ذاك، عرف أي محتال صغير كان فدريكو، ذلك الوجه الحلو لم يكن ليخدعه طويلاً، وفجأة تمنى لو أنه لم يكتفِ فقط بدفع رأس فدريكو، لكن جسده كله، رأسه وقدميه وكل شيء، من تلك النافذة.

" عندما كنت صبياً"، بدأ بانديني"، عندما كنت صبياً في البلد القديم".

في الحال غادر فدريكو وآرتورو الطاولة. هذا كان أمراً قديماً بالنسبة لهما. عرفا بأنه كان سيقول لهما للمرة العشرة آلاف بأنه حصل على أربعة سنتات في اليوم، لقاء حمل حجر على ظهره، عندما كان ولداً، في البلاد القديمة، يحمل حجراً على ظهره، عندما كان ولداً. نوّمت القصة سفيفو بانديني. كان حلماً خنق وضبّب هيلمر المصرفي، الثقوب في حذائه، المنزل الذي لم يكن قد دفع ثمنه، وأطفال لابدّ من إطعامهم. عندما كنت ولداً: حلم. تعاقب سنوات، عبور المحيط، كُدْسُ أفواه يجب إطعامها، ركام مشاكل، سنة بعد سنة، كان هناك شيء ما للتفاخر به أيضاً، مثل تجميع ثروة عظيمة. لم يتمكن من شراء حذاء بها، لكن هذا حدث معه. عندما كنت طفلاً-. ماريا، تستمع مرة أخرى، متسائلة لِمَ يرويها دوماً بتلك الطريقة، دوماً يرجع السنوات، جاعلاً من نفسه أكبر سناً.

وصلت رسالة من دونا توسكانا، والدة ماريا. دونا توسكانا بلسانها الكبير الأحمر، ليس كبيراً بما فيه الكفاية لكبح سيل البصاق الغاضب من فكرة أن ابنتها تزوجت من سفيفو بانديني. قلبت ماريا الرسالة مراراً وتكراراً. كان الصمغ على الغلاف ثخيناً حيث مسحه لسان دونا الضخم. ماريا توسكانا. 345 شارع ويلنت، روكلين، كولورادو، لأن دونا رفضت

استعمال اسم الزواج لابنتها. الخط الثقيل، البدائيّ، ربما كان يجري من منقار صقر نازف، خط امرأة قروية ذبحت للتو عنزة. لم تفض ماريا الرسالة، لأنها تعرف فحواها.

دخل بانديني من الفناء الخلفي. يحمل بيديه كتلة ثقيلة من الفحم المتألق. رماها في دلو الفحم خلف الموقد. كانت يداه ملطختين بالهباب الأسود. قطّب، لأن حمل الفحم أزعجه، كان عملاً يخصّ المرأة. نظر نحو ماريا نظرة مشاكسة. أومأت إلى الرسالة المسندة على مملحة بالية على المشمع الأصفر. تلوّى خطُّ حماته الصعب مثل أفعى صغيرة أمام عينيه. كره دونا توسكانا بغضب بلغ الخوف. كلما التقيا اشتبكا مثل ذكر الحيوان وأنثاه. استمتع بالقبض على تلك الرسالة بيديه المسودتين المتسختين. لقد أبهجه أن يفتحها بعنف، بإهمال، دون أن يعبأ بالرسالة التي بداخلها. قبل أن يقرأ النص، رفع عينين ثاقبتين نحو زوجته، ليجعلها تعلم مرة أخرى كم كان كرهه عميقاً للمرأة التي منحتها الحياة. كانت ماريا بائسة، هذا لم يكن خلافها، طوال حياتها الزوجية تجاهلته، وكانت لتتخلص من الرسالة لولا أن بانديني كان يمنعها حتى من أن تفتح رسائل أمها. كان يستمتع أيّما استمتاع برسائل أمها التي كانت تثير رعب ماريا، كان هناك شيء ما أسود ورهيب فيها، مثل التلصّص من تحت حجر رطب.

كان متعة سقيمة لضحية، من رجل شعر بفرح دخيل في الغالب من تأديب حماة استمتعت ببؤسه الحالي، بعد أن داهمته الأزمنة الصعبة. أحب بانديني ذلك، أحب تلك المضايقة، لأنها منحته دافعاً وحشياً لكي يثمل. هو نادراً ما يفرط في الشراب لأنه يسقمه، لكن كان لرسالة من دونا توسكانا أثر طائش عليه. لقد قدّمت له عذراً يستوجب السلوان، لأنه عندما يثمل يمكنه أن يكره حماته إلى حد الهستيريا، ويمكنه أن ينسى، يمكنه أن ينسى منزله

الذي ظل غير مدفوع الثمن، فواتيره، الضغط الرتيب للزواج.

هذا عنى الهرب: يوماً، يومين، أسبوعاً من التنوّم-وماريا بوسعها تذكّر أزمنة كان فيها يسكر لأسبوعين. لم يكن هناك إخفاء لرسائل دونا عنه. وصلت نادراً لكنها كانت تعني فقط أمراً واحداً، أن دونا ستمضي معهم أصيلاً. إذا ما وصلت الرسالة دون أن يراها سيعرف بانديني أن زوجته أخفتها. آخر مرة فعلت ذلك، فقد سفيفو أعصابه وضرب آرتورو ضربة فظيعة، لأنه وضع الكثير من الملح على طبق المعكرونة، استياء غير مبرر، وبالتأكيد لم يكن ليلحظه في ظل ظروف عادية. لكن الرسالة أُخفيَتْ، وعلى شخص ما أن يعاني بسبب ذلك. كانت هذه الرسالة الأخيرة مؤرّخة في اليوم السابق، الثامن من كانون الأول، وليمة عيد الحبل بلا دنس. بينما كان بانديني يقرأ الأسطر، شحب اللحم على وجهه واختفى دمه كما يبتلع الرمل ماء المد. تقول الرسالة:

عزيزتي ماريا:

اليوم هو عيد مجيد لأمنا المباركة، وأنا ذاهبة إلى الكنيسة لأصلي من أجلك في بؤسك. قلبي يرحل إليك والأطفال المساكين، المبتلين بالظرف المأساوي الذي تعيشون فيه. لقد طلبت من الأم المباركة أن تحلّ رحمتها عليكم، وأن تجلب السعادة لهؤلاء الصغار الذين لا يستحقون مصيرهم. سأكون في روكلين أصيل يوم الأحد، وسأغادر على متن حافلة الساعة الثامنة. كل الحب والعاطفة لك وللأطفال.

دونا توسكانا.

وضع بانديني الرسالة، دون أن ينظر إلى زوجته، وبدأ يقضم ظفر إبهامه المنهوب سلفاً. نتفت أصابعه شفته السفلى. نشأ غضبه في مكان ما خارجه.

يمكنها أن تشعر به يعلو من زوايا الغرفة، من الجدران والأرض، رائحة تنتقل في دوامة خارجها تماماً. ببساطة سوّت قميصها لتلهي نفسها.

قالت بضعف: " الآن سفيفو".

نهض، داعبها تحت الذقن، ابتسمت شفتاه بخبث، ليعلمها أن عرض العاطفة هذا لم يكن حسن القصد، وخرج من الغرفة.

" أوه ماري!" غنّى، لا يوجد موسيقا في صوته، فقط كراهية تدفع كلمات أغنية حب من حنجرته.

" أوه ماري. أوه ماري! Quantosonnaperdato per te! Fa me dor me! Fa me dor me! أوه ماري، أوه ماري! كم من نوم خسرت بسببك! أوه دعيني أنام، يا عزيزتي ماري!"

لم يكن هناك ما يوقفه. أصغت إلى قدميه على نعلين رقيقين، وهما ينقران على الأرض مثل قطرات من الماء ترشّ على موقد. سمعت حفيف معطفه المرقّع والمخيط وهو يقذف نفسه بداخله. ثم ران صمت لبرهة، إلى أن سمعت صوت عود ثقاب، وعرفت أنه كان يشعل سيجاراً. كان غضبه عظيماً جداً عليها. تدخُّلها، إذا ما تدخلت، قد يستدرجه لضربها. عندما اقتربت خطواته من الباب الرئيس حبست أنفاسها: كان هناك لوح زجاجي في ذلك الباب الرئيس. لكن لا-أغلقه بهدوء ورحل. بعد فترة قصيرة سيلتقي صديقه الحميم روكو ساتشوني، الحجّار، الكائن البشري الوحيد الذي تكرهه بحق.

روكو ساتشوني، صديق صبا سفيفو بانديني، العازب، شارب الويسكي الذي حاول أن يمنع زواج بانديني، روكو ساتشوني الذي يرتدي قمصاناً صوفية ناعمة بيضاء في جميع الفصول، ويتفاخر، على نحو مثير للاشمئزاز،

بغواياته ليالي السبت لنساء أمريكيات متزوجات، في حفلات Old-time الأزمنة الغابرة الراقصة في قاعة Odd Fellows. يمكنها أن تثق بسفيفو. قد يسبح دماغه في بحر من الويسكي، لكنه لن يخونها. هي تعرف ذلك. لكن هل يمكنها؟ لاهثةً، رمت نفسها في الكرسي إلى الطاولة وبكت وهي تدفن وجهها بين يديها.

الفصل الثاني

كانت ساعة الصف الثامن تشير إلى الثالثة إلا ربعاً، في مدرسة القديسة كاثرين. كانت الأخت ماري سيليا في نوبة غضب خطيرة، عينها الزجاجية تنبض في محجرها. الجفن الأيسر يرتعش باستمرار، خارج عن السيطرة تماماً. شاهد عشرون تلميذاً في الصف الثامن -أحد عشر ولداً وتسع فتيات- الجفن المرتعش. الثالثة إلا ربعاً: خمس عشرة دقيقة على موعد الانصراف. كانت نيللي دويلي، وفستانها الرقيق عالق بين ردفيها، تتلو الآثار الاقتصادية لمحلاج إلي وايتني، وكان ولدان من خلفها، جيم ليسي وإيدي هولم، يضحكان كالجحيم على الفستان العالق بين ردفي نيللي، لكن بصوت خفيض. سبق أن قيل لهما مراراً وتكراراً أن يحترسا، إذا ما بدأ جفن عين سيليا الزجاجية يقفز، لكن، هلاّ نظرت إلى دويلي هناك!

" لم تكن الآثار الاقتصادية لمحلاج إلي وايتني مسبوقة في تاريخ القطن"، قالت نيللي.

نهضت الأخت ماري سيليا على قدميها.

استدعتهما قائلة: " هولم وليسي! قفا!"

جلست نيللي في حيرة من أمرها، ونهض الولدان. اصطكّت ركبتا ليسي، وضحك التلاميذ ضحكاً متقطعاً، كشّر ليسي، ثم تورّد خجلاً. سعل هولم مطأطئ الرأس وهو يتفحص حروف العلامة التجارية المنقوشة على جانب قلمه. كان يقرأ هذه الكتابة لأول مرة في حياته، وقد فاجأه بعض

الشيء أن يعلم ما كان مكتوباً ببساطة: شركة والتر للأقلام.

" هولم وليسي"، قالت الأخت سيليا" لقد سئمت من الحمقى المكشّرين في صفوفي. اجلسا!" ثم خاطبت المجموعة برمتها، لكنها في حقيقة الأمر كانت تخاطب الصِّبْية فقط، لأن الفتيات لم يتسببن لها بالمشاكل إلا لماماً: " والشقيّ التالي الذي سأمسك به شارداً عن القراءة، عليه أن يبقى حتى الساعة السادسة. واصلي، نيللي".

نهضت نيللي ثانية. أدار ليسي وهولم رأسيهما نحو الجانب الآخر من غرفة الصف، مذهولَين من السهولة البالغة التي تملّصا بها، خشية من أنهما قد يعاودان الضحك إذا كان فستان نيلي لا يزال عالقاً.

" لم تكن الآثار الاقتصادية لمحلاج إلي وايتني مسبوقة في تاريخ القطن"، قالت نيلي.

تحدث ليسي إلى الصبي الجالس أمامه همساً.

" هيه، هولم.. انظر نحو بانديني".

جلس آرتورو في جهة الغرفة المقابلة، على مسافة ثلاثة مقاعد عن المقدمة. كان مطرق الرأس، صدره أمام طاولة الكتابة، ويحدّق بمرآة يد صغيرة مسندة إلى الدواة، وهو يمرّر رأس القلم على أنفه. كان يعدّ نمشه. نام الليلة الماضية ووجهه ملطّخ بعصير الليمون: كان من المفترض أن يكون رائعاً لإزالة النمش.

عدَّ: ثلاث وتسعون، أربع وتسعون، خمس وتسعون... استحوذ عليه إحساس بعبثية الحياة. وهنا كان الشتاء الكابي، والشمس لا تظهر سوى لبرهة في الأصائل المتأخرة، وقفز العدد حول أنفه وخديه مضيفاً تسع نمشات إلى المجموع الكلّي المؤلف من خمس وتسعين. أيُّ فائدة ترجى من العيش؟ وقد

استعمل ليلة الأمس عصير الليمون أيضاً. من كانت تلك الكاذبة التي كتبت على الصفحة الرئيسة في عدد أمس من صحيفة دينفر بوست أن النمش "يختفي مثل الريح"، بعد استعمال عصير الليمون؟ أن تكون ذا نمش أمر سيئ بما فيه الكفاية، لكن على حدّ علمه، كان الوحيد على وجه الأرض من أصول إيطالية الذي يحمل نمشاً على وجهه. من أين أتاه النمش؟ من أي طرف من طرفي العائلة ورث تلك العلامات الصغيرة النحاسية التي لحيوان؟ بضراوة شرع يستطلع حول أذنه اليسرى. بلغه التقرير الشاحب عن الآثار الاقتصادية لمحلاج إلي وايتني على نحو مبهم.

كانت جوزفين بيرلوتا تقرأ: من بحقّ الجحيم يهتم ما كان على بيرلوتا أن تقوله عن محلاج القطن؟ كانت من أصول إيطالية-كيف يمكن لها أن تعرف أي شيء عن محالج القطن؟ سيتخرج في حزيران، حمداً لله على ذلك، من هذه المدرسة الكاثوليكية المزبلة، ويلتحق بمدرسة ثانوية رسمية، حيث الطلاب من أصول إيطالية قلّة ومتباعدون. وصل العدد على أذنه اليسرى الآن إلى سبع عشرة، أكثر باثنتين من البارحة. اللعنة على ذلك النمش! تكلّم الآن صوت جديد عن محلاج القطن، صوت مثل كمان خافت، يرسل الذبذبات في لحمه، يمسك بأنفاسه. وضع قلمه وفغر فاه. كانت واقفة هناك أمامه- جميلته: روزا بينيللي، حبيبته، فتاته. أوه يا محلاج القطن! أوه يا إلي وايتني الرائع! أوه روزا، كم أنت جميلة! أحبك، روزا، أحبك، أحبك، أحبك!

كانت إيطالية بالتأكيد، لكن هل تحمل وزر ذلك؟ هل كان خطأها أكثر مما هو خطؤه؟ أوه، انظر إلى شعرها! انظر إلى أكتافها! انظر إلى ذلك الفستان الجميل الأخضر! أصغِ إلى ذلك الصوت! أوه يا روزا! حدّثيهم روزا. حدثيهم عن محلاج القطن ذاك! أعرف أنك تكرهينني روزا. لكني أحبك، روزا. أحبك، ويوماً ما سترينني لاعب خط وسط ميداني مع فريق نيويورك

يانكيز ، يا روزا. سأكون هناك في خط الوسط، يا حبيبتي، وستكونين فتاتي، جالسة في مقعد مقصورة قبالة القاعدة الثالثة، وسوف أدخل، وسيكون الشوط الأخير من الجولة التاسعة، وسيكون اليانكيز متأخرين بثلاث نقاط. لكن لا تقلقي، روزا! سأنهض هناك مع ثلاثة رجال عند القاعدة، وسأنظر إليك، وسوف ترمين لي بقبلة، وسوف ألكم تلك التفاحة القديمة من فوق جدار خط الوسط تماماً. سأصنع التاريخ حبيبتي. قبّليني وسأصنع التاريخ!

" آرتورو بانديني!"

لن يكون لديّ أيُّ نمش عندئذ، أيضاً، يا روزا. سيكون النمش قد اختفى-يختفي النمش دوماً عندما يكبر المرء.

" آرتورو بانديني!"

" سأغيّر اسمي أيضاً، روزا. سيسمّونني بانينج، الطفل بانينج، فن، اللص الضارب..

" آرتورو بانديني!"

تلك المرة سمعه. هدير حشد بطولة العالم قد توقف. رفع بصره ليجد الأخت ماري سيليا تلوح فوق مكتبها، تخبط بقبضتها عليه، عينها اليسرى ترتعش. كانوا جميعهم يحدقون به، حتى روزاه تضحك عليه، اندفعت معدته من تحته، عندما أدرك أنه كان يهمس بخيالاته بصوت مرتفع. يمكن للآخرين أن يضحكوا لو أحبوا، لكن روزا-آه روزا! وكان ضحكها أكثر حدة من الجميع، وشعر بأنه يجرحه، وكرهها: تلك الفتاة الإيطالية، ابنة عامل منجم للفحم إيطالي عمل في بلدة غينيا، مدينة لويزفيل: عامل منجم حقير ملعون. كان اسمه سالفاتوري، سالفاتوري بينيللي، كان دنيئاً جداً ليعمل في منجم للفحم. هل نصب جداراً يصمد لسنوات وسنوات، مئة سنة، مئتي سنة؟

لا-إيطالي أحمق، كان لديه معول فحم ومصباح على قبعته، وكان عليه أن ينزل تحت الأرض ليكسب قوت يومه، مثل جرذ إيطالي ملعون حقير. كان اسمه آرتورو بانديني، وإذا كان هناك أحد في هذه المدرسة يريد أن يلفظه، فدَعْهُ يرفع صوته وسيكسر أنفه.

" آرتورو بانديني!"

" حسناً"، تكلّم ببطء" حسناً أيتها الأخت سيليا. سمعتك". ثم نهض. راقبه الصف. همست روزا بشيء إلى الفتاة الجالسة خلفها، مخفية ابتسامتها بيدها. رأى الإيماءة وكان مستعداً ليصرخ عليها، ظنّاً منه أنها قد أشارت لنمشه، أو للرقعة الكبيرة على ركبة بنطاله، أو عن حقيقة أن شعره يجب أن يقص، أو تقصير القميص الذي كان يرتديه والده ولم يلائمه يوماً كثيراً، أو تعديله.

" باندينى"، قالت الأخت سيليا" أنت أبله بلا شك. حذّرتك حول الشرود. مثل هذه الحماقة لا بدّ أن تُجازى. عليك أن تبقى بعد المدرسة حتى الساعة السادسة".

جلس. وقرع جرس الساعة الثالثة بشكل هستيري عبر الردهات.

كان وحيداً، والأخت سيليا جالسة إلى مكتبها تصحّح أوراقاً. عملت ذاهلة عنه، يرتعش جفنها الأيسر بعصبية. ظهرت الشمس الشاحبة في الجنوب الغربي عليلة، أكثر شبهاً بقمر متعب في ذلك الأصيل الشتائي. جلس موسداً ذقنه إحدى يديه، يراقب الشمس الباردة. بدا أن أشجار التنوب خلف النوافذ تزداد برودة، مثقلة بحمولتها البيضاء الحزينة. سمع من مكان ما في الشارع صرخة ولد، ثم قرقعة سلاسل عجلة. كره الشتاء. يمكنه أن يتصور ملعب البيسبول خلف المدرسة، مدفوناً في الثلج، المصدّ

الخلفي خلف صحن البيت مكوم بثقل خيالي-المشهد برمته موحش وحزين للغاية. ما الذي يمكن أن يفعله في الشتاء؟ كان إلى حد ما راضياً بالجلوس هناك، ومنحته عقوبته المتعة. في النهاية هذا المكان جيد للجلوس كأي مكان آخر.

" هل تريدين مني أن أفعل شيئاً يا أختاه؟" سأل.

أجابت دون أن ترفع بصرها عن عملها:" أريدك أن تجلس ساكناً وتبقى هادئاً، إذا كان هذا ممكناً".

ابتسم وتشدّق بالكلام:" حسناً، أيتها الأخت".

جلس ساكناً وهادئاً لمدة عشر دقائق.

" أختاه"، قال". هل تريدين مني أن أمحو السبورة؟"

" نحن ندفع أجراً لرجل مقابل هذا العمل"، قالت" إضافة إلى أنّ عليّ أن أقول إننا نفيه فوق حقه".

" أختاه"، قال" هل تحبين البيسبول؟"

" لعبتي هي كرة القدم"، قالت "أكره البيسبول، إنها تسئمني".

" هذا لأنك لا تفهمين الجانب الأروع للعبة".

" اهدأ باندايني"، قالت" من فضلك".

غيّر وضعيته، مسنداً ذقنه على ذراعيه ومراقباً إياها عن كثب. استمر جفنها الأيسر بالارتعاش. تساءل كيف تضع العين الزجاجية. كان يتوقع دوماً أن شخصاً ما ضربها بكرة البيسبول، الآن تأكد من ذلك تقريباً. جاءت إلى مدرسة القديسة كاثرين من Fort Dodge فورت دودج، آيوا. تساءل أي نوع من البيسبول يلعبون في آيوا، وإذا ما كان هناك الكثير من الإيطاليين.

" كيف حال والدتك؟" سألت.

" لا أعرف. رائعة، كما أظن".

رفعت رأسها عن عملها لأول مرة ونظرت إليه". ماذا تعني بأنك تظن ذلك؟ ألا تعرف؟ أمك شخص عزيز، شخص جميل. روحها روح ملاك".

على حد علمه، كان هو وأخواه الوحيدين الذين لا يدفعون في تلك المدرسة الكاثوليكية. كان رسم التعليم دولارين اثنين فقط شهرياً لكل طفل، لكن ذلك يعني ستة دولارات عنه وعن أخويه، ولم يدفع يوماً. كان تمييزاً يستجلب له ألماً عظيماً، هذا الشعور بأن الآخرين سددوا ما عليهم من رسوم وهو لم يفعل. ستضع أمه بين الحين والآخر دولاراً أو اثنين في مغلف وتطلب إليه أن يرسله إلى الراهبة المشرفة كدفعة على الحساب. هذا كان أكثر مقتاً.

لطالما رفض رفضاً عنيفاً. لم يرفض أوغست، بأية حال، إيصال المغلفات النادرة، كان حقاً ينتهز الفرصة. كره أوغست لذلك، لأنه يثير من فقرهم قضية، لرغبته بتذكير الراهبات بفقرهم. لم يرغب يوماً بالذهاب إلى مدرسة الراهبات بأية حال. كان البيسبول وحده هو الذي جعل الأمر مقبولاً. عندما قالت له الأخت سيليا إن أمه روح جميلة، عرف أنها تقصد أن أمه كانت شجاعة لتضحيتها وتخليها عن تلك المغلفات الصغيرة. لكن لم يكن يرى في ذلك شجاعة. كان مريعاً، كريهاً، ميّزه هو وإخوته عن الآخرين. لماذا؟ لم يكن على يقين من السبب -لكن الشعور الذي جعلهم مختلفين عن الجميع في عينيه كان هناك. كان بشكل ما جزءاً من مكيدة، وبضمنها نمَشُه، وحاجته إلى قصّ شعره، والرقعة على ركبته، وكونه إيطالياً.

" هل يذهب والدك إلى القدّاس يوم الأحد، آرتورو؟"

" بالتأكيد"، قال.

غصّ في حلقه. لماذا انبغى عليه أن يكذب؟ لا يذهب والده إلى القداس إلا صبيحة عيد الميلاد، وأحياناً في آحاد الفصح. سواء كانت أكذوبة أم لم تكن، سَرّه أن يحتقر والده القداس. هو لم يكن يعرف السبب، لكن ذلك سرّه. تذكر حجّة والده تلك. قال سفيفو، إذا كان الله في كل مكان، لم عليَّ الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد؟ لم لا يمكنني الذهاب إلى قاعة الإمبريال؟ أليس الله موجوداً هناك أيضاً؟ لطالما ارتجفت أمه رعباً على هذا الجزء من النظرية اللاهوتية، لكنه تذكّر كم كان ردّها عليه واهناً، الجواب نفسه الذي تعلّمه من كتاب التعليم الديني، وتلقّت أمه التعليم نفسه منذ سنوات. كان واجبنا كمسيحيين، قال الكتاب. بالنسبة له، ذهب أحياناً إلى القداس وأحياناً لم يفعل. في المرات التي لم يذهب فيها، تملّكه خوف عظيم، وكان بائساً وخائفاً إلى أن أراح صدره في كرسي الاعتراف.

عند الرابعة والنصف، أنهت الأخت سيليا تصحيح أوراقها. جلست هناك ضجرة، منهكة ومنزعجة من تبرّمه لفعل شيء ما، أيّ شيء. كانت الغرفة مظلمة تقريباً. تهادى القمر من السماء الشرقية الموحشة، وكان ليصبح قمراً أبيض إذا ما تحرر يوماً. كدّرته الغرفة في نصف ظلمة. كانت غرفة لدخول الراهبات، بأحذية سميكة صامتة. تحدثت المناضد الفارغة بحزن عن الأطفال الذين رحلوا، وبدت منضدته متعاطفة، تخبره حميميتها الدافئة أن يذهب إلى البيت كي تبقى وحيدة مع الآخرين. خربش وعلّم بأحرف اسمه الأولى، لطخ وبقع بالحبر، كانت المنضدة سئمة منه كما كان سئماً منها. الآن كره واحدهما الآخر تقريباً، وكل واحد صابر جداً مع الآخر.

وقفت الأخت سيليا تجمع أوراقها.

" يمكنك المغادرة عند الخامسة"، قالت" لكن بشرط واحد".

استنفد نعاسه أي فضول لمعرفة كنه ذلك الشرط. تمدّد وقدماه ملتفّتان حول المكتب أمامه، لم يفعل شيئاً سوى التصبب عرقاً متقززاً من نفسه.

" أريدك أن تغادر في الخامسة وتذهب إلى القربان المقدس، وأريدك أن تطلب من مريم العذراء أن تبارك أمك وتجلب لها كل سعادة تستحقها- المسكينة".

ثم غادرت. المسكينة. أمه-المسكينة. لقد أعملت اليأس بداخله، ما جعل عيناه تترغرغان بالدمع. في كل مكان كان الأمر مشابهاً، دوماً أمه-المسكينة، دوماً مسكينة ومسكينة، دوماً تلك، تلك الكلمة، دوماً فيه ومن حوله، وفجأة أفرج عنه في تلك الغرفة نصف المظلمة وبكى، ينتحب مخرجاً البؤس منه، يبكي ويغصّ، ليس لهذا السبب، ليس من أجلها، من أجل أمه، لكن من أجل سفيفو بانديني، على والده، منظر والده، تلك اليدين الخشنتين لأبيه، لأدوات أبيه البنّاء، من أجل جدران بناها والده ، الأدراج، الأفاريز، المرامد والكاتدرائيات، وكانت كلها جميلة جداً، من أجل هذا الشعور بداخله، عندما غنى والده عن إيطاليا، عن سماء إيطالية، عن خليج نابولي.

عند الساعة الخامسة إلا ربعاً استنفد بؤسه نفسه. كانت الغرفة في حلكة تامة تقريباً. مرّر كمّه على أنفه وشعر بالرضا يملأ قلبه، شعور جيد، سكون جعل الخمس عشرة دقيقة التالية لا شيء وحسب. أراد أن يضيء المصابيح، لكن منزل روزا كان خلف الساحة الفارغة في الجهة الأخرى من الشارع، وكانت نوافذ المدرسة تطل على شرفتها الخلفية. قد ترى المصباح المنار، وذلك قد يذكّرها بأنه كان لا يزال في غرفة الصف.

روزا فتاته. تكرهه، لكنها كانت فتاته. هل تعرف بأنه يحبها؟ وهذا سبب كرهها له؟ هل رأت الأمور الغامضة التي جرت في سريرته، ولهذا السبب سخرت منه؟ تقدم نحو النافذة ورأى الضوء في مطبخ منزل روزا. في مكان

ما تحت ذلك الضوء مشت روزا وتنفست. ربما كانت تتابع دروسها الآن، لأن روزا كانت مغرمة بالدراسة وتحصل على أفضل الدرجات في الصف.

ملتفتاً عن النافذة انتقل إلى منضدتها. لم تكن تشبه منضدة أي شخص آخر في تلك الغرفة: كانت أكثر نظافة، أكثر أنثوية، سطحها أكثر صقلا وبريقاً. جلس في مقعدها وفتنه الإحساس. تحسّست يداه الخشب، داخل الرف الصغير حيث خبأت كتبها. وجدت أصابعه قلماً. تفحّصه عن كثب: كان معلَّماً بأثر أسنان روزا الشاحب. قبّله. قبّل الكتب التي وجدها هناك، جميعها مغلفة بإحكام بمشمع أبيض يفوح برائحة النظافة.

عند الساعة الخامسة، حواسه تترنح بالحب وروزا، روزا، روزا تتدفق من شفتيه، نزل الدرج ودخل مساء الشتاء. كانت كنيسة القديسة كاثرين بجانب المدرسة مباشرة. روزا، أحبك.

سار مغشياً في الممر الأوسط المكفن بالعتمة، لا يزال الماء المقدس بارداً على أطراف أصابعه وجبهته، تردّد صدى قدميه في مكان وقوف الجوقة، رائحة البخور، اختلطت في منخريه رائحة ألف جنازة وألف عمادة، الرائحة العبقة للموت والرائحة اللاذعة للأحياء، اللهاث الساكن للشموع المشتعلة، صدى نفسه يمشي على أطراف أصابعه وهو يتقدم على الممر الطويل وروزا في قلبه.

سجد أمام القربان المقدس وحاول أن يصلي كما طلب منه، لكن عقله ومض ورفرف مع لحن اسمها الموسيقي الحالم، وفجأة أدرك أنه كان يقترف إثماً، إثماً عظيماً وفظيعاً هناك في حضرة القربان المقدس، لأنه كان يفكّر بروزا بشكل شرير، يفكر بها بطريقة تمنعها التعاليم الدينية. عصَر عينيه بشدة وحاول أن يبعد الفكرة الآثمة، لكنها عادت بقوة أكبر، والآن تحوّل عقله نحو مشهد آثم لا نظير له، شيء لم يسبق أن فكر به طوال حياته، وكان يلهث،

لا لرعب روحه على مرأى من الله فقط، لكن، أيضاً، للنشوة المروعة لتلك الفكرة الجديدة. لم يستطع تحملها. قد يموت بسببها:

قد يميته الله في الحال. نهض، بارك نفسه، وهرب، يجري خارج الكنيسة، مرعوباً، لحقت الفكرة الآثمة به كما لو أن لها جناحين. حتى عندما بلغ الشارع المثلج، دهش من أنه فعل ذلك وهو لا يزال حياً، لأن الفرار عبر ذلك الممر الطويل الذي دفع عبره الكثير من الموتى بدا أبدياً. لم يكن هناك أثر للفكرة الشريرة في عقله، عندما وصل إلى الشارع ورأى نجوم المساء. كان الطقس شديد البرودة لهذا. سرعان ما ارتجف، فعلى الرغم من أنه كان يرتدي ثلاثة قمصان إلا أنه لم يكن يملك معطفاً صوفياً أو قفازات، ولطم يديه ليبقيهما دافئتين.

كان أمامه شارع على الوصول، لكنه أراد أن يعرج على منزل روزا. كان كوخ عائلة بينيللي يستكين تحت أشجار الحور، على بعد ثلاثين ياردة عن الرصيف. كانت الستارتان مسدلتين على النافذتين الأماميتين. واقفاً في الدرب الرئيس، وذراعاه متصالبتان، ويداه معصورتان تحت إبطيه للحفاظ على دفئهما، ترصّد إشارة تدل على روزا، صورتها الظلّية وهي تعبر خط الرؤية خلال النافذة. ضرب الأرض بقدميه، أنفاسه تبخّ سحباً بيضاء. ما من روزا. ثم، في الثلج العميق على جانب الدرب، انحنى وجهه البارد ليتفحص آثار أقدام فتاة صغيرة. خطوات روزا-ومَن غير روزا، في هذه الباحة؟ نبشت أصابعه الباردة في الثلج حول الأثر، وبكلتا يديه غرفها وحملها معه في الشارع...

ذهب إلى البيت ليجد أخويه يتناولان طعام الغداء في المطبخ. بيض مجدداً. تلوّت شفتاه وهو واقف عند الموقد، يدفئ يديه. كان فم أوغست متخماً بالخبز وهو يتحدث.

" لقد جلبت الخشب، آرتورو. أنت عليك أن تجلب الفحم".

" أين ماما؟"

" في السرير"، قال فدريكو". جدتي دونا قادمة".

" بابا لا يزال ثملاً؟"

" هو ليس في البيت".

" ولماذا تواصل جدتي القدوم؟" قال فدريكو". بابا يثمل دوماً".

" آه، العجوز اللعينة!" قال آرتورو.

أحب فدريكو كلمات الشتائم. ضحك". العجوز اللعينة الحاقدة"، قال.

" هذا ذنب"، قال أوغست" إنهما ذنبان".

تهكّم آرتورو:" ماذا تعني بذنبين؟"

" واحد لاستعمال كلمة سيئة والثاني لعدم احترام والدك ووالدتك".

" جدتي دونا ليست أمي".

" إنها جدتك".

" عليها اللعنة".

" تلك خطيئة أيضاً".

" أغلق فمك".

عندما خدرت يداه، تلقف الدلوين الكبير والصغير من خلف الموقد، وبركلة واحدة فتح الباب الخلفي. مؤرجحاً الدلوين بحذر شديد، سار على

الدرب المختصر نحو سقيفة الفحم. كانت مؤونة الفحم تتناقص. وهذا يعني أن أمه ستتلقف جحيماً من باانديني، الذي لم يفهم يوماً سبب حرق الكثير من الفحم. رفضت شركة الكبير للفحم The Big 4 Coal على حد علمه أن تمنح لوالده المزيد من الفحم على الحساب. ملأ الدلوين وعجب من براعة والده في الحصول على الأشياء دون مقابل. لا عجب أن والده كان يثمل كثيراً، إذا كان عليه أن يستمر في شراء الأشياء دون مقابل.

أثار صوت ارتطام الفحم بالدلاء الصغيرة دجاجات ماريا في القن، في الجانب الآخر من الدرب. ترنّحت بنعاس نحو الباحة المخضلة بنور القمر، وتثاءبت بجوع على الولد عندما توقف في عتبة السقيفة. قرقرت مرحّبة دافعة رؤوسها الحمقاء عبر الفجوات في الأسلاك المحيطة بالقن. سمعها، ومنتصباً راقبها بكراهية.

"بيض"، قال" بيض على الفطور، بيض على الغداء، بيض على العشاء".

وجد قطعة فحم بحجم قبضته، تنحّى وقاس المسافة. أصابت الضربة عنق الدجاجة البنية العتيقة الأقرب إليه، عندما كادت القطعة المنطلقة تنتزع رأسها، وارتدّت نحو سقيفة المطبخ. ترنّحت، سقطت، نهضت على نحو واهن وسقطت ثانية، والأخريات يصرخن بخوفهن واختفين في السقيفة. كانت الدجاجة العتيقة البنية على قائمتيها ثانية، تتراقص دائخة نحو القسم المغطى بالثلج من الباحة، خط متعرج من أحمر لمّاع يرسم أشكالاً غريبة في الثلج. ماتت ببطء، تجرّ رأسها الدامي وراءها في كومة من الثلج التي علت قمة السياج. راقب الطائر يتعذب برضاً(برضىً) بارد. عندما ارتجفت للمرة الأخيرة، نعر وحمل دلوي الفحم إلى المطبخ. بعد برهة عاد والتقط الدجاجة الميتة.

"من أجل ماذا تفعل ذلك؟" قال أوغست". إنها خطيئة".

" أغلق فمك"! قال وهو يرفع قبضته.

الفصل الثالث

كانت ماريا مريضة. دخل فدريكو وأوغست على رؤوس أصابعهما، إلى حيث استلقت في غرفة النوم المظلمة، الباردة للغاية شتاءً، الدافئة للغاية بشذا الأشياء الموضوعة على التسريحة. تفوح شعر أمي رائحة خفيفة، رائحة باندينى النفّاذة، رائحة ملابسه في مكان ما في الغرفة. فتحت ماريا عينيها. كان فدريكو على وشك أن ينشج، وبدا أوغست منزعجاً وقال: " نحن جائعان! ما الذي يؤلمك؟"

" سأنهض"، قالت.

سمعا طقطقة مفاصلها، وشاهدا الدم يصعد على جانبَي وجهها الشاحب، أحسّا بشفاهها الذاوية وبؤس كينونتها. كره أوغست ذلك. فجأة صار لأنفاسه ذلك الطعم المالح.

" ما الذي يؤلمك ماما؟"

قال فدريكو: " تبّاً! لِمَ على الجدة دونا أن تأتي لزيارتنا؟"

جلست، زحف الغثيان عليها. أطبقت أسنانها لتكبح قيئاً مفاجئاً. لطالما كانت تتوعّك، لكن مرضها دوماً كان بغير أعراض، ألماً دون دم أو كدمات. ترنّحت الغرفة بهلعها. شعر الأخوان برغبة في الهرب إلى المطبخ، الذي كان مضيئاً ودافئاً. غادرا بارتباك.

جلس آرتورو وقدماه في الفرن، مسندتين على حواجز خشبية. كانت

الدجاجة الميتة ملقاة في الزاوية، تسيل من منقارها قطرات حمر. لم تُفاجأ ماريا عندما دخلت ورأتها. راقب آرتورو فدريكو وأوغست، اللذين راقبا والدتهما. كانا خائبين، لأن مرأى الدجاجة الميتة لم يزعجها.

" على الجميع أن يستحمّ الآن بعد العشاء مباشرة، الجدة قادمة غداً!" قالت.

انطلق الإخوة بالتـأوهات والنواح. لم يكن هناك حوض للاستحمام. كان الاستحمام يعني دلاءً من الماء في حوض الغسيل، على أرضية المطبخ، مهمة يزداد كره آرتورو لها، بما أنه يكبر الآن، ولم يعد بوسعه الجلوس في الحوض بأيّ قدر من الأريحية.

على مدى أكثر من أربع عشرة سنة كرّر سفيفو بانديني وعده بتركيب حوض استحمام. تتذكر ماريا يوم دخلت ذلك المنزل لأول مرة برفقته. عندما أراها ما سمّاه بتملّق: الحمّام، أضاف سريعاً بأنه سيتم تركيب حوض استحمام بعد أسبوع. وبعد أربع عشرة سنة كان لا يزال يؤكد الأمر بالطريقة نفسها.

" سأنظر، الأسبوع القادم، في أمر ذلك الحوض!" قد يقول.

أصبح الوعد تقليداً عائلياً استمتع الأولاد به. سنة بعد أخرى يسأل فدريكو أو آرتورو: " بابا، متى سنحصل على حوض للاستحمام؟" ويجيب بانديني بلهجة باتّة للغاية: " الأسبوع القادم"، أو " بداية الأسبوع".

حملق بهم كلما ضحكوا لسماعه يكرّر قوله مراراً، طالباً منهم الصمت، ويصرخ قائلاً: " ما المضحك بحق الجحيم؟" حتى هو، عندما استحمّ، كان يتبرّم ويشتم حوض الغسيل في المطبخ. سمعه الأولاد يستنكر قسمته من الحياة وتصاريحه العنيفة.

" الأسبوع القادم، وحق الله، الأسبوع القادم!"

بينما كانت ماريا تحضّر الدجاجة من أجل العشاء، صرخ فدريكو: "أخذت الفخذ"! واختفى خلف الموقد وفي يده مدية. قرفص على صندوق يحتوي على قطع خشبية، نحت مراكب لتبحر وهو يأخذ حمّامه. نحتها وكدّسها، دستة من المراكب الكبيرة والصغيرة، كمية من الخشب تكفي ليملأ الحوض حتى منتصفه، فضلاً عن الماء المزاح بجسده. لكن الأكثر هو الأفضل: يمكنه أن يقيم معركة بحرية، حتى لو وجب عليه أن يجلس على بعض مراكبه الصغيرة.

كان أوغست محدِّب الظهر في الزاوية، يدرس الطقس الديني اللاتيني الخاص بالشمامسة في القداس. أعطاه الأب أندرو كتاب الصلوات مكافأة على ورعه الظاهر في الذبيحة الإلهية، مثل هذا الكائن الورع هو انتصار للتحمّل البدني الصرف، في حين كان آرتورو، الذي كان شمّاساً أيضاً، ينقل ثقل وزنه دوماً من ركبة إلى أخرى، عندما يجثو خلال طقوس القدّاس الكبير الطويلة، أو يحكّ نفسه أو يتثاءب أو ينسى أن يجيب على كلمات الكاهن. لم يكن أوغست، يوماً، مذنباً بمثل هذا العقوق. حقاً، كان أوغست فخوراً جداً بسجلّ غير رسمي يضمنه تقريباً الآن في مجتمع الشمامسة. بمعنى: يمكنه أن يجثو باستقامة ويداه مطويتان بوقار فترة أطول ممّا بوسع أيّ شمّاس آخر. عرف الشمامسة الآخرون صراحة بتفوّق أوغست في هذا المجال، ولم يرَ أيّ واحد من الأعضاء الأربعين في المنظمة أيَّ فائدة من تحدّيه. وأن موهبته، كجاثٍ صبور، ليس لها منازع، لطالما أزعجت حامل اللقب.

كان عرض أوغست العظيم للتقوى وتأثيره البارع كشماس، موضوع استحسان دائم عند ماريا. كلما أشارت الراهبات أو أعضاء الأبرشية إلى ميول أوغست الطقسية، توهّجت بسعادة. لم تفوِّت يوماً قداس الأحد الذي كان أوغست يقوم فيه على خدمة الكاهن. جاثية في الصف الأول، عند قدم

المذبح الرئيس، منحها مرأى ابنها الثاني في ردائه وحلّته الكهنوتية شعوراً بالإنجاز. ذيل أرديته وهو يمشي، خدمته المتقنة، صمت قدميه على السجادة الحمراء الخمرية، كان خيالاً وحلماً، جنة على الأرض. ذات يوم سوف يصبح أوغست كاهناً، وكل ما عدا ذلك لا قيمة له، قد تتعذب وتكدح، يمكنها أن تموت وتموت من جديد، لكن رحمها قدّم لله كاهناً، يقدّسها، مختارة، أمّاً لكاهن، نسيبة للعذراء المباركة...

أمّا بانديني فكان يرى الأمر مختلفاً. كان أوغست متديّناً جداً وراغباً في أن يصبح كاهناً-نعم، لكن Chi copro يا للجحيم! سوف يتغلب على ذلك. منحه منظر أبنائه شهامسةً متعةً أكبر من الرضا الروحيّ. في المرات النادرة التي كان يذهب فيها إلى القداس ويراهم، عادة صبيحة عيد الميلاد، عندما تبلغ الطقوس الهائلة للكاثوليكية مداها في الإتقان، لم تكن مشاهدته لأبنائه الثلاثة في موكب جليل في الممر الأوسط لتمرّ دون قهقهة.

هو لم يرَهُم أطفالاً مكرّسين مسربلين في شرائط ثمينة وبعمق في شركة مع الرب القدير، بل أفادت مثل هذه الملابس في مضاعفة التضاد، ورآهم ببساطة وحيوية أكبر، كما كانوا حقاً، ليس فقط أولاده، لكن الأولاد الآخرين أيضاً - أولاداً همجيّين، غير محترمين، غير مريحين، وحكّاكين في أرديتهم الكهنوتية الثقيلة. مرأى آرتورو، مختنقاً بالياقة الصلبة عند أذنيه، وجهه المنمّش أحمر ومتورم، كرهه الذابل للحفل برمته، جعل بانديني يضحك عالياً. أما بالنسبة للصغير فدريكو، فكان الأمر سيّان، شيطان بكل زخارفه. مع ذلك تنهّدات النساء الملائكية تدلّ على العكس. عرف بانديني بمضايقات الأولاد الفظيعة المزعجة المحرجة. أراد أوغست أن يكون كاهناً، أوه، سوف يتجاوز ذلك. سوف يكبر وينسى الأمر بكلّيته. قد يكبر ويصبح رجلاً، أو أنه هو، سفيفو بانديني، سيمنعه. التقطت ماريا الدجاجة الميتة من

قائمتيها. مدّ الأولاد أنوفهم وهربوا من المطبخ عندما فتحتها وحضّرتها.

" حصلت على الفخذ!" قال فدريكو.

" سمعتك من أول مرة"، قال آرتورو.

كان في مزاج سيّىء، يطرح ضميره أسئلة صارخة عن الدجاجة المقتولة. هل اقترف ذنباً قاتلاً؟ أو كان قتل الدجاجة مجرد إثم يمكن اغتفاره؟ ممدّداً على الأرض في غرفة الجلوس، حرارة الموقد البطين تلفح جانباً واحداً من جسده، تأمّل بعبوس في العناصر الثلاثة التي شكّلت وفقاً للتعليم المسيحي ذنباً قاتلاً: أولاً، مسألة الألم، ثانياً، تأملاً كافياً، ثالثاً، تسليم كامل للإرادة.

التفّ عقله في استنتاجات كئيبة. تذكّر قصة الأخت جوستينوس، وهي عن قاتل رأى أمام عينيه، طوال ساعات يقظته ومنامه، الوجه الملتوي للرجل الذي قتله، يعنّفه الشبح ويتّهمه، إلى أن ذهب القاتل مرعوباً للاعتراف، واعترف بجريمته السوداء لله.

هل يمكن أنه قد يتعذّب هو بهذا الشكل أيضاً؟ تلك الدجاجة السعيدة المطمئنة، منذ ساعة كانت طائراً حيّاً، يعيش بسلام مع الأرض. الآن صار ميتاً، مقتولاً بدم بارد، بيديه. هل ستكون حياته مسكونة حتى النهاية بوجه دجاجة؟ حدّق بالجدار، طرفت عيناه، ولهث. كانت الدجاجة الميتة هناك تحدّق بوجهه، تُقَوقي بصورة شيطانية! قفز على قدميه، هرع إلى غرفة النوم وأقفل الباب:

"أيتها العذراء مريم، امنحيني الوقت! لم أكن أقصد! أقسم بالله إني لا أعلم لِمَ فعلت ذلك! أرجوك يا عزيزتي الدجاجة! عزيزتي الدجاجة، أنا آسف لأني قتلتك"!

انطلق في تلاوة وابل من الصلاتين: المريمية والربّية، حتى تألّمت

ركبتاه، وتلا كل صلاة بطريقة دقيقة، توصّل إلى أن تلاوة الصلاة المريمية خمساً وأربعين مرة، والصلاة الربية تسع عشرة مرة، كافية لأسف عميق. لكن الخرافة حول العدد تسعة عشر اضطرته إلى أن يهمس الصلاة الربية مرة أخرى، وهكذا قد يصل إلى الرقم عشرين الزوجي. بعدئذ ظلّ عقله قلقاً من احتمال التقتير، فأغدق مرتين إضافيتين من الصلاة المريمية، ومرتين إضافيتين من الصلاة الربية، فقط ليثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، أنه لم يكن خرافياً ولا يؤمن بالأعداد، لأن التعليم الديني استنكر استنكاراً مؤكداً أيَّ نوع من الخرافات، بأية حال.

ربما كان سيواصل الصلاة، لولا أن أمه نادته لتناول العشاء. وسط طاولة المطبخ وضعت طبقاً عارماً بدجاجة مقليّة بنّيّة اللون. صرخ فدريكو وطرق على صحنه بشوكة. أحنى أوغست الورع رأسه وهمس صلاة المائدة قبل الطعام. بعد وقت طويل من تلاوته للصلاة أبقى عنقه المتألم محنيّاً، وهو يتساءل لماذا لم تقل أمّه شيئاً. وكز فدريكو آرتورو بمرفقه، ثم أشار بأنفه نحو أوغست الخاشع. استدارت ماريا نحو الفرن. التفتت، تحمل إبريق صلصة مرق اللحم في يدها، ورأت أوغست، رأسه الذهبي مائل بوقار شديد.

" أيها الولد الطيب أوغست!" ابتسمت، " ولد طيب، ليباركك الله!"

رفع أوغست رأسه وبارك نفسه. لكن في ذلك الوقت كان فدريكو قد غزا طبق الدجاج واختفى الفخذان. أكل فدريكو أحدهما وأخفى الآخر بين ساقيه. استكشف أوغست بعينيه الطاولة منزعجاً. شكّ في آرتورو الذي جلس بشهية مفتوحة. ثم جلست ماريا، بصمت، وفردت الزبدة على شريحة من الخبز.

كان آرتورو مطبقاً شفتيه في تكشيرة، عندما حدّق بالدجاجة الهشّة المقطّعة الأوصال. منذ ساعة كانت تلك الدجاجة سعيدة، غافلة عن القتل

الذي سيحلّ بها. رمق فدريكو، الذي كان فمه يتقطّر وهو ينتزع ذلك اللحم اللذيذ. اشمأزّ آرتورو. دفعت ماريا الصحن نحوه:

" آرتورو، أنت لم تأكل!"

تحرّى بطرف شوكته، في حدة ذهن مرائية. وجد قطعة وحيدة وبائسة بدت أكثر سوءاً عندما رفعها إلى صحنه: القانصة. يا إلهي، أرجوك لا تجعلني فظّاً مع الحيوانات بعد الآن! قضم بحذر شديد. ليست سيئة. كان طعمها لذيذاً. قضم قضمةً أخرى. كشّر. تناول المزيد. أكل بلذة بالغة مفتّشاً بدقّة عن اللحم الأبيض. تذكّر أين أخفى فدريكو الفخذ الآخر. دسّ يده تحت الطاولة وسرقه دون أن يلحظ أحد فعلته، أخذه من حضن فدريكو. عندما أتى على الفخذ، ضحك وقذف بالعظم في صحن أخيه. حدّق فدريكو به، باحثاً في حجره بذعر: " عليك اللعنة!" قال " عليك اللعنة آرتورو، أيها المحتال!"

نظر أوغست إلى هذا الأخ الأصغر موبّخاً، هازّاً رأسه الأصفر. كانت الشتيمة كلمة آثمة، ربما ليست إثماً مميتاً، ربما مجرد إثم يمكن اغتفاره، لكنها إثم رغم كل شيء. كان حزيناً جداً لهذا، وكان مسروراً جداً، لأنه لم يستعمل كلمات الشتائم مثل أخويه. لم تكن دجاجة كبيرة. نظّفوا الصحن وسط الطاولة، وعندما لم يبقَ سوى العظام أمامهم قرضها آرتورو وفدريكو وارتشفا النخاع.

" جيّد أن بابا لم يأتِ إلى البيت!" قال فدريكو" وإلا لكان علينا أن ندّخر له القليل".

ابتسمت ماريا لهم، صلصة المرق الملتصقة بوجوههم، فتات الدجاج حتى في شعر فدريكو. أبعدتهم جانباً، محذّرة إيّاهم بخصوص السلوك في

حضرة الجدة دونا.

" إذا ما أكلتم بالطريقة التي أكلتم بها الليلة، لن تقدّم لكم هدية عيد الميلاد!"

"تهديد عقيم. هدايا عيد الميلاد من الجدة دونا!" نعر آرتورو" لم تقدّم لنا يوماً سوى البيجامات. من يرغب ببيجاما؟"

" أراهنك، بابا يثمل الآن"، قال فدريكو" مع روكو ساتشوني!"

انسحب الدم من قبضة ماريا عندما أطبقتها بإحكام." ذلك الحيوان"، قالت" لا تذكرْهُ على هذه الطاولة!"

تفهّم آرتورو كراهية والدته لروكو. كانت ماريا خائفة جداً منه، لذا ثارت ثائرتها كلما اقترب. لم تكن كراهيتها لصداقته مدى الحياة مع بانديني تكلّ. كانا صبيَّين معاً في أبروتزي. في الأيام الأولى قبل زواجها عرفا النساء معاً، وعندما جاء روكو إلى المنزل، كان لهما هو وسفيفو طريقة في الشرب والضحك دون كلام، يهمهمان بلهجة إيطالية قروية، ثم يضحكان بصورة صاخبة، لغة عنيفة من نخرات وذكريات، تعجّ بالتلميحات، ومع ذلك عديمة المعنى، ودوماً من عالم لم تنتمِ يوماً إليه، ولا يمكنها أن تفعل. تظاهرت بعدم الاهتمام بما فعله بانديني قبل زواجه، لكن روكو ساتشوني هذا، بضحكه القذر الذي استمتع به بانديني وقاسمَه إيّاه، كان سرّاً من الماضي تاقت لمعرفته، لتكشفه مرة وإلى الأبد، لأنها بدت تعرف أنه عندما تنكشف لها أسرار تلك الأيام سيندثر إلى الأبد الضحك الخاص بسفيفو بانديني وروكو ساتشوني.

تغيّر حال البيت بذهاب بانديني. بعد أن يتناول الأولاد طعام العشاء، الذي يذهب بعقولهم، يتمدّدون على الأرض في غرفة الجلوس، يستمتعون

بالموقد الودود في الزاوية. يغذّيه آرتورو بالفحم، ليئزّ ويضحك في خفوت هانئاً، يضحك برفق، وهم يتمدّدون حوله، شبعانين.

غسلت ماريا الأطباق في المطبخ، واعية لنقص عدد الصحون والفناجين واحداً. عندما أعادتها إلى حجرة المؤن، بدا فنجان بانديني البالي الثقيل أكبر وأكثر سماجة من الآخرين، إنه يُبلغ تكبّراً جريحاً، لأنه ظل غير مستعمل أثناء تناول وجبة الطعام. لمعت في الدُّرج، حيث تحتفظ بسكين المائدة الخاصة ببانديني، مفضّلته الأكثر حدّة وسكين المائدة الأكثر شراسة بين مجموعة السكاكين، في الضوء.

فقد المنزل هويّته الآن. همس خشب السقف المتراخي بتهكّم للريح، احتكّت أسلاك النور الكهربائية بالمدخل الخلفي، الجملونيّ الشكل، ساخرة. لقي عالم الأشياء الحميم صوتاً، متحدّثاً مع المنزل القديم، وثرثر المنزل بالابتهاج الذاوي للتبرّم داخل جدرانه. صرخت الألواح تحت أقدامها بمتعتها البائسة.

لن يكون بانديني في البيت اليوم.

كان مخيفاً إدراك أنه لن يعود إلى البيت، والعلم بأنه ربما كان يثمل في مكان ما في البلدة، متعمّداً الغياب. كل ما كان قبيحاً ومدمراً على الأرض بدا مطّلعاً على الحقيقة. أحسّت سلفاً بقوى الشرّ والرعب تجتمع من حولها وتزحف زحفاً مروّعاً على المنزل.

عندما رفعت أطباق العشاء ونظّفت الحوض وكنست الأرض، انقضى يومها فجأة. الآن لم يبقَ شيء ليشغلها. لقد قامت بكثير من أعمال اللفق والرتق خلال أربع عشرة سنة تحت ضوء أصفر، حتى أن عينيها قاومتا مقاومة عنيفة لدى كل محاولة، أصابها الصداع واضطرت إلى الاستسلام

حتى مجيء النهار.

تصفّحت أحياناً مجلة المرأة كلما تعثرت بها، تلك المجلات الصقيلة اللمّاعة التي صرخت بجنّة النساء الأمريكية: أثاث جميل، عباءات جميلة: عن نساء حسنات المظهر وجدن رومانسية في خميرة: عن نساء متأنقات يناقشن موضوع المناديل الورقية. صورت تلك المجلات والصور تلك الفئة الغامضة: "نساء أمريكيات". دوماً تتحدث في رعب عما كانت تفعله "النساء الأمريكيات".

لقد صدّقت تلك الصور. في الساعة التي جلست فيها في الكرسي الهزاز القديم بجانب النافذة في غرفة الجلوس، تقلب دوماً صفحات مجلة المرأة، تلعق بانتظام طرف إصبعها وتقلب الصفحة، انتهت مخدّرة بقناعة انفصالها عن عالم "النساء الأمريكيات" ذاك.

هنا كان جانب فيها سخر منه بانديني بشدة، كان، على سبيل المثال، إيطاليا صافياً، من أصل قروي يعود إلى أجيال موغلة في القدم. ومع ذلك هو الآن، وقد امتلك وثائق الجنسية، لم يعتبر نفسه أبداً إيطالياً. لا، كان أمريكياً: أحياناً أزّ الشعور في رأسه وأحب أن يصرخ فخوراً بالإرث، لكنه كان أمريكياً من أجل جميع الأغراض المعقولة، وعندما تحدثت إليه ماريا عما كانت تفعله وترتديه النساء الامريكيات، عندما ذكرت حيوية جارة: "تلك المرأة الأمريكية في الشارع"، أغضبه ذلك. لأنه كان سريع التأثر إزاء الفوارق الطبقية والعرقية، والمعاناة التي تستتبعها، وكان ضدّها بشدة.

كان بنّاءً، وبالنسبة له لم يكن هناك نداء أكثر إخافة على وجه الأرض. يمكن أن تكون ملكاً، أو فاتحاً، لكن مهما كنت يجب أن تمتلك منزلاً، وإذا كنت تتمتع بشيء من الذوق فسيكون بيتاً مبنياً من الطوب، وبالتأكيد، بناه رجل نقابي، بالحد الأدنى من الأجور. هذا كان مهمّاً.

لكن ماريا التائهة في أرض مجلة المرأة السحرية، شاخصة بحسراتها على المكاوي والمكانس والغسالات والمدافئ الكهربائية، لم يكن عليها سوى أن تغلق صفحات أرض الخيال تلك وتنظر من حولها: الكراسي القاسية والسجاجيد البالية والغرف الباردة. لم يكن عليها سوى أن تقلب يدها وتتفحص راحة يدها التي قست من لوح الغسيل، لتدرك أنها لم تكن في النهاية امرأة أمريكية. لاشيء فيها، لا لون بشرتها، ولا يديها، أو قدميها، ولا الطعام الذي تأكله أو الأسنان التي تمضغه-لا شيء فيها، لا شيء، يربطها بالمرأة الأمريكية.

لم تكن تحتاج، في قرارة قلبها، لا إلى كتاب ولا إلى مجلة. كان لديها طريقتها في الهرب، عبورها نحو الرضا: مسبحتها. كانت سلسلة الخرزات البيض تلك، الوصلات الصغيرة المهترئة في اثني عشر مكاناً ومعقودة معاً بجدائل من خيط أبيض ينقطع تباعاً بانتظام، خرزة خرزة، فرارها الهادئ من العالم. السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك. وبدأت ماريا تصعد. خرزة خرزة، الحياة والعيش يتساقطان. السلام عليك يا مريم، السلام عليك يا مريم، شملها حلم دون نوم. هدهدتها رغبة دون لحم. دندن حب دون موت لحن الإيمان. كانت بعيدة: كانت حرة، لم تعد ماريا، أمريكية أو إيطالية، فقيرة أو غنية، مع غسالات ومكانس كهربائية، أو دونها، هنا كانت أرض كل الممتلكات. السلام عليك يا مريم! السلام عليك يا مريم! مراراً وتكراراً، ألف ومئة ألف مرة، صلاة تلو صلاة، نوم الجسد، هرب العقل، موت الذاكرة، انزلاق عن الألم، حلم اليقظة الصامت العميق للإيمان. السلام عليك يا مريم، والسلام عليك يا مريم! ومن أجل هذا عاشت.

* * *

الليلة كان العبور الخرزيّ نحو الهرب، الإحساس بالفرح الذي جلبته لها المسبحة، في عقلها قبل وقت طويل من إضاءة مصباح المطبخ ودخول غرفة الجلوس، حيث كان أبناؤها المترنحون الناخرون يتمددون على الأرض. كانت الوجبة ثقيلة على فدريكو، فنام نوماً عميقاً، تمدّد مديراً وجهه نحو الجانب، فاغر الفم. أوغست مسطّح على بطنه يحدّق في فم فدريكو ويفكر أنه بعد أن يُرسَم كاهناً سيحظى برعيّة غنيّة وبعشاء من الدجاج كل ليلة، بالتأكيد.

غاصت ماريا في الكرسي الهزّاز بمحاذاة النافذة. أجفلت طقطقة ركبتيها المألوفة آرتورو وأزعجته. أخرجت الخرزات من جيب مئزرها، مغلقة عينيها الداكنتين، وتحركت الشفاه المتعبة بهمس مسموع وشديد.

انقلب آرتورو وتفحّص وجه أمه. عمل عقله بسرعة: هل عليه مقاطعتها ليطلب منها قرشاً كي يحضر فيلماً، أو عليه أن يوفّر الوقت والمشاكل بسرقته من غرفة النوم؟ لم يكن هناك خطر أن يُضبَط. عندما تبدأ أمه بمسبحتها، لا تفتح عينيها أبداً. كان فدريكو نائماً، أما أوغست، فقد كان أحمق للغاية، وتقيّاً، ولن يعرف ما كان يجري في العالم بأية حال. نهض وتمطمط.

"مملّ. أظن أني سأجلب لي كتاباً".

في عتمة غرفة نوم أمه الباردة، رفع الحشيّة عند قدم السرير. أنشب أصابعه في القطع النقدية الضئيلة القيمة في المحفظة الممزّقة: بنسات ونيكلات، لكن ما من قرش واحد. ثم أطبقت حول الدقة الواهية المألوفة لقطعة بقيمة عشرة سنتات. أعاد المحفظة إلى مكانها داخل النوابض الملفوفة، وأصغى لأصوات مريبة، ثم وقّع خطوات يقترب وصفير مرتفع، دخل إلى غرفته وأمسك بأول كتاب لمسته يده على التسريحة.

عاد إلى غرفة الجلوس وارتمى على الأرض بجانب أوغست وفدريكو. انسحب الاشمئزاز على وجهه عندما رأى الكتاب. كان بعنوان (حياة القديسة تيريزا زهرة يسوع الصغيرة). قرأ السطر الأول في الصفحة الأولى: "سأقضي جنتي بفعل الخير على الأرض". أغلق الكتاب ودفع به نحو أوغست.

" اللعنة!" قال. "ليس لي رغبة في القراءة. أظن أني سأذهب وأرى إذا ما كان هناك من أولاد يتزحلقون على التلة".

ظلّت عيون ماريا مغلقة، لكنها قلبت شفتيها بضعف، لتدلّ على أنها سمعت ووافقت على خطّته. ثم هزّت رأسها ببطء من جانب إلى آخر، وتلك كانت طريقتها بالقول له ألا يتأخر.

" لن أتأخر!" قال.

دافئاً ومتحمّساً تحت قمصانه الضيقة، تارة يركض، وتارة يمشي في شارع ولنت، عبَرَ السكك الحديدية إلى الشارع الثاني عشر، ثم اجتازه نحو محطة البنزين عند الناصية، عبر الجسر وركض مجتازاً الحديقة بأقصى سرعة، لأن الظلال القاتمة للأشجار أخافته، وفي أقلّ من عشر دقائق كان يلهث تحت خيمة سينما إيزيس. كما هو الحال دوماً أمام صالات بلدة صغيرة، تسكعت ثلّة من مجايليه من الأولاد، لا يملكون بنساً، ينتظرون، بتذلُّل، الإحسان الذي قد يقدّمه أو لا يقدمه الحاجب الرئيس، بحسب مزاجه، سامحاً لهم بالدخول مجاناً، بعد أن يبدأ العرض الثاني للّيلة. كثيراً ما وقف هو أيضاً هناك، لكنّه الليلة كان يملك قرشاً، وبابتسامة طفيليّ تنمّ عن طيب نفس، اشترى بطاقة ودخل مختالاً.

احتقر الحاجب العسكري الذي هزّ إصبعه نحوه، وشقّ طريقه في

الظلمة. اختار أولاً مقعداً في الصف الأخير. بعد خمس دقائق تقدّم صفّين. بعد لحظة انتقل ثانية. شيئاً فشيئاً، صفّين أو ثلاثة في كل مرة، شحذ طريقه نحو الشاشة البراقة، إلى أن كان أخيراً في الصف الأول، ولم يعد بوسعه التقدم أكثر. هناك جلس، حنجرته متوترة، تفاحة آدم نافرة وهو ينظر مباشرة في السقف، عندما جلوريا لوردن وروبرت بويل مَثّلا في فيلم "حب عند النهر".

في الحال، أضحى تحت تأثير ذلك العقار السينمائي المخدّر. كان جازماً أن في وجهه شبهاً أخّاذاً بوجه روبرت بويل، وكان واثقاً أيضاً من أن وجه جلوريا بوردن مشابه بشكل مذهل لوجه روزا الرائع: وهكذا شعر كأنه في البيت تماماً، يضحك بصخب على تعليقات روبرت بويل الذكية، ويرتجف، ببهجة شهوانية، عندما بدت جلوريا بوردن مثيرة. تدريجياً فقَدَ روبرت بويل هويّته وأصبح آرتورو بانديني، وتدريجياً تحولت جلوريا بوردن إلى روزا بينيللي. بعد تحطّم طيارة كبيرة، وروزا ممدّدة على طاولة العمليات، وليس من أحد سوى آرتورو بانديني يجري عملية خطيرة لإنقاذ حياتها. تصبّب العرق من الولد الجالس في المقعد الأول، مسكينة روزا، انهمرت الدموع على وجهه، مرّر كمّ سترته عبر وجهه ومسح أنفه.

لكنه عرف، كان يشعر طوال الوقت بأن الطبيب الشاب آرتورو بانديني سيصنع معجزة طبية، واثقاً بما فيه الكفاية. وسرعان ما كان الطبيب الوسيم يقبّل روزا، كان فصل الربيع وكان العالم جميلاً. فجأة دونما تحذير انتهى الفيلم، وآرتورو بانديني يبكي ويشهق، جالساً في الصف الأول في صالة إيزيس، محرجاً أشد الإحراج، ومشمئزاً للغاية من عاطفته الرعديدة. كان الجميع في إيزيس يحدّقون به. كان واثقاً من ذلك، ما دام فيه شبه مدهش للغاية، بروبرت بويل.

تلاشت آثار السحر المخدّر بتؤدة. الآن عاد الواقع بعد أن أنيرت الأضواء، نظر من حوله. لم يكن أحد يجلس في الصفوف العشرة البعيدة عنه. نظر من فوق كتفه إلى حشد الوجوه الشاحبة الباردة، في زاوية الصالة ومؤخرتها، شعر بشريط كهربائي في معدته. حبس أنفاسه في خوف طرب. من بحر الكآبة الصغير هذا تلألأ وجهٌ مثل الماس، العيون ملتهبة بالجمال. كان وجه روزا! ولتوّه كان قد أنقذها على طاولة الجراحة! لكن كان ذلك كله كذبة بائسة، وهو كان هنا، الشاغل الوحيد لعشرة صفوف من المقاعد.

انخفض حتى كادت قمة رأسه تختفي، شعر كأنه لصّ، مجرم، وهو يسترق نظرة أخرى إلى ذلك الوجه الباهر. روزا بينيللي! جلست بين أمها وأبيها، البدينين للغاية، إيطاليان بذقن مزدوجة، بعيداً نحو مؤخرة الصالة. لن تتمكن من رؤيته، كان واثقاً من أنها بعيدة، بحيث لا يمكنها التعرف إليه، ومع ذلك قفزت عيناه المسافة بينهما، ورآها مجهرياً، رأى الخصل المتراخية تظهر من تحت قلنسوتها، الخرزات الغامقة حول عنقها، البريق النجمي لأسنانها. إذاً، فقد رأت الفيلم أيضاً! تانك العينان الضاحكتان السوداوان لروزا، لقد رأتا كل شيء. هل كان يمكن أنها لحظت التشابه بينه وبين روبرت بويل؟

لكن لا: في الحقيقة لم يكن هناك أي شبه على الإطلاق، ليس حقاً. لقد كان مجرد فيلم، وكان في المقدمة، وشعر بالحر وبالعرق يرشح تحت سترته. كان خائفاً من أن يمسّ شعره، خائفاً أن يرفع يده ويمسّد شعره إلى الخلف. عرف أنه يرتفع إلى الأعلى مشعثاً كالعشب. كان الناس دوماً يتعرفون إليه لأن شعره لم يكن يوماً مسرحاً، ودوماً كان بحاجة إلى حلاقة. ربما اكتشفته روزا الآن. آه.. لِمَ لم يمشّط شعره؟ لمَ كان دوماً ينسى أموراً مثل تلك؟ غاص في المقعد عميقاً وعميقاً، عيناه تتقلّبان إلى الخلف ليرى ما إذا كان شعره مرئياً

من فوق ظهر المقعد. باحتراس، إنشاً تلو آخر، رفع يده ليمسّد شعره، لكنه لم يتمكن من فعل ذلك: كان خائفاً من أن ترى يده.

عندما أنيرت الأضواء ثانية كان يلهث بالانفراج. لكن عندما بدأ العرض الثاني أدرك أن عليه الذهاب. غصّ في حلقه عار غامض، مدركاً لقمصانه القديمة، لملابسه، ذكرى روزا وهي تضحك عليه، خشية أنه قد يلتقيها في البهو وهي تغادر الصالة مع والديها، إذا لم ينسلّ بعيداً الآن. هو ربما لن يحتمل فكرة مواجهتهم. عيونهم قد تنظر إليه، عيون روزا قد ترقص بالضحك. روزا تعرف كلّ شيء عنه، كل فكرة، وكل فعل.

ستعرف روزا أنه سرق قرشاً أمه بحاجة إليه. قد تنظر إليه وقد تعرف. كان عليه إما أن يحتمل ذلك، أو أن يخرج من هناك، شيء ما قد يحدث، قد تنار الأضواء ثانية وقد تراه، قد يكون هناك حريق، أيّ شيء قد يحدث، كان عليه، ببساطة، النهوض والخروج من هناك. يمكنه أن يكون في الصف مع روزا، أو في باحات المدرسة، لكن تلك كانت صالة إيزيس، وبدا مثل متبطّل حقير في هذه الملابس السيئة، مختلفاً عن الباقين جميعاً، وقد سرق المال: لم يكن لديه الحقّ في التواجد هناك. إذا ما رأته روزا قد تقرأ على وجهه أنه سرق المال. فقط قرشاً، فقط إثماً يمكن اغتفاره، لكنه كان إثماً كيفما نظرت إليه. نهض وسار بخطوات طويلة صامتة في الممشى، يميل بوجهه جانباً، يده تستر أنفه وعينيه. عندما وصل إلى الشارع، قفز بردُ الليل الهائل كما لو أنه يسوطه، وبدأ يجري، تلسع الريح وجهه، تنقطه بأفكار جديدة طازجة.

عندما انعطف نحو الممشى المؤدي إلى شرفة بيته، حرّر مرأى صورة أمه المنعكسة في النافذة روحه من التوتر، شعر بأن جلده يتكسّر مثل موجة، وفي اندفاعة المشاعر راح يبكي، ينهمر الذنب منه، يغرقه، يغسله. فتح الباب ووجد نفسه في بيته، في دفء بيته، وبدا عميقاً ورائعاً. ذهب أخواه إلى

السرير، لكن ماريا لم تكن قد تحركت من مكانها، وعرف أن عينيها لم تنفتحا، أصابعها تتحرك أبداً، بيقين أعمى، حول حلقة الخرزات اللانهائية. أوه يا ولد، بدت رائعة، أمه، بدت متحمّسة. أوه، اقتلني يا الله، لأني كلب قذر، وهي جميلة ويجب أن أموت. أوه ماما، انظري إليّ، لأني سرقت قرشاً وأنت تواصلين الصلاة. أوه ماما، اقتليني بيديك!

خرّ على ركبتيه وتشبّث بها في خوف وفرح وشعور بالذنب. انتفض الكرسيّ الهزّاز، لنحيبه، تطقطق الخرزات في يديها. فتحت عينيها وابتسمت له، أصابعها النحيلة تسوّي شعره برقّة، تقول لنفسها بأنه يحتاج إلى حلاقة. انشرحت لنشيجه مثل عناق، منحها إحساساً بالحنان نحو سبحتها، شعوراً بوحدة الخرز والنشيج.

" ماما"، التمسَها. " لقد فعلت شيئاً!"

" لا بأس"، قالت. " عرفت".

هذا فاجأه. كيف يمكن لها أن تعرف؟ لقد سرق القرش ببراعة تامة. لقد خدعها، وأوغست والجميع، لقد خدعهم جميعاً.

" كنت تتلين صلاة المسبحة، لم أرغب بإزعاجك"، كذب. " لم أرغب بمقاطعتك وأنت في وسط مسبحتك".

ابتسمت: " كم أخذت؟"

" قرشاً. كان بوسعي أن آخذها جميعاً، لكني لم آخذ سوى قرش".

" أعَرف".

ذلك أزعجه. " لكن كيف تعرفين؟ هل رأيتني؟"

" الماء ساخن في الحوض"، قالت. " اذهب واستحمّ!"

نهض وبدأ يخلع ملابسه.

" لكن كيف عرفت؟ هل تطلعت؟ هل استرقت النظر؟ اعتقدت أنك تغلقين عينيك دوماً وأنت تردّدين المسبحة".

" ولِمَ عليَّ ألا أعرف"؟ ابتسمت." أنت دوماً تأخذ القروش من محفظة جيبي. أنت الوحيد الذي يفعل ذلك. أعرف في كل مرة. عجباً، يمكنني أن أعرف صوت قدميك"!

فكّ حذاءه وركله. كانت أمه امرأة ذكية، ملعونة تماماً في آخر الأمر. لكن ماذا لو أنه في المرة التالية يخلع حذاءه وينسلّ إلى غرفة النوم حافياً؟ كان يفكر بالخطة تفكيراً عميقاً وهو يمشي عارياً إلى المطبخ ليستحم.

كان مشمئزاً عندما وجد أرض المطبخ مبتلّة وباردة. عاث أخواه خراباً في الغرفة. كانت ملابسهما مبعثرة هنا وهناك، وكانت إحدى المغاسل مليئة بماء رغوي ضارب إلى الرمادي وقطع من خشب مبلّل بالماء: سفن فدريكو الحربية.

كان برداً قارساً لعيناً بالنسبة لحمّام تلك الليلة. قرّر أن يدّعيه. ملأ الحوض وأقفل باب المطبخ، أخرج نسخة من (الجريمة القرمزية-Scarlet Crime)، وجلس يقرأ (قتل بالمجّان Murder For Nothing) وهو جالس عارياً عند باب الموقد الدافئ، قدماه وكاحلاه يذوبان في الحوض. بعد أن قرأ لمدّة من الزمن، ظنّها الفترة الطبيعية التي يستغرقها الاستحمام حقاً، أخفى (Scarlet Crime)على الشرفة الخلفية، مبلّلاً شعره بحذر براحة إحدى يديه، نشف جسده الجاف بمنشفة، إلى أن توهّج بلون زهريّ ضار، وهرع يرتجف إلى غرفة الجلوس. راقبته ماريا يقرفص قرب الموقد وهو يفرك رأسه بالمنشفة، يتبرّم طوال الوقت بكراهيته للاستحمام في عزّ الشتاء. كان، وهو يخطو باتجاه

السرير، مسروراً من نفسه على هذه الخدعة البارعة. ابتسمت ماريا أيضاً. رأت حول عنقه، وهو يتوارى ذاهباً إلى غرفة النوم، حلقة من قذارة بدت مثل ياقة سوداء. لكنها لم تنبس بكلمة، كان الليل حقاً بارداً جداً للاستحمام.

وحيدة الآن، أطفأت الأضواء وواصلت صلواتها. أصغت بين النوم واليقظة إلى المنزل أحياناً. نشج الفرن وتأوّه طالباً الوقود. مر رجل في الشارع يدخّن غليوناً. راقبته، وهي تعلم أنه لم يستطع رؤيتها في العتمة. قارنته ببانديني، كان أطول قامة منه، لكن لم يكن في خطوه شيء من مشية سفيفو المتناغمة. جاء صوت فدريكو من غرفة النوم، يتحدث في نومه. ثم آرتورو يدمدم وسنانَ: " اخرس"! عبر رجل آخر الشارع. كان بديناً ينصبّ البخار من فمه نحو الهواء البارد. كان سفيفو رجلاً يفوقه وسامة، حمداً لله لأن سفيفو لم يكن بديناً. لكن هذا كان تشتيتاً للفكر. كان مدنّساً السماح للأفكار الشاردة التي تعرقل الصلاة. أطبقت عينيها بإحكام، وصنعت قائمة عقلية من البنود لتقدمها للعذراء المباركة.

صلّت على نيّة سفيفو باندينى، طلبت ألا يثمل ويقع بين أيدي رجال الشرطة، كما حدث ذات مرة قبل زواجهما. صلّت ليبقى بعيداً عن روكو ساتشوني، وأن يبقى روكو ساتشوني بعيداً عنه. صلّت لعجلة الزمن أن يذوب الثلج ويسرع الربيع إلى كولورادو، فيتمكن سفيفو من العودة إلى العمل مجدداً. صلّت لميلاد سعيد ومن أجل المال. صلّت ليتوقف آرتورو عن سرقة القروش، وأن يصبح أوغست كاهناً، وأن يكون فدريكو ولداً صالحاً. صلّت طلباً لملابس لهم جميعاً، من أجل نقود للبقّال، لأرواح الموتى وأرواح الأحياء، للعالم، للمرضى والمحتضرين، للفقراء والأغنياء، للشجاعة والقوة على الاستمرار، طلبت الغفران لعثراتها.

صلّت صلاة حماسية طويلة، طالبة أن تكون زيارة دونا توسكانا زيارة

قصيرة، وألا تجلب معها الكثير من البؤس، وأن يتمتع سفيفو بانديني وأمّها ذات يوم بعلاقة مسالمة. آخر صلاة تلك كانت قانطة تقريباً، وعرفت ذلك. كيف يمكن لوالدة المسيح ترتيب هدنة في العداوة بين سفيفو بانديني ودونّا توسكانا؟ كانت مشكلة لا يمكن إلا للسماء أن تحلّها. لطالما أحرجها أن تلفت انتباه العذراء المباركة إلى هذه المسألة. كانت كمن يطلب القمر على مشبك فضي. في النهاية، تشفّعت الأم العذراء سلفاً إلى حد ما بزوج عظيم، وثلاثة أطفال رائعين، بيت جيد، صحة دائمة، وإيمان برحمة الله. لكن السلام بين سفيفو وحماته؟! حسناً، كان هناك طلبات أرهقت حتى كرم الرب القادر على كل شيء ومريم العذراء المباركة.

وصلَتْ دونا توسكانا ظهر يوم الأحد. كانت ماريا والأطفال في المطبخ. نواح الشرفة المعذّب تحت ثقل وزنها قال لهم بأنها الجدة. استقرّ برود شديد في حنجرة ماريا. دون أن تقرع فتحت دونا الباب وأقحمت رأسها نحو الداخل. تحدثت بالإيطالية فقط.

" هل هو هنا-الكلب الأبروتزي؟"

هرعت ماريا من المطبخ ورمت ذراعيها حول أمها. كانت دونا توسكانا الآن امرأة ضخمة، ترتدي دوماً السواد منذ وفاة زوجها. تحت الحرير الأسود الخارجي، كانت أربع تنانير، كلها بألوان زاهية، بدا كاحلاها المتورّمان مثل غدّتين متضخمتين. بدا حذاؤها الصغير جاهزاً للانفجار تحت ضغط وزنها الذي يقدّر بمئتين وخمسين باونداً. ليسا نهدين بل دستة نهود بدت تتهشم في صدرها. كانت بنيتها مثل هرم، دون ردفين. كان الكثير من اللحم في ذراعيها، حتى أنهما تدلّتا ليس إلى الأسفل، لكن على شكل زاوية، تتدلى أصابعها المنفوخة مثل نقانق. لم يكن عندها عنق على الإطلاق. عندما أدارت رأسها، تحرّك اللحم المترهّل بسوداوية شمع ذائب. ظهرت فروة

رأس زهرية تحت شعرها الخفيف الأشيب. كان أنفها صغيراً وجميلاً، لكن عينيها كانتا مثل حبات عنب متناغمة مداسة. كلما تحدثت ثرثرت أسنانها الاصطناعية بلغة تخصّها، بغير انتباه.

أخذت ماريا معطفها ووقفت دونا وسط الغرفة، تشتمّها، الشحم يتجعّد في عنقها وهي تنقل إلى ابنتها وأحفادها الانطباع أن الرائحة في منخريها كانت بالتأكيد رائحة قذرة، رائحة قذرة للغاية. استنشق الأولاد بارتياب. فجأة امتلك المنزل رائحة لم يلحظوها من قبل. فكر أوغست بمشكلة الكلى منذ سنتين، تساءل عما إذا كانت الرائحة، بعد سنتين، لا تزال موجودة.

" مرحباً يا جدتي!" قال فدريكو.

" تبدو أسنانك سوداء"، قالت. " هل فرّشتها هذا الصباح؟"

تلاشت ابتسامة فدريكو وغطّى شفتيه بظاهر يده وهو يخفض عينيه. أحكم إطباق فمه واعتزم الانزلاق نحو الحمام لينظر في المرآة حالما استطاع. بدت أسنانه سوداء بشكل مضحك.

واصلت الجدة الاستنشاق.

" ما هذه الرائحة الخبيثة؟" سألت. " بالتأكيد والدك ليس في البيت".

يفهم الأولاد الإيطالية، لأن بانديني وماريا كثيراً ما استخدماها.

" لا جدتي!" قال آرتورو. " هو ليس في البيت".

مدّت دونا توسكانا يدها إلى تغضّنات نهديها وأخرجت محفظتها. فتحتها وأخرجت قطعة عشرة سنتات بأطراف أصابعها، وأمسكت بها.

" الآن، " ابتسمت. " مَن من أحفادي الثلاثة الأكثر صدقاً؟ لأني

سأعطي له هذه. قولوا لي بسرعة هل والدكم ثمل؟"

"آه أمي،" قالت ماريا. "لِمَ تسألين عن هذا؟"

أجابت الجدة دون أن تنظر إليها:" كوني هادئة يا امرأة، هذه لعبة للأطفال!"

تشاور الأولاد بعيونهم فيما بينهم: كانوا صامتين، جزعين من خيانة والدهم، لكن ليس بالقدر الكافي. كانت الجدة بخيلة للغاية، وهم يعرفون أن محفظتها مليئة بالمال، كل قطعة نقود مكافأة على معلومة عن بابا، هل عليهم أن يفوّتوا هذا السؤال وينتظروا آخر؟ - ليس المرء معارضاً لبابا تماماً-أو هل على واحد منهم أن يجيب قبل الآخر؟ لم تكن مسألة جواب صادق: حتى لو لم يكن بابا ثملاً. الطريق الوحيد للحصول على القرش كان في إجابة الجدة بما يروقها.

وقفت ماريا عاجزة. استخدمت دونا توسكانا لساناً كالأفعى، جاهزاً دوماً للضرب في حضرة الأطفال: حوادث نصف منسية من طفولة ماريا وشبابها، أمور فضّلت ماريا ألا يعرفها أولادها خشية أن تتعدى المعلومات على كرامتها: أمور صغيرة قد يستعملها الأولاد ضدها. سبق أن استعملتها دونا توسكانا سابقاً. عرف الأولاد أن أمهم كانت حمقاء في المدرسة، لأن الجدة أخبرتهم. عرفوا أن الماما لعبت لعبة بيت بيوت مع أطفال سود، وضُربت من أجل هذا. وأن ماما تقيّأت في جوقة كنيسة سانت دومينيك في قداس كامل المراسم. وأن ماما، مثل أوغست، بلّلت السرير، لكن، بخلاف أوغست، أُجبرت على أن تغسل قمصان نومها. وأن ماما هربت من البيت وأعادتها الشرطة (هي لم تهرب حقاً، فقط تاهت وأصرّت الجدة على أنها هربت). وهم عرفوا أموراً أخرى عن ماما. رفضت العمل عندما كانت صغيرة وحُبست في القبو لساعة. لم تكن أبداً ولن تكون طاهية جيدة.

صرخت مثل ضبع عندما ولدت أطفالها. كانت حمقاء، ولولا ذلك لم تكن لتتزوج نذلاً مثل سفيفو بانديني.. ولم تكن تحترم نفسها، وإلا لم تكن لترتدي الأسمال دوماً. عرفوا أن ماما كانت ضعيفة، مسيطراً عليها من قبل زوجها الكلب. وأن ماما كانت جبانة وكان عليها أن ترسل سفيفو بانديني إلى السجن منذ وقت طويل. لذا كان من الأفضل ألا تعادي أمها. من الأفضل أن تتذكر الوصية الرابعة: أن تحترم أمها حتى تكون قدوة لأطفالها.

" حسناً"، كرّرت الجدة". هل هو ثمل؟"

ران صمت طويل.

ثم نطق فدريكو: " ربما يكون، يا جدتي. لا نعرف".

" يا أمي"، قالت ماريا." سفيفو ليس ثملاً. لكنه غائب في عمل، سيعود في أي لحظة".

" اسمع! أمك"، قالت دونا." حتى عندما كبرت وأصبح لديها ما يكفي من المعرفة، لم تطرح المياه في المرحاض. والآن تحاول أن تقول لي أن أبيك المتشرد ليس ثملاً! لكنه ثمل! أليس كذلك يا آرتورو! أسرع !-deci "soldi

" لا أعرف، يا جدتي. صدقاً".

" باه"! شخرت." أطفال حمقى لأهل حمقى!"

رمت بضع قطع نقدية عند أقدامهم. انقضّوا عليها مثل الهمج، يتقاتلون ويقعون على الأرض. راقبت ماريا الجمع الملتوي من الأذرع والسيقان، اهتزّ رأس دونا توسكانا ببؤس.

" وأنت ابتسمي!" قالت." مثل حيوانات يمزقون أنفسهم، وأمّهم

تبتسم مؤيّدة. آه، أمريكا المسكينة! آه، أمريكا، أطفالها سيمزقون حناجر بعضهم ويموتون مثل بهائم متعطّشين للدم!"

" لكن ماما، إنهم أولاد. لا يتسببون بأذى".

" آه، أمريكا المسكينة!" قالت دونا." أمريكا البائسة المسكينة!"

بدأت معاينتها للمنزل. استعدّت ماريا لهذا: السجاد مكنوس وكذلك الأرض، الغبار منفوض عن المفروشات، المدفأة ملمّعة. لكن الخرقة الخاصة بمسح الغبار لن تزيل اللطخ عن السقف الذي يرشح، المكنسة لن تكنس الأماكن البالية على السجادة، لن يزيل الصابون والماء علامات الأطفال المنتشرة في كل مكان: اللطخ الغامقة حول مقابض الباب، هنا وهناك ولدت بقعة دهن فجأة، اسم طفل واضح بخشونة، تصاميم عشوائية من ألعاب x /o التي تنتهي دوماً دون رابح، آثار إبهام على أسفل الأبواب، صور روزنامة ظهر لها شارب أثناء الليل، فردة حذاء وضعتها ماريا بعيداً في الخزانة ليس قبل عشر دقائق، جورب، منشفة، شريحة خبز ومربى في الكرسي الهزاز.

عملت ماريا لساعات وحذَّرت–وهذه كانت مكافأتها. مشت دونا توسكانا من غرفة إلى أخرى، وجهها قشرة من خوف. رأت غرفة الأولاد: السرير مرتّب بعناية، مفرود عليه غطاء أزرق، رائحة "نفتلين" تكمله بأناقة، لاحظت الستائر المكوية حديثاً، المرآة المتلألئة فوق التسريحة، البساط البالي جانباً على أتمّ ما يرام، كل شيء رهبانيّ للغاية بطريقة غامضة، وتحت الكرسي في الزاوية–سروال آرتورو القذر، مركول هناك، ومفروش مثل جزء من جسد ولد مقطوع إلى نصفين.

رفعت المرأة المسنّة يدها وأعولت.

" لا أمل"، قالت." آه يا امرأة! آه أمريكا!"

" حسناً، كيف يجري الأمر هناك"؟ قالت ماريا." الأولاد دوماً حذرين للغاية".

التقطت السروال، وبتردّد دفعته تحت مئزرها، ظلت عينا دونا توسكانا باردتين عليها طوال دقيقة، بعد اختفاء السروال.

" امرأة منكوبة. منكوبة، امرأة عزلاء".

لم يتغير شيء طوال فترة الأصيل، تهكّم دونا توسكانا عديم الشفقة يرهقها. فرّ الأولاد بقروشهم إلى متجر الحلوى. عندما لم يعودوا بعد ساعة رثت دونا لضعف سلطة ماريا. عندما عادوا، وجه فدريكو ملطّخ بالشوكولا، أعولت ثانية. بعد أن عادوا بساعة، تذمّرت من كونهم كثيري الضوضاء، لذا أرسلتهم ماريا إلى الخارج. بعد أن ذهبوا تنبأت من(تنبأت) أنهم قد يموتون من الأنفلونزا خارجاً في الثلج. حضّرت ماريا لها الشاي. قرقرت دونا بلسانها وتوصلت إلى أنه كان خفيفاً جداً. راقبت ماريا بصبر الساعة على الموقد. خلال ساعتين، عند الساعة السابعة، ستغادر أمها. تمنّع الوقت وتقدّم ببطء وزحف بالتياع.

" تبدين سيّئة"، قالت دونا." ما الذي حل باللون في وجهك؟"

ملست ماريا شعرها بيد واحدة.

" أنا بخير"، قالت." جميعنا بخير".

" أين هو؟" قالت دونا. " ذلك المتشرد!"

" سفيفو في العمل، أمي. لقد وجد عملاً جديداً".

" يوم الأحد؟" تهكّمت." كيف تعرفين أنه ليس مع عاهرة ما؟"

" لمَ تقولين مثل هذه الأمور؟ سفيفو ليس هذا النوع من الرجال".

" الرجل الذي تزوجت منه حيوان قاس. لكنه تزوج امرأة حمقاء، وأفترض بأن أمره لن ينكشف أبداً. آه أمريكا! فقط في هذا الأرض الفاسدة يمكن أن تحدث مثل هذه الأمور".

أثناء تحضير ماريا للعشاء جلست ومرفقاها على الطاولة، ذقنها بين يديها. كان الطعام معكرونة وكرات اللحم. جعلت ماريا تفرك غلاية المعكرونة بالماء والصابون. أمرت أن يجلب إليها صندوق المعكرونة الطويل، وتفحّصته بدقة بحثاً عن آثار فئران. لم يكن هناك صندوق ثلج في المنزل، حفظ اللحم في خزانة في الشرفة الخلفية. كانت شرائح مدورة، مفرومة من أجل كرات اللحم.

" اجلبيها إلى هنا!" قالت دونا.

وضعته ماريا أمامها. تذوّقته بطرف إصبعها." اعتقدت هذا"، قطّبت" إنه فاسد!"

" لكن هذا مستحيل!" قالت ماريا." لقد جلبته الليلة الماضية".

" الجزّار دوماً سيخدع الأحمق"، قالت.

تمّ تسويف العشاء نصف ساعة، لأن دونا أصرّت على أن تغسل ماريا وتجفّف الصحون المغسولة سلفاً. دخل الأولاد جائعين بضراوة. أمرتهم أن يغسلوا أيديهم ووجوههم، وأن يرتدوا قمصاناً نظيفة ويضعوا ربطات عنق. تذمّروا، ودمدم آرتورو:" الكلبة العجوز"! وهو يوثق الربطة البغيضة. مع استعداد الجميع كان العشاء بارداً. مع ذلك، تناوله الأولاد. أكلت المرأة العجوز بفتور بعض خصل من المعكرونة أمامها. حتى تلك أثارت استياءها، فدفعت صحنها بعيداً.

" العشاء معَدّ بطريقة سيئة"، قالت." لهذه المعكرونة طعم الروث!"

ضحك فدريكو.

" إنها جيدة مع ذلك".

" هل يمكنني أن أقدّم لك شيئاً آخر، يا أمي؟"

"لا!"

أرسلت آرتورو بعد العشاء إلى محطة الوقود كي يطلب سيارة أجرة. ثم غادرت، وهي تتجادل مع سائق السيارة محاولة أن تخفض أجرة الركوب إلى المحطة من خمسة وعشرين إلى عشرين سنتاً. بعد أن رحلت حشا آرتورو الوسادة في قميصه، وربط مئزراً حولها، وتهادى حول المنزل، يستنشق بازدراء. لكن لم يضحك أحد. لم يهتمّ أحد.

الفصل الرابع

لا بانديني، لا مال، لا طعام. لو كان بانديني في البيت قد يقول: "سجّلْها على الحساب!"

أصيل يوم الاثنين، وبانديني لم يزل غائباً، وفاتورة البقالة تلك! لن تنسى أمرها. مثل شبح لا يكلّ، ملأت أيام الشتاء بالوجل. كان متجر بقالة السيد كريك يقع قرب منزل بانديني. فتح بانديني في سنوات زواجه الأولى حساباً مديناً عند السيد كريك. تدبّر في البداية أمر دفع الفواتير، لكن، كلما كبر الأطفال سناً وازدادت حاجتهم إلى الطعام، وتتالت السنوات السيئة، ارتفعت قيمة فاتورة البقالة وانطلقت نحو أرقام مجنونة. ازدادت الأمور سوءاً على سفيفو بانديني منذ زواجه سنة فأخرى. المال! بعد مرور خمس عشرة سنة على زواج بانديني، كان لديه الكثير من الفواتير حتى أن فدريكو نفسه عرف أنه ليس لديه النية أو الإمكانية لدفعها.

لكن فاتورة البقالة أرهقته. يدين للسيد كريك بمئة دولار، دفع خمسين-إذا كان يملكها. مدين بمئتي دولار، دفع خمسة وسبعين-إذا كان يملكها. وهكذا انطبق الأمر على جميع ديون سفيفو بانديني. لم يكن أمرها سراً. لم يكن هناك دوافع مخفية، ولا رغبة بالخداع وراء عدم دفعها. ما من ميزانية بوسعها أن تسددها. ما من اقتصاد مخطط يمكنه التلاعب بها. كان الأمر في غاية البساطة: اعتادت عائلة بانديني إنفاق مبالغ مالية تفوق مواردها. عرف أن خلاصه الوحيد يكمن في ضربة حظ. حدسه الذي لا يكلّ بأن

الحظ الجيد كان قادماً أحبط هجرانه التام ومنعه من أن ينتحر. هدّد باستمرار بكلا الأمرين، لكنه لم يقترف أيّاً منهما. لا تعرف ماريا التهديد. لم يكن ذلك من طبيعتها.

لكن السيد كريك البقال لم يكف عن التذمر. لم يكن على ثقة تامة ببانديني: لو لم تكن عائلة بانديني تعيش بجوار متجره حيث بوسعه مراقبتهم، ولو لم يشعر بأنه قد يتسلم في النهاية على الأقل معظم المال الذي يدينون له به، لم يكن ليسمح بمزيد من الديون. لقد تعاطف مع ماريا ورقَّ لحالها بتلك الشفقة الباردة التي يبديها التجار الصغار إزاء طبقة الفقراء، وبذلك الفتور الدفاعي البارد نحو أفرادها. يا مسيح، لديه فواتير يجب أن يسددها أيضاً.

الآن، بعد أن أصبح حساب بانديني مرتفعاً للغاية–وقد تصاعد بقفزات سحابة كل شتاء–شتم ماريا، بل أهانها. عرف أنها كانت صادقة حدّ البراءة الطفولية، لكن، لم يبدُ لائقاً مجيئها إلى المتجر لترفع من قيمة الدين. تماماً كما لو أنها تملك المكان! كان هناك ليبيع البقالة، لا لتقديمها عطيّة. لقد تاجر بالسلع وليس بالمشاعر. كان المال مستحقاً له. كان يسمح لها بدين إضافي. كانت طلباته للمال عبثية. الأمر الوحيد الذي كان بوسعه أن يفعله هو أن يلاحقها حتى يحصل عليه. تحت ضغط الظروف كان موقفه أفضل ما يمكنه التوصل إليه.

كان على ماريا أن تتملق نفسها لتحثّها على جرأة ملهمة لمواجهته يومياً. لم يُلقِ باندينى بالاً لشعورها بالخزي بين يدي السيد كريك.

سجّله، سيد كريك، سجله!

ذرعت ماريا المنزل طوال فترة الأصيل، وحتى قبل ساعة من موعد

العشاء، تنتظر ذلك الإلهام المستميت الضروري للغاية من أجل رحلتها إلى المتجر. ذهبت إلى النافذة، جلست ويداها في جيوب مئزرها، قبضة حول مسبحتها-تنتظر. لقد فعلت ذلك من قبل، منذ يومين فقط، السبت، واليوم الذي سبقه، كل الأيام التي سبقته، الربيع، الصيف، الشتاء، سنة تأتي، وسنة ترحل. لكن الآن، هجعت شجاعتها من فرط الاستعمال ولن تنهض. لم تستطع الذهاب إلى ذلك المتجر ثانية وتواجه ذلك الرجل. رأت من النافذة، عبر مساء الشتاء الشاحب، آرتورو في عرض الشارع مع مجموعة من أولاد الجيران. كانوا مشتبكين في قتال بكرات الثلج في الساحة الفارغة. فتحت الباب.

" آرتورو!"

نادته لأنه الأكبر سناً. رآها تقف في المدخل. كانت عتمة بيضاء. زحفت ظلال عميقة سريعاً عبر الثلج الحليبي اللون. أضاءت مصابيح الشارع بفتور، وهج بارد في غشاوة باردة. عبرت حافلة، سلاسل إطاراتها تقعقع بشكل كئيب.

هو يعلم ما تريد. أطبق أسنانه باشمئزاز. علم أنها أرادت منه الذهاب إلى المتجر. كانت جبانة، جبانة تماماً، مرّرت له دولاراً، خائفة من كريك. كان في صوتها رجفة مميزة تأتي مع موعد التسوق من المتجر. حاول أن يتملص من الأمر متظاهراً بأنه لم يسمع، لكنها واصلت النداء إلى أن كان جاهزاً للصراخ وتوقف بقية الأولاد، منوّمين بتلك الرجفة في صوتها، عن رمي كرات الثلج ونظروا إليه، كما لو أنهم يرجونه أن يفعل شيئاً. قذف كرة ثلج أخرى، وراقبها وهي تطرطش، ثم درجَ خلال الثلج وعبر الرصيف الجليدي. الآن رآها بوضوح. فكّاها يرتعشان من برد الغسق. وقفت بذراعين تعصران جسدها النحيل، تنقر بأصابع قدميها لتبقيهما دافئتين.

" ماذا تريدين؟" قال.

" الطقس بارد"، قالت" ادخل وسأقول لك".

" ما الأمر أمي؟ أنا على عجلة من أمري".

" أريدك أن تذهب إلى المتجر".

" المتجر؟ لا! أعرف لماذا تريدين مني الذهاب-لأنك خائفة بسبب الفاتورة. حسناً، لن أذهب. أبداً".

" أرجوك اذهب!" قالت. " أنت كبير بما فيه الكفاية لتفهم. أنت تعرف كيف هو السيد كريك". بالتأكيد يعرف. هو يكره ذلك البغيض كريك، يسأله دوماً عما إذا كان والده ثملاً أو صاحياً، وماذا فعل والده بماله، وكيف تعيشون أنتم الإيطاليون ولا تملكون سنتاً واحداً، وكيف يحدث أن والدك لم يُمضِ الليل في البيت أبداً، وعلى ماذا حصل-امرأة بجانبه، تأكل أمواله؟ عرف السيد كريك وكرهه.

" لِمَ لا يذهب أوغست؟" قال. " يا للعجب، أقوم بكل الأعمال هنا. مَن جلب الفحم والحطب؟ أنا. كل مرة. دعي أوغست يذهب".

" لكن أوغست لن يذهب. هو خائف".

" هراء. الجبان. ممّ يخاف؟ حسناً، أنا لست بذاهب".

التفت وعاد متثاقلاً إلى الأولاد. كان القتال بكرات الثلج قد استؤنف. وعلى الجهة المقابلة بوبي كريك ابن البقال. سأنال منك أيها الكلب. من الشرفة نادت ماريا مجدداً. لم يُجِبْ آرتورو. صرخ ليحجب صوتها. الآن حلت الظلمة، وأضاءت نوافذ السيد كريك في الليل. ركل آرتورو حجراً من الأرض المتجمدة وشكّله على شكل كرة ثلج. كان ابن كريك يبعد مسافة

خمسين قدماً. رمى بغضب من خلف شجرة. أجهد كامل جسده، لكنه لم يُصبه-جاءت على بعد مسافة قدم عنه.

كان السيد كريك يقطع عظماً بساطوره على لوح التقطيع، عندما دخلت ماريا. عندما صرّ الباب رفع بصره ورآها: شخصاً ضئيلاً تافهاً في معطف قديم أسود ذي ياقة عالية من الفراء، معظم الفراء تنسَّل وظهرت تلك البقع البيضاء المخفية في الكتلة القاتمة. غطّت قبعة بالية بنية جبهتها-يختبئ تحتها وجه طفل صغير طاعن في السن. لمعان جواربها الحريرية الشاحب جعلها مدبوغة بالصفرة، تبرز من تحتها العظام الصغيرة والجلد الأبيض، جاعلة حذاءها القديم يبدو أكثر قِدَماً وبللاً. دخلت خائفة مثل طفل، مرعوبة على رؤوس أصابعها، إلى هذا المكان الأليف الذي كانت تتسوق منه بين الحين والآخر، أبعد ما يمكن عن لوح تقطيع السيد كريك، حيث النضد مقابل الجدار. اعتادت في السنين السابقة أن تحيّيه. لكنها الآن شعرت بأنه قد لا يستطيب رفع الكلفة هذا، ووقفت بهدوء في زاويتها تنتظر ريثما يكون مستعداً لخدمتها. عندما عرف من تكون لم يلقِ لها بالاً، وحاولت أن تبدو مهتمة وشاهدة مبتسمة، وهو يؤرجح ساطوره. كان في الخامسة والأربعين من العمر، متوسط الطول، نصف أصلع، يرتدي نظارات من السيلوليد . استقرّ قلم سميك خلف إحدى أذنيه، وسيجارة خلف الأذن الأخرى. يتدلى مئزره الأبيض حتى قمة حذائه، خيط الجزار الأزرق ملفوف عدة مرات حول رسغه. كان يفرم عظماً داخل كفل أحمر غضّ.

قالت: " يبدو جيداً، أليس كذلك؟"

قلب الشريحة مراراً وتكراراً، قطع تربيعة ورقية من اللفافة سريعاً، وفردها على الميزان، وقذف الشريحة عليها. طواها بأصابع رشيقة ناعمة خبيرة. خمّنت أن سعرها يقدّر بدولارين تقريباً. وتساءلت عمّن يكون

قد اشتراها-ربما واحدة من زبائن السيد كريك الأمريكيات الثريات من يونيفرستي هيل. رمى السيد كريك بقية الكفل على كتفه واختفى داخل الثلاجة، مغلقاً الباب خلفه. بدا أنه ظل وقتاً طويلاً في تلك الثلاجة. ثم خرج وتصرف كمن فوجئ برؤيتها، نظّف حنجرته، وأغلق باب الثلاجة، موصداً إياه من أجل الليل، واختفى في الغرفة الخلفية. تصورت أنه كان ذاهباً إلى دورة المياه ليغسل يديه، وذلك جعلها تتساءل عما إذا كانت بحاجة إلى مطهّر Gold Dust، ثم دفعة واحدة، ارتطم بذاكرتها كل ما كان ينقص المنزل، وتغلّب عليها إعياء مثل غيبوبة عندما بدا أن كميّاتٍ من الصابون، الزبدة، اللحم، البطاطا، وأموراً أخرى كثيرة تدفنها في انهيار جليدي. ظهر كريك مجدداً يحمل مكنسة، وبدأ يكنس النشارة حول لوح التقطيع. رفعت عينيها إلى الساعة التي كانت تشير إلى السادسة إلا عشر دقائق. مسكين السيد كريك! بدا متعباً. كان مثل جميع الرجال، ربما يتوق لوجبة ساخنة. انتهى السيد كريك من الكنس وتوقف ليشعل سيجارة. لا يدخن سفيفو سوى السيجار، لكن جميع الأمريكيين تقريباً يدخنون السجائر. نظر السيد كريك إليها، تنهّد وتابع الكنس.

قالت: " طقسنا بارد".

لكنه سعل، وخيّل إليها أنه لم يسمع، لأنه اختفى في الغرفة الخلفية وعاد بمجرفة وكيس ورقي. تنهّد وهو ينحني للأسفل، كنس النشارة في المجرفة وأفرغها في الكيس الورقي.

" لا أحب هذا الطقس البارد"، قالت." نحن ننتظر الربيع، لا سيما سفيفو". سعل ثانية، وسرعان ما راح يعيد الكيس إلى الغرفة الخلفية. سمعت صوت جريان الماء. عاد يجفّف يديه بمئزره، ذلك المئزر الظريف الأبيض. عند آلة تسجيل النقود، بصوت مرتفع جداً رنّ معلناً توقّف البيع. غيّرت

وضعيتها، نقلت ثقلها من قدم إلى أخرى. دقت الساعة الكبيرة. واحدة من تلك الساعات الكهربائية التي لها دقات غريبة. كانت الساعة السادسة تماماً الآن. جرف السيد كريك القطع النقدية من صندوق النقود، وفردها على النضد. انتزع قصاصة ورقية من اللفّة وتناول قلمه. ثم اتكأ وحسب غلّة اليوم. هل يعقل أنه لم ينتبه لحضورها في المتجر؟ بالتأكيد رآها تدخل وتقف هناك! بلّل القلم بطرف لسانه الزهري اللون، وبدأ يدوّن الأرقام. رفعت حاجبيها بدهشة، وتمشّت نحو النافذة الأمامية لتنظر إلى الفاكهة والخضار. دستة البرتقال بستّين سنتاً، باوند الهليون بخمسة عشر سنتاً. أوه، يا إلهي! باوندان من التفاح بربع. "فريز"! قالت." وفي الشتاء، أيضاً! هل هو فريز من كاليفورنيا، يا سيد كريك؟"

جرف النقود نحو حصالة نقود وذهب إلى الخزنة، حيث قرفص واستخدم أصابعه في كتابة الرقم السري للقفل المدمج. دقت الساعة الكبيرة. كانت السادسة وعشر دقائق عندما أغلق الخزنة. اختفى من فوره في مؤخرة المتجر ثانية. الآن لم تعد تواجهه. خجلة، منهكة، تعبت قدماها، وبيدين مشبوكتين في حضنها جلست على صندوق فارغ وحدّقت بالنوافذ الأمامية المتجمدة. خلع السيد كريك مئزره ورماه على لوح التقطيع. رفع سيجارته من شفتيه، رماها على الأرض ودهسها على مهل. ثم ذهب إلى الغرفة الخلفية ثانية، وعاد بمعطفه. تحدّث إليها للمرة الأولى وهو يسوّي ياقته.

" هيا يا سيدة بانديني! يا إلهي! لا يمكنني أن أبقى هنا طوال الليل".

فقدت توازنها عندما سمعت صوته. ابتسمت لتخلّصها من حرجها، لكن وجهها كان شديد الإحمرار، وعيناها خفيضتين. رفرفت يداها نحو حنجرتها.

" أوه!" قالت". كنت أنتظرك!"

"ماذا ستكون يا سيدة بانديني-شريحة من لحم الكتف؟"

وقفت في الزاوية وزمّت شفتيها. خفق قلبها بسرعة كبيرة ولم تستطع أن تفكر بشيء على الإطلاق لتقوله الآن.

قالت: " أظن أني أريد-"

" أسرعي يا سيدة بانديني. يا إلهي! مضى على وجودك هنا نصف ساعة ولم تقرري بعد".

" أعتقد-"

" هل تريدين قطعة من لحم الكتف؟"

" كم ثمنها يا سيد كريك؟"

" السعر نفسه. يا إلهي! سيدة بانديني، أنت تشترين من هنا منذ سنوات. السعر نفسه. السعر نفسه دوماً".

" سآخذ بقيمة خمسين سنتاً".

" لِمَ لم تقولي لي من قبل؟" قال" لقد ذهبت ووضعت جميع اللحم في الثلاجة".

" أوه، أنا آسفة، يا سيد كريك!"

" سأجلبها هذه المرة. لكن بعد اليوم، يا سيدة بانديني، إذا كنت تريدين الشراء من متجري تعالي باكراً. يا إلهي، عليَّ الوصول إلى البيت في وقت مبكر الليلة".

جلب قطعة من الكتف ووقف يشحذ سكينه.

" قولي!" قال" ماذا يفعل سفيفو هذه الأيام؟"

معرفة بانديني بالسيد كريك تعود إلى خمس عشرة سنة مضت، يشير البقال دوماً إليه باسمه الأول. شعرت ماريا دوماً أن كريك يخاف من زوجها. إيماناً جعلها تشعر في سرها بفخر كبير. الآن تحدثا عن باندينى، وروت له ثانية الحكاية المكررة عن مصائب بنَّاء في شتاءات كولورادو.

" رأيت سفيفو ليلة أمس"، قال كريك." رأيته بالقرب من منزل إيفي هيلد جاردي. تعرفينها؟"

لا-لا تعرفها.

" من الأفضل أن تراقبي سفيفو هذا"، قال ملمّحاً بخفّة ظل." من الأفضل أن تُبقي عينك عليه. تملك إيفي هيلد جاردي الكثير من المال".

" هي أرملة أيضاً"، قال كريك، معايناً ميزان اللحم." تملك شركة لحافلات الترام".

راقبت ماريا وجهه عن كثب. طوى وربط اللحم وصفعه أمامها على النضد." تملك الكثير من العقارات في هذه البلدة أيضاً، امرأة حسناء يا سيدة باندينى".

عقارات؟ تنهّدت ماريا بارتياح.

" أوه، سفيفو يعرف الكثير من ملاكي العقارات. هو ربما يقوم بعمل لصالحها".

كانت تقضم ظفر إبهامها عندما تحدث كريك ثانية.

" ماذا أيضاً يا سيدة باندينى؟"

طلبت البقية: طحين، بطاطا، صابون، زبدة، سكر". كدت أنسى!" قالت.

" أريد بعض الفاكهة أيضاً، نصف دزينة من ذلك التفاح. الأطفال يحبون الفاكهة!"

شتم السيد كريك في سرّه وهو ينفخ الكيس ليفتحه ويرمي التفاح بداخله. لم يستسغ إضافة الفاكهة إلى حساب بانديني: لا يمكنه أن يرى سبباً لأن يتنعّم الفقراء بالرفاهية. لحم وطحين-نعم. لكن، لِمَ عليهم أن يأكلوا الفاكهة وهم يدينون له بكثير من المال؟

" يا إلهي!" قال. "حساب الدَّين هذا يجب أن يتوقف يا سيدة بانديني! أقول لك بأنه لا يمكن أن يستمر على هذه المنوال. لم يدفع لي بنساً واحداً من تلك الفاتورة منذ أيلول!"

"سأقول له!" قالت متراجعة. " سأقول له يا سيد كريك".

"أعلميه! سيُفيد هذا كثيراً!"

جمعت صُررها.

"سأقول له يا سيد كريك! سأقول له الليلة"! يا لها من راحة في الخروج إلى الشارع! كم كانت متعبة! آلمها جسدها. ومع ذلك ابتسمت وهي تستنشق هواء الليل البارد، معانقة صررها بحبّ، كما لو أنها الحياة نفسها. كان السيد كريك مخطئاً. سفيفو بانديني رجل عائلة. ولِمَ عليه أن يتحدّث إلى امرأة تملك عقارات؟

الفصل الخامس

كان آرتورو بانديني واثقاً من أنه لن يذهب إلى الجحيم بعد موته. كان الطريق إلى الجحيم ممهّداً بارتكاب إثم لا يغتفر. هو يؤمن بأنه ارتكب الكثير، لكن الاعتراف للكاهن أنقذه. كان دوماً يذهب للاعتراف في موعده-أي قبل أن يموت. ودقَّ على الخشب كلما فكر في ذلك-دوماً يكون هناك في الموعد المحدد-قبل أن يموت. لذا كان آرتورو واثقاً تماماً من أنه لن يذهب إلى الجحيم عندما يموت، لسببين: الاعتراف، وحقيقة أنه كان عدّاءً سريعاً.

لكن المَطْهر، ذلك المكان الذي يتوسّط الجحيم والجنة، كدّره. حدّد التعليم الديني، بكلمات لا لبس فيها، متطلبات الذهاب إلى الجنة: يجب أن تكون الروح طاهرة تماماً دون أن تلوّث طُهرَها شائبةٌ من ذنب. إذا لم تكن الروح عند الموت طاهرة بما فيه الكفاية للذهاب إلى الجنة، وليست ملوثة بما فيه الكفاية لتذهب إلى الجحيم، تبقى هناك: في تلك المنطقة الوسطى، في ذلك المطهر حيث تحترق الروح وتحترق إلى أن تتطهّر من شوائبها. يوجد في المطهر عزاء وحيد:ستكون ضامناً الجنة عاجلاً أم آجلاً. لكن عندما أدرك آرتورو أن بقاءه في المطهر قد يدوم سبعين مليون تريليون بليون سنة، يحترق ويحترق ويحترق، لم يكن في الجنة النهائية سوى عزاء ضئيل. ففي النهاية مئة سنة وقت طويل. ومئة وخمسون مليون سنة لا تُصدَّق.

لا: كان آرتورو واثقاً من أنه لن يذهب إلى الجنة مباشرة، أبداً. لكن بقدر ما كان متهيّباً من الاحتمال، عرف أنه سيبقى وقتاً طويلاً في المطهر.

لكن، ألم يكن هناك شيء ما يمكن للإنسان أن يفعله ليخفّف من تعرّضه لعذاب النار في المطهر؟ وجد في تعليمه الديني الجواب لهذه المشكلة.

كانت الوسيلة لاختصار الفترة الرهيبة في المطهر، كما أعرب عنها التعليم الديني، بالأعمال الصالحة، بالصلاة، بالصيام والتقشّف، وبوفرة الغفران. كانت الأعمال الصالحة مستبعدة بقدر ما يتعلق الأمر به. لم يزُرْ يوماً مريضاً، لأنه لم يكن يعرف الكثير من الناس. لم يكسُ عريانَ، لأنه لم ير يوماً أي شخص عارٍ. لم يدفن ميتاً، لوجود حانوتيين يتولّون القيام بهذا العمل. لم يمنح صدقة للفقراء، لأنه لم يكن يملك ما يعطيه، عدا عن أن "الصدقات" بدت له دوماً مثل رغيف خبز، ومن أين له أن يحصل على رغيف خبز؟ لم يؤوِ يوماً جريحاً، لأنه-حسناً، لا يعلم-بدا مثل شيء يفعله الناس في البلدات الساحلية، يخرجون لإنقاذ البحارة المصابين في السفن الغارقة. لم يعلّم الجاهل، لأنه في النهاية هو كان جاهلاً، وإلا لماكان مضطراً للذهاب إلى هذه المدرسة السيئة. لم يُنِرْ يوماً الظلمة، لأن ذلك كان أمراَعسيراً لم يفهمه أبداً. لم يعزِّ يوماً مبتلىً، لأن الأمر بدا محفوفاً بالمخاطر ولم يعرف أحداً منهم بأية حال: كانت معظم حالات الحصبة والجدري تضع لافتات الحجر الصحي على الأبواب.

خالف عملياً الوصايا العشرجميعها، ومع ذلك كان واثقاً أن تلك المخالفات لم تكن كلّها ذنوباً مميتة. حمل أحياناً قائمة الأرنب، وتلك كانت خرافة، وبالتالي إثم ينتهك الوصية الأولى. لكن هل كان إثماً مميتاً؟ لطالما أزعجه ذلك. كان الإثم المميت جريمة خطيرة. في حين أن الإثم الصغير كان جريمة خفيفة. أحياناً، وهو يلعب البيسبول، صالب الهراوات مع لاعب زميل آخر: تلك طريقة أكيدة للحصول على ضربة قاعدة مضاعفة. مع أنه يعلم بأنها خرافة. هل كان ذنباً؟ وهل كان ذنباً مميتاً أو يمكن اغتفاره؟ ذات

أحد تعمّد تفويت القداس ليستمع إلى برنامج بطولة العالم، ولا سيما ليسمع "إلهه" جيمي فوكس يتحدث عن الألعاب الرياضية. خطر له فجأة وهو عائد إلى البيت بعد المباراة، أنه خالف الوصية الأولى: لا تعبد آلهة غيري! حسناً، لقد اقترف ذنباً مميتاً بتفويت القداس، لكن هل ارتكب ذنباً مميتاً آخر بتفضيلُه جيمي فوكس على الله في بطولة العالم؟ لقد ذهب إلى الاعتراف، وهناك ازدادت المسألة تعقيداً. قال الأب أندرو: " إذا كنت تظن أنه ذنب مميت، فهو كذلك"! حسناً، يا للعجب. فكّر أولاً أنه كان مجرد ذنب يمكن اغتفاره، لكن، كان عليه أن يقرّ بأنه أصبح حقاً إثماً مميتاً، لمرور ثلاثة أيام على ارتكابه دون أن يعترف به.

الوصية الثانية. لم تكن ذات فائدة، ولامجرّد التفكير بها، لأن آرتورو تلفظ بقول:" ليلعنه الله"! بمعدل أربع مرات في اليوم. هذا إذا لم نحتسب التنويع: ليلعن الله هذا، وليلعن الله ذاك. وهكذا، بذهابه إلى الاعتراف كل أسبوع كان مضطراً للقيام بتعميمات واسعة، بعد مراجعة عقيمة لضميره طلباً للدقة. كان أفضل ما استطاعه الاعتراف للكاهن:" تناولت اسم الرب سدىً حوالي ثماني وستين أو سبعين مرة". ثمانية وستون ذنباً مميتاً في أسبوع واحد، من الوصية الثانية وحدها. واو! أحياناً، أصغى وهو يجثو في الكنيسة الباردة بانتظار الاعتراف بحذر لدقّات قلبه، متسائلاً عما إذا كان سيتوقف وسيسقط ميتاً قبل أن يخرج تلك الأشياء من صدره. لقد أثار وجيب قلبه العنيف ذاك غضبه فقد منعه أغلب الأحيان من التوجه جرياً نحو الاعتراف، بل كان يسير بتمهل شديد كي لا ينهكه وينهار في الشارع.

"أكرم أباك وأمك!" بالتأكيد أكرمَ أباه وأمه! بالتأكيد. لكن كان هناك إشكالٌ فيها: ذهب التعليم الديني في القول إلى أن أي عقوق لأبيك وأمك يشكّل وصمة عار. مرة أخرى لم يكن محظوظاً. مع أنه بالفعل يكرم أمه

وأباه، لكنه لم يكن طيّعاً إلا فيما ندر. ذنوب صغيرة؟ ذنوب قاتلة؟ أزعجه التصنيف. أنهكه عدد الذنوب التي انتهك بها تلك الوصية، سيعدّها بالمئات وهو يتفحص أيامه ساعة فساعة. توصّل أخيراً إلى نتيجة مفادها أنها لم تكن سوى ذنوب صغيرة وليست خطيرة بما فيه الكفاية ليستحق الجحيم، مع ذلك كان شديد الحرص على ألا يحلّل هذه الخلاصة مليّاًجداً.

لم يقتل يوماً رجلاً، ولفترة زمنية طويلة كان واثقاً من أنه لن يخالف الوصية الخامسة البتّة. لكنه ذات يوم، في صف التعليم الديني، وهم يتناولون دراسة الوصية الخامسة، اكتشف تقزّزه، لأنه كان مستحيلاً بشكل خاص تفادي مخالفتها. لم يكن قتل رجل هو الأمر الوحيد، النتائج الثانوية للوصية تضمّنت: القسوة، الإيذاء، الشجار، وكل أشكال الشر تجاه الإنسان، والطير، والبهائم، والحشرات، على حد سواء.

ليلة سعيدة! ما الفائدة؟ تلذّذ بقتل الذباب الأزرق. قتل دفعة كبيرة من الفئران والطيور. أحبّ الشجار. كره تلك الدجاجات. اقتنى الكثير من الكلاب في حياته، وكان قاسياً معها، وعنيفاً غالباً. وماذا عن كلاب المروج التي قتلها، والحمام، وطيور التدرج، والأرانب البرية؟ حسناً، الأمر الوحيد الذي يمكن فعله كان أن يستفيد استفادة قصوى من هذا. كان الأسوأ، أن مجردُ التفكير في القتل أو في إيذاء كائن بشري يعتبر ذنباً. هذا ختم قدره المشؤوم. ومهما تعدّدت محاولاته لم يتمكن من مقاومة التعبير عن تمنّي الموت العنيف لبعض الناس: مثل الأخت ماري كورتا، وكريك البقال، والطلاب الجدد في الجامعة، الذين يضربون الأولاد بالهراوات، ويمنعونهم من التسلل إلى المباريات الكبيرة في الملعب. أدرك أنه إذا لم يكن قاتلاً فعلياً، فهو كالقاتل في نظر الله.

ارتكب ذنباً واحداً، مخالفاً الوصية الخامسة، لطالما ثار في ضميره في

الصيف الماضي، عندما قبض هو وبولي هود، وهذا ولد كاثوليكي آخر، على جرذ حيّ وصلباه على صليب صغير بمسامير، ورفعاه على كثيب للنمل. كان أمراً رهيباً وشنيعاً لن ينساه أبداً. لكن الجزء الفظيع منه كان أنهما فعلا هذا العمل الشرير يوم الجمعة العظيمة، وتماماً بعد تلاوة رتبة الصليب ! اعترف بذلك الإثم خجلاً، يرويه وهو يبكي بندم عميق، لكنه عرف أنه سيُبقيه سنوات عديدة في المطهر، ومرّت ستة أشهر تقريباً قبل أن يجرؤ على قتل جرذ آخر.

لا تزنِ! لا تفكّر بروزا بينيللي، جون كراوفورد، نورما شيرر، وكلارا بو. أوه يا إلهي! أوه روزا! ذنوب، ذنوب، ذنوب! بدأ عندما كان في الرابعة، لكنه كان جاهلاً، فلم يعتبر ذنباً حينذاك. بدأ عندما جلس في أرجوحة شبكية ذات يوم، عندما كان في الرابعة، يتأرجح جيئة وذهاباً، وفي اليوم التالي عاد إلى الأرجوحة الشبكية بين شجرتي النخيل والتفاح في الفناء الخلفي، يتأرجح جيئة وذهاباً. ما الذي كان يعرفه عن الزنى والأفكار الشريرة والأفعال الشريرة؟ لا شيء. كان الجلوس في الأرجوحة الشبكية مسلّياً. ثم تعلم القراءة، وكانت الوصايا أولى الأشياء الكثيرة التي قرأها. اعترف لأول مرة عندما كان في الثامنة، وعندما بلغ التاسعة كان عليه تحليل الوصايا واكتشاف معناها. لم يتحدثوا عن الزنى في حصة التعليم الديني للصف الرابع. تجاوزتها الأخت ماري آنا وأمضت معظم الوقت في التحدث عن وصية "أكرم أباك وأمك"، ووصية "لا تسرق". وهكذا، لأسباب غامضة لم يفهمها أبداً، كان الزنى بالنسبة له دوماً أمراً له علاقة بلصوص المصارف. بين سنتيه الثامنة والعاشرة، سيتجاهل " لا تزنِ" وهو يتحرّى ضميره قبل الاعتراف، لأنه لم يسطُ على مصرف يوماً. لم يكن الأب آندرو مَن حدّثه عن الزنى، وليست إحدى الراهبات، بل آرت مونتجومري في مطعم the Stan-

dard Station عند تقاطع شارعي آراباهو والثاني عشر. منذ ذلك اليوم، كان يئزّ ألف دبور غاضب في عشٍّ عند حقويه. لم تتحدث الراهبات يوماً عن الزنى. لقد تحدثن فقط عن الأفكار والكلمات والتصرفات الشريرة. يا لذلك التعليم الديني!كان كل سرّ في قلبه، كل بهجة خفيّة في عقله، يعرفها ذلك التعليم سلفاً. لم يتمكن من هزيمته، مهما مشى باحتراس متسللاً على رؤوس نظامه الدقيقة.

لن يتمكّن من الذهاب إلى السينما بعد الآن، لأنه ذهب فقط إلى السينما لرؤية أجساد بطلاته. أحبَّ أفلام "الحب". أحب متابعة الفتيات على الدرج. أحب أذرع الفتيات، سيقانهن، أيديهن، أقدامهن، أحذيتهن وجواربهن وفساتينهن، رائحتهن وحضورهن. بعد بلوغه عامه الثاني عشر لم يعْنِه شيءٌ في الحياة سوى الفتيات والبيسبول، لقد أطلق عليهن اسم نساء فقط. أحبّ رنين الكلمة: نساء، نساء، نساء. قالها مراراً وتكراراً، فقد كانت إحساساً سرّيّاً. حتى في القداس، عندما كان في القداس، ومن حَوله خمسون أومئة واحدة منهن، وجد متعة بالغة في سرّيّة مباهجه.

كان الأمر برمّته ذنباً-إحساساً بغيضاً بالشرّ. حتى رنين بعض الكلمات كان ذنباً. تموّج، طريّ. حلمة. كلها ذنوب. جسدي. اللحم. قرمزي. شفاه. كلها ذنوب. عندما تلا صلاة "السلام عليك": "السلام عليك يا مريم، يا ممتلئةً نعمةً، الربّ معك، مباركة أنت في النساء، ومباركة ثمرة بطنك"! هزّته الكلمة كالرعد."ثمرة بطنك". ولِدَ ذنب آخر.

كان يدخل الكنيسة مترنّحاً أصيل يوم السبت من كل أسبوع، مثقلاً بذنوب الزنى. يسوقه الخوف من أنه قد يموت ثم يعيش إلى الأبد في عذاب أبدي. لم يجرؤ أن يكذب على معرِّفه. اقتلع الخوف ذنوبه من جذورها. سيعترف بكل شيء سريعاً، مهيلاً قذارته، مرتجفاًليتطهّر. ارتكبت تصرفاً

سيّئاً، أقصد اثنين، وفكّرت بساقَي الفتاة وبلمسها في مكان سيّيء، وذهبت إلى العرض وفكرت بأشياء سيئة، وكنت أمشي وكانت فتاة تخرج من سيارة وكان سيئاً، وأصغيت إلى نكتة سيئة، وضحكت وكنّا ثلة نشاهد كلبين وقلت شيئاً سيئاً، كان خطئي، لم يقولوا شيئاً، أنا فعلت، أنا فعلتها كلها، جعلتهم يضحكون على فكرة سيئة، ومزّقت صورة من مجلة وكانت عارية، وعرفت أنه كان سيئاً، لكني فعلته مع ذلك. فكّرت بأمر سيّئ عن الأخت ماري آجنس، كان سيّئاً لكني واصلت التفكير. أيضاً فكرت بأشياء سيّئة عن بعض الفتيات اللواتي كنّ يتمدّدن على العشب، وكان فستان إحداهن مرفوعاً، وواصلت النظر مع علمي أنه سيّئ. لكني آسف! كان خطئي، كله خطئي، وأنا آسف، آسف!

قد يغادر كرسي الاعتراف، يتلو كفّارته، يصرّ بأسنانه، قبضته محكمة، عنقه متصلّب، يتعهّد بالجسد والروح أن يكون طاهراً إلى الأبد. قد تشمله الهناءة أخيراً، مهدّئ يهدهده، النسيم يبرده، الجمال يلاطفه. قد يخرج من الكنيسة حالماً، يمشي حالماً، يقبّل شجرة إذا لم يكن على مرأى من أحد، يأكل عشبة، يرمي قبلاً إلى السماء، يلمس أحجار جدار الكنيسة الباردة بأصابع سحرية، لا يشبه السلام في قلبه شيئاً سوى شوكولا ذائبة، ضربة ثلاثية ، نافذة مضيئة لتُكسر، تنوّم تلك اللحظة التي تسبق النوم.

لا، لن يذهب إلى الجحيم عندما يموت. كان عدّاءً سريعاً، يسرع دوماً في الذهاب إلى الاعتراف. لكن المطهر ينتظره. ليس له طريق مباشر نقيّ إلى الجنة الأبدية، سيصل إليها بطريق صعبة، طريق جانبية. هذا ما كان يدعو آرتورو ليكون شمّاساً. كانت بعض التقوى على هذه الأرض ضرورية، لاختصار مدة البقاء في المطهر. كان شمّاساً لسببين آخرين:في المقام الأول، إصرار أمه، بالرغم من عوائه الدائم في الاحتجاج. في المقام الثاني، كرّمت

فتيات جمعية الاسم المقدس الشمامسة بمأدبة كل عيد ميلاد.

روزا، أحبّكِ!

كانت في الصالة مع فتيات جمعية الاسم المقدس، تزيّن الشجرة لمأدبة الشمامسة. راقب من الباب، يمتّع عينيه بانتصار حسنها الاستثنائي. روزا: ورق مفضّض وألواح شوكولا، رائحة كرة قدم جديدة، عوارض المرمى مع الرايات، الركض إلى القاعدة وتسجيل النقاط. أنا إيطالي أيضاً، روزا. انظري! وعيناي تشبهان عينيك. روزا، أحبك!

مرّت الأخت ماري ايثلبرت.

" تعال، تعال، آرتورو. لا تتسكّع هناك!"

كانت مسؤولة عن الشمامسة. تبع أثوابها السوداء المنسابة إلى" صالة صغيرة" حيث كان بانتظارها سبعون ولداً يشكّلون جسم الطلاب الذكور. اعتلت المنبر وصفقت بيديها كي يصمتوا.

" حسناً أيها الأولاد، خذوا أماكنكم!"

اصطفّوا خمسةً وثلاثين زوجاً. كان قصار القامة يقفون في المقدمة، وطوال القامة في المؤخرة. كان شريك آرتورو: والي أوبرين، الولد الذي يبيع صحيفة Denver Posts أمام المصرف الوطني الأول. كانا على مبعدة خمسة وعشرين صفّاً عن المقدمة، وترتيبهم الصف العاشر من المؤخرة. كره آرتورو هذا، لأنه على مدى ثماني سنوات كان ووالي شريكين، منذ أن كانا في روضة الأطفال. كل سنة وجدا نفسيهما يتراجعان إلى الخلف، ومع ذلك لم يفعلاها يوماً، لم يزدد طولهما بما فيه الكفاية لكي يتراجعا إلى الصفوف الثلاثة الأخيرة حيث يقف الكبار، وحيث صدرت الملاحظات البارعة. هذه كانت سنتهما الأخيرة في هذه المدرسة القذرة، وكانا لا يزالان يحيطان بثلّة من صِبية

في الصفّين السادس والسابع. حجبا ذلّها بقسوة مفرطة وتجديف ظاهري، مروّعين الأولاد من الصف السادس، في احترام رهيب وحاسد على حنكتهما الوحشية.

لكن والي أوبرين كان محظوظاً. فلم يكن لديه إخوة يزعجونه في الطابور. كان على آرتوروكل سنة أن يراقب أخويه أوغست وفدريكو يتقدّمان نحوه من الصفوف الأولى، بفزع متنامٍ. كان فدريكو الآن يبعد عن المقدمة مسافة عشرة صفوف. ارتاح آرتورو لعلمه أن هذا الأصغر بين إخوته لن يتجاوزه في التراصف. لأن آرتورو سيتخرج في شهر حزيران القادم، والحمدلله! سينتهي إلى الأبد من كونه شمّاساً. لكن التهديد الحقيقي كان الرأس الأشقر الذي يتقدّمه، أخاه أوغست. أوغست اشتبه سلفاً بظفره الوشيك. كلما نودي على الصف لينتظم، بدا أنه يقيس قامة آرتورو بتهكّم محتقر. لأن أوغست كان حقّاً يفوقه في الطول بمقدار ثُمن إنش، لكن آرتورو، المتراخي عادة، استطاع دوماً أن يستقيم بما فيه الكفاية ليفلت من رقابة الأخت ماري. كانت عملية مرهقة. كان عليه أن يمدّ عنقه ويمشي على باطن أصابع قدميه، رافعاً كعبيه نصف إنش عن الأرض. في هذه الأثناء أخضع أوغست خضوعاً تاماً، فكلما كانت الأخت ماري ايثلبرت غافلة، ركله بركبته ركلات رائعة.

لم يرتدوا حللاً لكهنوت، لأن هذا كان مجرد تمرين. قادتهم الأخت ماري ايثلبرت من الصالة الصغيرة عبر القاعة، مروراً بالصالة الكبيرة، حيث ألقى آرتورو بنظرة على روزا ترشّ البهرجان على شجرة عيد الميلاد. ركل أوغست وتنهد.

روزا، أنا وأنت: إيطاليان.

هبطوا ثلاثة سلالم من الأدراج وعبروا الباحة نحو الأبواب الرئيسة للكنيسة. كانت أجران الماء المقدس متجمّدة بشدة. جثَوا بانسجام،

يطعن والي أوبرين الأولاد أمامه بأصبعه. تمرّنوا لساعتين، يهمسون بالإجابات اللاتينية، يسجدون، يمشون بتقىً عسكري.Ad deum qui .loctificat,juventutemmeum

انتهوا عند الساعة الخامسة سئمين ومنهكين. رصفتهم الأخت ماري ايثلبرت للمعاينة الأخيرة. تألّمت أصابع قدم آرتورو من حمل وزنه الكامل. ارتاح في كلال على كعبيه. كانت لحظة من طيش دفع ثمنها غالياً. لحظت عين الأخت ماري ايثلبرت المتحمسة حينئذ التواءً في الصف، يبدأ وينتهي عند قمة رأس آرتورو بانديني. قرأ أفكارها، ترتفع أصابعه المتعبة في جهد عبثي. فات الأوان، فات الأوان. أوعزت له ولأخيه أوغست، فتبادلا مكانيهما.

كان شريكه الجديد ولداً يدعى ويلكينز، من الصف الرابع، يرتدي نظارات من السيلوليد ويعبث بأنفه. وقف أوغست خلفه، مكرساً منتصراً، شفتاه تتهكمان بتصلّب، لا ينبس بكلمة. نظر والي أوبرين إلى شريكه السابق في حزن ذليل، لأن والي أيضاً كان مهاناً باقتحام هذا المدّعي من الصف السادس. كانت النهاية بالنسبة لآرتورو. همس بطرف فمه لأوغست.

" أيها القذر"-قال. " انتظر، سأنال منك في الخارج!"

كان آرتورو ينتظر بعد التمرين. التقيا عند الزاوية. سار أوغست بسرعة كما لو أنه لم يرَ أخاه. حثّ آرتورو خطاه.

" لِمَ تسرع يا طويل القامة؟!"

" لست مسرعاً أيها القصير!"

" بلى، أنت تسرع أيها الطويل! وما رأيك بفرك بعض الثلج على وجهك؟"

" لا أحبه، ودعني وشأني أيها القصير!"

" أنا لا أزعجك، يا طويل القامة. أريد فقط أن أرافقك إلى البيت".

" لا تسعَ لأي شيء الآن".

" لن أضع يدي عليك، أيها الطويل. ما الذي يجعلك تظن بأني سأفعل؟"

اقتربا من الزقاق الفاصل بين الكنيسة الميثودية وفندق كولورادو. بمجرد وصولها خلف ذلك الزقاق، كان أوغست آمناً على مرأى المتسكّعين عند واجهة الفندق. قفز قُدُماً مزمعاً الركض، لكن قبضة آرتورو أمسكت بسترته.

" فيمَ العجلة أيها الطويل!؟"

" إذا لمستني، سأنادي الشرطة!"

" أوه، لم أكن لأفعل ذلك!"

مرّت سيارة ببابين تمشي رويداً. تبع تحديقة أخيه المفاجئة فاغراً فاه نحو الراكبين، رجل وامرأة. كانت المرأة تقود والرجل يضع ذراعه على ظهرها.

" انظر!"

لكن آرتورو رأى. شعر برغبة في الضحك. كان أمراً غريباً. تقود إيفي هيلد جاردي السيارة، وكان الرجل سفيفو بانديني.

استنطقك لٌّ من الولدين وجه الآخر. إذاً، كان ذلك هو السبب الذي دعا ماما لطرح كل تلك الأسئلة عن إيفي هيلد جاردي! عمّا إذا كانت إيفي هيلد جاردي حسناء. وما إذا كانت إيفي هيلد جاردي امرأةً سيئة.

رقّ فم آرتورو بالضحك. سرّته الحالة. والده ذاك! سفيفو بانديني! أوه يا ولد-وإيفي هيلد جاردي كانت سيدة رائعة أيضاً!

" هل شاهدانا؟"

كشّر آرتورو: " لا".

" هل أنت واثق؟"

" كان يلفّهابذراعه، أليس كذلك؟"

قطّب أوغست.

" هذا سيّئ. هذا الخروج مع امرأة أخرى. الوصية التاسعة".

انعطفا نحو الزقاق. كان طريقاً مختصراً. هبط الظلام سريعاً. كانت برك الماء حول أقدامهما متجمّدة في الظلمة المتنامية. مشيا، آرتورو يبتسم. كان أوغست عنيفاً.

" إنه إثم. أمي أم رائعة. إنه إثم!"

" اخرس!"

انعطفا من الزقاق عند الشارع الثاني عشر. باعدت حشود المتبضّعين لعيد الميلاد في الحي التجاري بينهما، بين الحين والآخر، لكنهما بقيا معاً، ينتظران أحدهما الآخر، عندما يشق أحدهما طريقه بحرص عبر الحشود. أضيئت مصابيح الشارع.

" ماما المسكينة. إنها أفضل من إيفي هيلد جاردي".

" اخرس!"

" إنهاخطيئة".

" ماذا تعرف عن الأمر؟ اخرس".

" فقط لأن ماما لم تكن ترتدي ثياباً جيدة".

" اخرس أوغست!"

" إنهاخطيئة لا تغتفر!"

" أنت أحمق. أنت صغير جداً. لا تعرف شيئاً".

" أعرف الذنب. ماما لن تفعل ذلك".

كيف وضع والده ذراعه على كتفها. رآها عدة مرات، كانت تشرف على نشاطات الفتيات في احتفال الرابع من تموز في حديقة دار القضاء. رآها تقف على درجات دار القضاء في الصيف الماضي، تلوح بذراعيها، تنادي الفتيات ليجتمعنَ للاستعراض الكبير. تذكّر أسنانها الجميلة، فمها الأحمر، جسدها الممتاز الممتلئ. لقد ترك أصدقاءه ليقف في الظلال ويراقبها تتحدث إلى الفتيات. إيفي هيلد جاردي. أوه يا فتى، كان والده أعجوبة!

وكان مثله مثل أبيه: سيأتي اليوم الذي سيفعل هو وروزا بينيللي الأمر نفسه. روزا، لنركب في السيارة ولنمضِ إلى الريف، روزا، أنت وأنا نحو الريف روزا. أنت تقودين سيارة وسأقبّل، لكن أنت تقودين روزا.

" أراهن أن البلدة برمّتها تعرف"-قال أوغست.

" لم لا؟ أنت مثل الجميع. فقط لأن بابا فقير، فقط لأنه إيطالي".

" إنه ذنب!" قال وهو يركل كتل الثلج المتجمّدة، بوحشية. " لا أهتمّ لما يكون-أو كم هو فقير، أيضاً. إنه ذنب!"

" أنت أبله مغفّل. أنت لا تدرك شيئاً".

لم يُجبه أوغست. سلكا الطريق المختصر على الجسر المحمول فوق النهير. سارا واحداً خلف الآخر مطرقَين، حذرين من حدود الدرب العميق عبر الثلج. مشيا على الجسر المحمول على رؤوس أصابعهما، من عارضة خشبية

إلى أخرى، يقع النهير المتجمد تحتهما بثلاثين قدماً. تحدّث المساء الهادئ إليهما، هامساً عن رجل يركب سيارة في مكان ما في الغسق نفسه، تركب معه امرأة ليست امرأته. نزلا من قمة خط السكة الحديدية، وتبعا الأثر الشاحب الذي صنعاه بنفسيهما طوال ذلك الشتاء في الذهاب والمجيء من وإلى المدرسة، عبر مرعى الآلزي، وشواديف هائلة من البياض على جانبي الدرب، لم تُمَسّ منذ أشهر، عميقة وهاجّة مع مولد المساء. كان البيت يبعد مسافة ربع ميل، فقط شارع واحد خلف أسيجة مرعى الآلزي.

أمضيا هنا في هذا المرعى العظيم شطراً كبيراً من حياتهما. امتدّ من الباحات الخلفية للصفّ الأخير من المنازل في البلدة، اختنقت أشجار الحور المثقلة بالجليد في وقفة الموت للشتاءات الطويلة على جانب واحد، ونهير لم يعد يضحك على الجانب الآخر. كان الرمل الأبيض تحت ذلك الثلج فيما مضى حارّاً جداً ورائعاً بعد السباحة في النهير. كان لكل شجرة ذكرياتها. كل عمود سياج يعادل حلماً، يكتنفه بالإنجاز مع كل ربيع جديد. كان قبر كلابهما وسوزي خلف كومة الحجارة تلك، بين شجرتي الحور الطويلتين تلك، قطة كرهت الكلاب لكنها تمدّدت بجانبهم. برنس دهسته الحافلة، جيري أكل لحماً مسمّماً، بانشو المقاتل، زحف ومات بعد آخر قتال له. هنا قتلا الأفاعي، واصطادا الطيور، وطعنا الضفادع، سلخا فروات رؤوس الهنود، سلبا المصارف، أنهيا الحروب، ومرحا بسلام. لكن، في ذلك الغسق ركب والدهما مع إيفي هيلد جاردي، ولم يكن الشادوف الأبيض الصامت من أرض المرعى سوى مكانللسير على طريق غريب إلى البيت.

" سأقول لها!" قال أوغست.

كان آرتورو يتقدمه بثلاث خطوات. التفت سريعاً. "اهدأ!" قال. " ماما لديها ما يكفيها من المشاكل".

" سأقول لها. ستحرجه".

" أبقِ فمك مغلقاً ولا تخبرها بهذا!"

" هذا يخالف الوصية التاسعة. ماما هي أمّنا، وسأخبرها!"

باعد آرتورو ساقيه وسدّ الدرب. حاول أوغست أن يلتفّ من حوله، الثلج بسماكة قدمين على كلا جانبي الدرب. كان مطرقاً، ووجهه معجون بالقرف والألم.

أمسك آرتورو بطيّات صدر سترته وأوقفه.

" ابقَ هادئاًبهذا الشأن"!

حرّر أوغست نفسه.

" لِمَ عليَّ ذلك؟ إنه والدنا، أليس كذلك؟ لمَ عليه أن يفعل ذلك؟"

" هل تريد لماما أن تمرض؟"

" إذاً، لمَ فعل هو ما فعل؟"

" اخرس! أجب عن سؤالي. هل تريد أن تمرض ماما؟ ستمرض إذا ما سمعت بذلك".

" لن تمرض".

" أعرف بأنها لن تمرض لأنك لن تخبرها".

" سأخبرها!"

هدّد بظاهر يده أوغست بالضرب.

" قلت إنك لن تخبرها!"

ارتعشت شفتا أوغست مثل الهلام.

" سأقول!"

تضيّقت قبضة آرتورو تحت أنفه.

" هل ترى هذا؟ ستنالها إذا قلت!"

لمَ يرغب أوغست بالبوح؟ ماذا في مرافقة والده لامرأة أخرى؟ أيّ فرق يحدثه، مادامت أمه لا تعرف؟ عدا أن هذه ليست امرأة أخرى:تلك كانت إيفي هيلد جاردي، واحدة من أغنى النساء في البلدة. جيدة جداً بالنسبة لوالده، جميلة جداً. لم تكن بجودة أمه-لا: لكن هذين أمران منفصلان.

" تقدّم واضربني. أنا سأقول!"

أقحمت القبضة القاسية في خدّ أوغست. أدار أوغست رأسه بعيداً بازدراء." هيّا اضربني. سأقول!"

" عِدْ بأنك لن تقول، أو سأضرب وجهك!"

" هيّا تقدّمْ، سأقول!" قال بنفاد صبر.

سدّد ذقنه للأمام، جاهزاً لأي ضربة. ما أثار غضب آرتورو. لمَ كان على أوغست أن يكون أحمق إلى هذه الدرجة؟ هو لا يرغب بضربه. استمتع أحياناً بضرب أوغست حقاً، لكن ليس الآن. فتح قبضته وصفق يديه على ردفيه ساخطاً.

" لكن، انظر، أوغست"، جادله". أليس بوسعك أن ترى أنه ما من فائدة من إخبار ماما؟ ألا يمكنك أن ترى بكاءها؟ لاسيما الآن في فترة الميلاد أيضاً. هذا سوف يجرحها. سيجرحها حدّا لجحيم. أنت لا تريد أن تجرح ماما، لا تريد أن تجرح أمك، أليس كذلك؟ هل ترمي أن تقول لي بأنك

ستذهب إلى أمك وتقول شيئاً قد يجرحها كالجحيم؟ ألا ترتكب ذنباً لو فعلت ذلك؟!"

طرفت عينا أوغست الباردتان باقتناعهما. غمر بخار أنفاسه وجه آرتورو وهو يجيب بحدّة: " لكن، ماذا عنه؟ أتصوّر أنه لا يرتكب إثماً، إثماً أسوأ من أي ذنب أقترفه".

صرّ آرتورو على أسنانه. خلع قبعته ورماها على الثلج. تضرّع لأخيه بقبضتيه.

" اللعنة عليكِ! لن تقول!"

" وأنا سأفعل!"

أوقع أوغست أرضاً بضربة واحدة على جانب رأسه الأيسر. ترنّح الولد إلى الوراء، فقدَ توازنه في الثلج، وخبط على ظهره. كان آرتورو فوقه، دُفن الاثنان في الثلج المنفوش تحت أدمة الأرض القاسية. أحاطت يداه بحنجرة أوغست. عصرها بشدّة:

" هل ستقول؟!"

كانت العينان الباردتان على حالهما.

تمدّد بلا حراك. لم يسبق لآرتورو أن عرفه بهذا الشكل من قبل. ما الذي عليه أن يفعله؟ يضربه؟ دون أن يفكّ قبضته عن عنق أوغست، نظر نحو الأشجار التي دفن تحتها كلابه الميتة. قرض شفته وناشد سدىً الغضب في نفسه الذي قد يحمله على أن يضرب.

قال بضعف:" أرجوك، أوغست، لا تقل!"

" سأقول!"

وهكذا تأرجح. بدا أن الدم انصبّ من أنف أخيه في الحال تقريباً. هذا راعه. جلس فوق أوغست، يثبّت بركبتيه ذراعي أوغست. لن يستطيع تحمّل مرأى وجه أوغست. تحت قناع الدم والثلج، ابتسم أوغست بتحدٍّ. يملأ السيل الأحمر ابتسامته.

ركع آرتورو بجانبه. كان يبكي، ينشج ورأسه على صدر أوغست، يحفر الثلج بيديه ويكرّر:

" أرجوك أوغست. أرجوك! يمكنك أن تأخذ كل ما أملك. يمكنك أن تنام على أي جانب تريده من السرير. يمكنك أن تأخذ كل نقود الأفلام!"

كان أوغست صامتاً يبتسم.

اغتاظ ثانية. ضرب مجدداً، يسحق قبضته بتهوّر في العيون الباردة. في الحال ندم على ذلك، يدبّ في الثلج حول الشخص الأعرج الهادئ. نهض أخيراً على قدميه مقهوراً. نفض الثلج عن ثيابه، جذب قبعته للأسفل ورشف يديه ليدفئهما. لا يزال أوغست مستلقياً هناك، والدم لا يزال ينسكب من أنفه، تمدّد أوغست المنتصر مثل ميّت، لا يزال ينزف، مدفوناً في الثلج، عيناه الباردتان تلمعان بنصرهما المطمئن. كان آرتورو متعباً أشدّ التعب. لم يعد يهتمّ.

" حسناً أوغست!"

لا يزال أوغست ممدّداً هناك.

" انهض أوغست!"

دون أن يقبل ذراع آرتورو، دبّ على قدميه. وقف هادئاً في الثلج، يمسح وجهه بمنديل، ينتفش الثلج على شعره الأشقر. مرّت خمس دقائق قبل أن يتوقف النزف. لم يقولا شيئاً. مسّ أوغست وجهه المتورّم برفق. راقبه

آرتورو.

"هل أنت بخير الآن؟"

لم يُجب وهو يخطو في الدرب ويسير نحو صفّ المنازل. تبعه آرتورو واجماً خجلاً: خجلاً ويائساً. لحظ في ضوء القمر أن أوغست يعرج. ومع ذلك لم يكن عرجاً ملحوظاً كرسم ساخر لشخص يعرج، مثل مشية محرجة مؤلمة لمبتدئ أنهى لتوه امتطاءه حصاناً للمرة الأولى. تفحّصه آرتورو عن كثب. أين رأى ذلك من قبل؟ بدا طبيعياً جداً لأوغست. ثم تذكّر: تلك كانت مشية أوغست منذ سنتين لدى خروجه من غرفة النوم، في تلك الصباحات، بعد أن يبلّل السرير.

" أوغست"، قال." إذا قلتَ لماما، سأقول للجميع بأنك تتبوّل في السرير!"

لم يكن ينتظر أكثر من استهزاء، لكنه فوجئ عندما التفت أوغست ورمقه في وجهه مباشرة. كانت نظرة تنمّ عن الشكّ، لطخة من شكّ تعبر العيون التي سبق أن كانت باردة. وثب آرتورو للقتل في الحال، يثيرالنصر الوشيك حواسه.

" نعم، سيدي!" صرخ." سأخبر الجميع. سأخبر العالم أجمع. سأخبر كل ولد في المدرسة. سأرسل مكاتيب لكل ولد في المدرسة. سأخبر كل من أراه. سأقول له وسأقول للبلدة برمّتها. سأخبرهم أن أوغست بانديني يتبوّل في السرير. سأقول لهم!"

" لا!" جفل أوغست." لا، آرتورو!"

صرخ بأعلى صوته:

" نعم سيدي، يا جميع أهل روكلين، كولورادو! استمعوا إلى هذا:

أوغست بانديني يتبول في السرير! إن له من العمر اثني عشر عاماًويتبول في السرير. هل سبق أن سمعتم شيئاً كهذا؟ اسمعوا جميعكم! "

" أرجوك، آرتورو! لا تصرخ. لن أقول. صدقاً لن أفعل، آرتورو. لن أتفوّه بكلمة! فقط لا تصرخ هكذا. أنا لا أتبول في السرير، آرتورو. كنت أفعل، لكن الآن لا".

" عِدْ بأنك لن تقول لماما؟"

بلع أوغست ريقه وهو يرسم إشارة الصليب على قلبه وتمنّى أن يموت.

" حسناً"، قال آرتورو. " حسناً!"

ساعده آرتورو في النهوض، ثم سارا إلى البيت.

الفصل السادس

لا شك في ذلك: كان لغياب بابا فوائده. لو كان في البيت سيحتوي بيض العشاء المخفوق على البصل ولن يحصلوا على الكثير من السكر.

ومع ذلك افتقدوه. كانت ماريا كسولة جداً. هسهست يومياً بخفّها على السجادة، تمشي غلى مهل. كان عليهم أحياناً تكرار الكلام مرّتين حتى تسمعهم. جلست في الأصائل تشرب الشاي، محدّقة في الفنجان. تركت الأطباق دون غسيل. حدث ذات أصيل أمر لا يصدق: ظهرت ذبابة. ذبابة! وفي الشتاء! راقبوها تحوم نحو السقف. بدا أنها تتحرك بصعوبة هائلة، كما لو كانت أجنحتها متجمدة. تسلق فدريكو كرسياً وقتل الذبابة بصحيفة مطوية. وقعت على الأرض. جثوا على ركبهم وعاينوها. أمسكها فدريكو بأصابعه. رمتها ماريا من يده. أمرته أن يذهب إلى المغسلة، وأن يستعمل الماء والصابون. رفض. أمسكته من شعره وجرّته على قدميه: "افعل ما أقوله لك"!

كانوا مذهولين: لم تمسّهم ماما يوماً، لم تخاطبهم يوماً بكلام فظّ. الآن كانت متوانية ثانية، مستغرقة في ملل فنجان الشاي. غسل فدريكو يديه وجفّفهما. ثم أتى على أمر مفاجئ. كان آرتورو وأوغست مقتنعين بوجود خطب ما، لأن فدريكو انحنى وقبّل أمه في أعماق شعرها. بالكاد لحظت ذلك. ابتسمت بذهول. انزلق فدريكو على ركبتيه ودسّ رأسه في حجرها. انزلقت أصابعها في محيط أنفه وشفتيه. لكنهم عرفوا أنها لم تلحظ فدريكو إلا

بالكاد. نهضت دون أن تنبس بكلمة، ونظر فدريكو نحوها مخيّباً وهي تسير نحو الكرسي الهزاز بمحاذاة النافذة في الغرفة الأمامية. هناك بقيت مدة، مرفقها على عتبة النافذة، ذقنها في يدها وهي تراقب الشارع البارد المهجور.

أحوال غريبة. ظلت الأطباق غير مغسولة. ذهبوا أحياناً إلى النوم ولم يكن السرير مرتباً. لم يكن يهمّ لكنهم فكروا في الأمر، وفيها، وهي في الغرفة الأمامية عند النافذة. تمدّدت في الصباحات في السرير ولم تنهض لتراهم وهم ذاهبون إلى المدرسة. ارتدوا ثيابهم فزعين، يتلصّصون عليها من باب غرفة النوم. تمدّدت مثل ميت، المسبحة في يدها. غسلت الأطباق في المطبخ في وقت ما أثناء الليل. فوجئوا وخاب ظنهم ثانية: لأنهم استيقظوا بانتظار أن يروا مطبخاً قذراً. هذا أحدث فرقاً. استمتعوا بتحوّل المطبخ من نظيف إلى قذر. لكن ها هو ذا نظيف ثانية، فطورهم في الفرن. نظروا بداخله قبل أن يغادروا إلى المدرسة. لم تتحرك سوى شفتيها.

أحوال غريبة.

سار آرتورو وأوغست نحو المدرسة.

" تذكّر أوغست، تذكّر وعدك!"

" ها. ليس عليَّ أن أقول. هي تعرف سلفاً".

" لا، هي لا تعرف".

" إذاً، لِمَ تتصرّف بهذه الطريقة؟"

" لأنها تفكر في الأمر، لكنها لا تعرف حقاً".

" الأمر سيّان".

" لا ليس سيّان".

أحوال غريبة. عيد الميلاد قادم، تغصّ البلدة بأشجار عيد الميلاد، ورجال بابا نويل من جيش الخلاص يقرعون الأجراس. بقي على عيد الميلاد ثلاثة أيام للتسوق. وقفا بعيون ضربها القحط أمام واجهات العرض. تنهّدا وتابعا السير. تشاركا الأفكار: سيكون عيد ميلاد سيّئ، وآرتورو كرهه، لأنه كان بوسعه أن ينسى فقره لو لم يذكّروه به: كل عيد ميلاد كان مشابهاً وتعيساً دوماً، دوماً يرغب بأشياء لم يسبق أن فكّر بها أبداً وامتلاكها محرّم. يكذبون على الأولاد دوماً: قائلين لهم بأنهم سيحصلون على أشياء لن يمكنهم يوماً امتلاكها. كان عيد الميلاد يوماً للأولاد الأغنياء. استطاعوا أن ينشروه وكان عليه أن يصدّقهم.

فصل الشتاء، زمن الوقوف حول المشعاعات في غرف المعاطف، فقط الوقوف هناك ورواية الأكاذيب. آه للربيع! آه لطقطقة الهراوات، لسعة كرة على راحات الأيدي الناعمة! فصل الشتاء، عيد الميلاد، زمن الأولاد الأغنياء: لديهم جزم عالية الساق ولفاعات لمّاعة وقفازات بحوافّ من الفراء. لكن هذا لم يقلقه كثيراً. كان زمنه فصل الربيع. ما من جزم عالية الساق أولفاعات مزينة على أرض الملعب! لا يمكنك الوصول إلى القاعدة الأولى لأنك ترتدي ربطة عنق بديعة. لكنه شارك الآخرين كذبهم. ما الذي سيحصل عليه في عيد الميلاد؟ أوه ساعة جديدة، بذلة جديدة، كثير من القمصان وربطات العنق، دراجة جديدة، وكثير من كرات البيسبول الخاصة بالفرق الوطنية الرسمية.

لكن ماذا عن روزا؟

أحبّك، روزا. كان لها عذرها. كانت فقيرة أيضاً، ابنة عامل منجم، لكنهم تجمّعوا حولها وأصغوا إلى حديثها، ولم يهمّ، وغبطها وكان فخوراً بها، متسائلاً عمّا إذا كان هؤلاء الذين يصغون اهتموا لكونه إيطالياً أيضاً مثل

روزا بينيللي.

تحدّثي إلي روزا! انظري إلى هذا النحو مرة واحدة فقط، هنا روزا، حيث أشاهد. كان عليه أن يهديها هدية في عيد الميلاد، وذرع الشوارع واسترق النظر عبرالواجهات واشترى لها مجوهرات وفساتين. على الرحب والسعة روزا. وها هنا خاتم اشتريته لك. دعيني أضعه في إصبعك. هناك. أوه، إنه لا شيء روزا. كنت أمشي في شارع بيرل وصادفت متجر شيري للمجوهرات، دخلت واشتريته. غالي الثمن؟ لا. ثلاثمائة، كل شيء. لدي كثير من المال روزا. ألم تسمعي عن أبي؟ نحن أغنياء. أورثناعمّ والدي في إيطاليا كل شيء. صادفنا أناساً رائعين هناك. لم نعرف بالأمر، لكن اكتشفنا بأن صلة قرابة كانت تربطنا بدوق أبروتزي. على صلة بعيدة بملك إيطاليا. لا يهم مع ذلك. لطالما أحببتك روزا، ولن يحدث أي فرق مجرد أن يكون لي أصول ملكية مصادفة.

أحوال غريبة. ذات ليلة وصل إلى البيت في وقت مبكر عن العادة. وجد المنزل فارغاً، الباب الخلفي مفتوح على مصراعيه. نادى أمه لكن لم يحظَ بردّ. ثم لحظ أن الموقدين مطفأين. بحث في كل غرف المنزل. كان معطف أمه وقبعتها في غرفة النوم. إذاً، أين يمكن أن تكون؟

دخل إلى الفناء الخلفي وناداها.

" ماما! أوه، ماما! أين أنت؟"

عاد إلى المنزل وأوقد النار في الغرفة الأمامية. أين يمكن أن تكون دون قبعتها ومعطفها في هذا الطقس؟ اللعنة على أبيه! هزّ قبضته نحو قبعة أبيه المعلّقة في المطبخ. اللعنة عليك، لِمَ لا تعود إلى البيت! انظر ماذا تفعل بأمي! حلّت الظلمة فجأة وكان مرعوباً. شمّ في مكان ما في ذلك المنزل البارد رائحة

أمه، في كل غرفة، لكنها لم تكن هناك. عاد إلى الباب الخلفي ونادى مجدّداً.

" ماما! أوه، ماما! أين أنت؟"

انطفأت النار. لم يعد هناك المزيد من الفحم أوالحطب. كان مسروراً. هذا منحه عذراًلمغادرة المنزل وجلب المزيد من الوقود. أمسك بدلو الفحم وانطلق في الدرب.

وجد أمه في سقيفة الفحم جالسة في ظلمة الزاوية، على لوح الملاط. قفز عندما رآها، كانت الظلمة حالكة ووجهها شاحب للغاية، خدر من البرد، جلست في فستانها الرقيق تحدّق في وجهه لا تنبس بكلمة، أمه متجمدة في الزاوية مثل امرأة ميتة. جلست بعيداً عن كومة الفحم الهزيلة في المكان الذي يضع فيه بانديني أدوات البناء، الأسمنت وأكياس الكلس. فرك عينيه لينزع عنهما نور الثلج المبهر، وقع دلو الفحم إلى جانبه وهوينظر شزراً ويراقبها بوضوح متدرّج، أمه جالسة على لوح الملاط في ظلمة سقيفة الفحم. هل كانت مجنونة؟ وماذا كان تحمل في يدها؟

" ماما!"استدعاها" ماذا تفعلين هنا؟"

لا جواب، لكن انفتحت يدها ورأى ما كان: مالج، أداة بنَّاء، أداة والده.استحوذ عليه صخب واحتجاج جسده وعقله. أمه في ظلمة سقيفة الفحم مع مالج أبيه. كان اقتحام حميمية مشهد يخصه وحده. لم يكن لأمه حقٌّ في هذا المكان. كان كما لو أنها اكتشفته هناك، يقترف خطيئة ولد، ذلك المكان، بالضبط حيث جلس في تلك الأوقات، وكانت هناك، تغيظه بذكرياته وكرهه، هي هناك، تمسك بمالج أبيه. ما الفائدة من ذلك؟ لم كان عليها الذهاب لتذكّر نفسها به، تعبث بثيابه، تمسّ كرسيّه؟ أوه، لقد رآها مرات كثيرة-تنظر إلى مكانه الفارغ إلى الطاولة، والآن، كانت هنا، تمسك

بهاجه في سقيفة الفحم، تتجمد حتى الموت ولا تهتم، مثل ميتة. غاضباً ركل دلو الفحم وراح يصرخ.

" ماما!"ناشدها". ماذا تفعلين! لم أنت هنا؟ ستموتين هنا، ماما! أنت متجمدة!"

نهضت وترنّحت نحو الباب بيدين شاحبتين ممدودتين أمامها، الوجه دمغه البرد، انسحب الدم منه وهي تمشي وراءه، إلى حلكة المساء الجزئية. لم يعرف كم أمضت هناك من وقت، ربما ساعة، أو أكثر، لكنه عرف أنها لا بد تكاد تموت من شدة البرد. دخلت دائخة، تحدّق هنا وهناك كما لو أنها لا تعرف هذا المكان من قبل.

ملأ دلو الفحم. كانت السقيفة تعبق برائحة الجير والأسمنت. تدلّى من إحدى روافد السقف رداء باندينى السروالي. اختطفته وشقّته اثنين. لم يكن هناك بأس من ذهابك مع إيفي هيلد جاردي، لقد أعجبه ذلك كثيراً، لكن لِمَ على أمه أن تعاني إلى هذا الحد، وتجعله يعاني؟ كره أمه أيضاً، كانت حمقاء، تقتل نفسها متعمدة، غير مهتمة لأمرهم، هو وأوغست وفدريكو. كانوا جميعاً حمقى. كان هو الشخص الوحيد الذي يفهم في العائلة جمعاء.

عندما عاد إلى المنزل كانت ماريا في السرير. تمدّدت بكامل كسوتها ترتجف تحت الأغطية. نظر إليها وكشّر معبراً عن نفاد الصبر. حسناً، كان خطأها: لماذا أرادت أن تخرج بتلك الطريقة؟ ومع ذلك شعر بأن عليه أن يكون عطوفاً.

" هل أنت بخير ماما؟"

"دعني وشأني"! قالت بفمها المرتجف". فقط دعني وشأني آرتورو".

" هل تريدين مطرة الماء الحار؟"

لم تجب. نظرت بطرف عينيها إليه سريعاً غاضبة. كانت نظرة عدّها نظرة كراهية، كما لو أنها أرادت أن يكون بعيداً عن مرمى نظرها إلى الأبد، كما لو كان بوسعه أن يفعل شيئاً إزاء الأمر برمته. صفر متفاجئاً: يا إلهي كانت أمه امرأة غريبة، كانت تأخذ هذا على محمل الجد أكثر مما ينبغي.

غادر غرفة النوم على رؤوس أصابعه، غير خائف منها، بل مما قد يثيره حضوره فيها. بعد أن عاد أوغست وفدريكو إلى البيت، نهضت وأعدّت لهم العشاء: بيض مسلوق، خبز، بطاطا مقلية، وتفاحة لكل واحد منهم. لم تمسّ الطعام. وجدوها بعد العشاء في المكان نفسه، النافذة الأمامية، تحدّق إلى الشارع الأبيض، مسبحتها تطقطق أمام الكرسي الهزاز.

أوقات غريبة. كان مساء مكوناً فقط من حياة وتنفس. جلسوا حول الموقد وانتظروا حدوث شيء. زحف فدريكو إلى كرسيّها ووضع يده على ركبتها. هزّت رأسها مواصِلة الصلاة، مثل منوَّم. كانت طريقتها لتطلب من فدريكو عدم مقاطعتها، أو عدم مسّها، أن يدعها وشأنها.

كانت صباح اليوم التالي كسابق عهدها، حنونة ومبتسمة أثناء الفطور. كان البيض محضّراً "على طريقة ماما"، طريقة خاصة، الصفار يغطيه البياض. وهلّا نظرت إليها! شعرها مسرّح بإحكام، عيناها واسعتان وبراقتان. عندما ألقى فدريكو ملعقته الثالثة من السكر في فنجان قهوته، احتجّت بقسوة زائفة: "ليس بتلك الطريقة فدريكو! دعني أريك!"

أفرغت الفنجان في الحوض.

"إذا أردت فنجان قهوة حلو المذاق، سأعطيك إياه". وضعت طبق السكر بدلاً من فنجان قهوة فدريكو في الصحن. كانت السلطانية نصف ممتلئة بالسكر. ملأتها بالقهوة حتى ضحك أوغست، ولو أنه كان عليه أن

يعترف باحتمال اقتراف ذنب التبذير في هذا.

تذوّقه فدريكو مرتاباً.

" رائع"، قال" لكن لم يبقَ مكان للقشدة".

ضحكت، ممسكة بحنجرتها، وكانوا مسرورين لرؤيتها سعيدة، لكنها ظلت تضحك وتبتعد بكرسيّها وتنحني ضاحكة. لم يكن مضحكاً إلى هذه الدرجة، لا يمكن أن يكون. راقبوها ببؤس، لم ينتهِ ضحكها حتى عندما حدّقت بها وجوههم الشاحبة. رأوا عينيها مليئتين بالدموع، احمرّ وجهها. نهضت، إحدى يديها على فمها، وترنّحت نحو المغسلة. شربت كأساً من الماء حتى بقبق في حنجرتها ولم تتمكن من المتابعة، وأخيراً ترنحت نحو غرفة النوم وتمددت على السرير، حيث ضحكت. الآن عادت إلى هدوئها.

غادروا الطاولة وتطلّعوا إليها على السرير. كانت متصلّبة، عيناها مثل أزرار في لعبة، تنصبّ ماسورة بخار من فمها اللاهث نحو الهواء البارد.

" اذهبوا أيها الأولاد إلى المدرسة!" قال آرتورو" أنا سأبقى في البيت".

بعد أن غادرا، ذهب إلى جانب السرير.

" هل يمكن أن أجلب لك شيئاً ماما؟"

" اذهب آرتورو، دعني وشأني".

" هل يجب أن أتصل بالطبيب هاستينجز؟"

" لا، دعني وشأني. اذهب، اذهب إلى المدرسة، ستتأخر".

" هل يجب أن أجد بابا؟"

" لا تتجاسر!"

فجأة بدا هذا هو الأمر المناسب فعله.

" أنا ذاهب"، قال" هذا تماماً ما سأفعله". أسرع وارتدى معطفه.

"آرتورو!"

خرجت من السرير كالقطّة. عندما التفت في حجرة الملابس، كانت إحدى ذراعيه داخل سترة، لهث لرؤيته إياها بجانبه بسرعة." لا تذهب إلى أبيك! سمعتني-لا تجرؤ"! انحنت مقتربة جداً من وجهه حتى أن رذاذ ريق حار من شفتيها بلّله. تراجعت نحو الزاوية وأدارت ظهره، خائفاً منها، خائفاً حتى من النظر إليها. بقوة أذهلته، أمسكته من كتفه وهزّته:

" لقد رأيته أليس كذلك؟ هو وتلك المرأة".

" أي امرأة؟" انتفض مبتعداً وأحدث ضجة بقميصه. أفلتت يديه وأمسكت به من كتفيه، تنشب أظافرها في اللحم.

" آرتورو، انظر إلي! لقد رأيته، أليس كذلك؟"

"لا".

لكنه ابتسم، ليس لأنه تمنى أن يعذبها، لكن لأنه خال بأنه نجح في الكذب. ابتسم بسرعة كبيرة. فمها مغلق ووجهها لطّفته الهزيمة. ابتسمت بوهن، كارهة أن تعرف ومع ذلك مسرورة على نحو غامض أنه حاول أن يخفي عنها الأنباء.

" أرى"، قالت." أرى".

" لا ترين شيئاً، أنت تتحدثين بجنون".

" متى رأيته، آرتورو؟"

" قلت لك بأني لم أره".

استقامت وأعادت أكتافها إلى الخلف.

" اذهب إلى المدرسة، آرتورو. أنا بخير هنا. لا أحتاج إلى أحد".

مع ذلك ظل في البيت، يتجول حول المنزل، مزوّداً المواقد بالوقود، ينظر بين الحين والآخر في غرفتها، حيث استلقت كعهدها، عيناها اللامعتان تتفحصان السقف، خرزاتها تجلجل. لم تطلب منه الذهاب إلى المدرسة مجدداً، وشعر بأن وجوده مفيد إلى حد ما، لأنها كانت مرتاحة له. بعد فترة أخرج نسخة من مجلة الجرائم المرعبة Horror Crimes من مخبئه تحت الأرض، وجلس يقرأ في المطبخ، قدمه على جذمور خشب في الموقد.

لطالما أراد أن تكون أمه حسناء، جميلة. تملّكته الآن هذه الفكرة، ترشح خلف صفحات Horror Crimes وتشكّل نفسها على هيئة بؤس المرأة الممددة على السرير. وضع المجلة جانباً وجلس يقضم شفته. كانت أمه جميلة منذ ستة عشر عاماً، لأنه رأى صورتها. يا لتلك الصورة! مرات كثيرة، يعود إلى البيت من المدرسة ليجد أمه ضجرة وقلقة وليست جميلة، فيذهب إلى الصندوق ويخرجها–صورة فتاة بعينين واسعتين ترتدي قبّعة عريضة، تبتسم بأسنان كثيرة صغيرة، جمال فتاة واقفة تحت شجرة تفاح في باحة الجدة توسكانا الخلفية. أوه ماما، لأقبّلك حينذاك! أوه ماما، لِمَ تغيّرتِ؟

فجأة أراد أن ينظر إلى تلك الصورة ثانية. وضع الكتاب وفتح باب الغرفة الفارغة بجوار المطبخ، حيث حقيبة أمه مخبأة. أقفل الباب من الداخل. ها، ولمَ فعل ذلك؟ فتحه. كانت الغرفة مثل الثلاجة. عبر نحو النافذة حيث كانت الحقيبة. ثم عاد وأقفل الباب ثانية. بغموض شعر أن ليس عليه فعل ذلك، ولكن لِمَ لا: ألا يمكنه حتى أن ينظر إلى صورة أمه دون أن يشعر بأن

الشيطان يغويه؟ حسناً لنفترض أنها لم تكن صورة أمه، حقاً: معتاد على ذلك، إذاً، ما الفرق؟

وجد الصورة تحت طبقات من البياضات والستائر التي كانت أمه تحتفظ بها، حتى "نحصل على منزل أفضل"، تحت الشرائط وثياب الأطفال التي ارتداها هو وأخواه. آه يا رجل! رفعها عالياً وحدّق في إعجاز ذلك الوجه الجميل: هنا كانت الأم التي لطالما حلم بها، هذه الفتاة، لا تتجاوز العشرين من العمر، عرف عينيها تشبهان عينيه. ليس تلك المرأة الضجرة في غرفة أخرى من المنزل، هي بوجه معذّب هزيل، اليدان بعظامهما الطويلة. لو تعرفها حينذاك، أن تتذكر كل شيء من البداية، أن تشعر بمهد ذلك الرحم الجميل، أن تعيش متذكراً منذ البداية، ومع ذلك لم يتذكر شيئاً من ذلك الزمن، ودوماً كانت كما هي الآن، ضجرة بذلك الحزن الأليم، عينان عظيمتان، شخص آخر، الفم أكثر نعومة كما لو من بكاء كثير. تتبّع بإصبعه خط وجهها مقبّلاً إياه، يغني ويدمدم عن ماض لم يعرفه أبداً.

وهو يضع الصورة جانباً، وقعت عينه على شيء في زاوية الحقيبة. كان صندوق مجوهرات صغير من مخمل أرجواني. لم يره من قبل. فاجأه حضوره، لأنه تفحّص الحقيبة عدة مرات. فتح الصندوق الأرجواني الصغير عندما ضغط على القفل النابضي. يستكين بداخله في مربض حريري جوهرة سوداء على سلسلة ذهبية. الكتابة المغشّاة على بطاقة تحت الحرير قالت له ما كان: "لماريا، لمرور سنة على الزواج. سفيفو".

عمل عقله بسرعة وهو يدسّ الصندوق الصغير في جيبه وأقفل الحقيبة. روزا، ميلاد مجيد. هدية صغيرة. اشتريتها، روزا. كنت أوفّر من أجلها لوقت طويل. من أجلك روزا.. ميلاد مجيد!

كان ينتظر روزا عند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، واقفاً

عند نافورة المياه في القاعة. كان آخر يوم من أيام الدراسة قبل عطلة عيد الميلاد. عرف أن روزا تأتي دوماً إلى المدرسة في وقت مبكر. هوعادة يكاد لا يلحق الجرس الأخير، يركض آخر شارعين نحو المدرسة. كان واثقاً من أن الراهبات اللواتي عبرن نظرن إليه بشكّ، بالرغم من ابتساماتهن اللطيفة وتمنّياتهن له بميلاد مجيد. في جيب معطفه الأيمن شعر بالأهمية المكنونة لهديته لروزا.

بدأ الأولاد بالوصول عند الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة: الفتيات بالتأكيد، لكن ليس روزا. راقب الساعة الرقمية على الجدار. الثامنة والنصف، ولم تأتِ روزا. قطّب باستياء: مضت نصف ساعة كاملة في المدرسة، ومن أجل ماذا؟ لا شيء.انقضت الأخت سيليا، عينها الزجاجية أكثر لمعاناً من الأخرى، إلى الأسفل من مساكن الرهبان. تراه هناك على قدم واحدة، آرتورو الذي كان دوماً متأخراً، نظرت إلى ساعة يدها.

" يا إلهي، هل توقفت ساعتي ؟"

تفحّصت الساعة الرقمية على الجدار.

" ألم تذهب إلى البيت ليلة البارحة آرتورو؟"

" بالتأكيد أخت سيليا".

" هل تعني أنك وصلت قبل نصف ساعة هذا الصباح عن قصد؟"

" جئت لأدرس. متأخّر في مادة الجبر".

ابتسمت مرتابة:" وعطلة عيد الميلاد تبدأ غداً؟"

" هذا صحيح".

لكنها تعرف أن هذا ليس صحيحاً.

" ميلاد مجيد، آرتورو!"

" ولك أيضاً أخت سيليا!"

التاسعة إلا ثلثاً ولم تأتِ روزا. بدا الجميع يحدّقون به، حتى أخواه، اللذان فغرا فاهيهما كما لو أنه كان في المدرسة الخاطئة، البلدة الخطأ.

" انظر مَن هنا!"

" اذهب، أيها الغلام!" انحنى ليشرب بعض الماء المثلج.

عند الساعة التاسعة إلا عشر دقائق فتح الباب الرئيس. كانت هناك، قبّعة حمراء، معطف من وبر الجمل، حذاء عال بسحاب، أضاء وجهها، بل جسدها كله، بلهب صباح شتائيّ بارد. تقدمت أقرب وأقرب، انثنى ذراعاها بجمال حول حزمة كتب كبيرة. أومأت هنا وهناك لأصدقاء، ابتسامتها مثل لحن في تلك القاعة: روزا، رئيسة فتيات الاسم المقدس، حبيبة الجميع تقترب وتقترب في حذاء مطاطي صغير رفرف بفرح، كما لو أنه أحبها أيضاً.

أحكم قبضته حول صندوق المجوهرات. هدر تدفّق مفاجئ من الدم عبر حنجرته. تمركزت نظرة عينيها الجارفة المرحة للحظة سريعة على وجهه المعذّب الطرب، انفتح فمه، عيناه تنتفخان وهو يبتلع إثارته.

كان أبكم.

" روزا..... أنا.... هنا.."

تبعته تحديقتها. أصبح التجهّم ابتسامة عندما هرعت زميلة واقتحمت طريقها. مشتا نحو غرفة المعاطف، تثرثران بانفعال. غرق صدره. جبان. انحنى وازدرد ماء مثلجاً. جبان. بصق الماء، كارهاً إياه، فمه كله يتألم. جبان.

أمضى الصباح يكتب ملاحظات إلى روزا، ويمزّقها. طلبت الأخت

سيليا من الصف قراءة رواية "الرجل الحكيم الآخر" لفان ديكي. جلس هناك ملولاً، عقله معتاد على الكتابات السليمة الموجودة في الأدب الرخيص.

لكن عندما جاء دور روزا في القراءة أصغى إليها وهي تلفظ بنوع من التوقير. فقط حينئذ كان لقامة فان ديكي أهميتها. عرف أنه كان إثماً، لكن لم يكن يحترم بالتأكيد قصة ميلاد الطفل يسوع، الهرب إلى مصر، ورواية الطفل في المذود. لكن مجرى التفكير هذا كان إثماً.

تبعها خلال ساعة الظهيرة، لكنها لم تكن يوماً وحيدة، دوماً مع أصدقاء. عندما نظرت من فوق أكتاف فتاة، لدى وقوفها مع جمع منهن في حلقة، ورأته، كما لو مع سبق علم بأنه يتبعها. استسلم حينئذ خجلاً، وتظاهر بأنه يتبختر في القاعة. رنّ الجرس وبدأ صف مابعد الظهر. في حين تحدثت الأخت سيليا بغموض عن ولادة العذراء، كتب المزيد من المكاتيب إلى روزا، ممزقاً إياها، وكتب سواها. الآن أدرك بأنه لم يكن أهلاً لمهمة تقديم الهدية لها شخصياً. قد يقوم شخص آخر بذلك. كان المكتوب الذي أرضاه:

عزيزتي روزا

ههنا ميلاد مجيد

احزري من

آلمته معرفته بأنها لن تقبل الهدية، إذا ما عرفت الخط. أعاد كتابتها بصبر أخرق بيده اليسرى، يخربش بها بخطّ أخرق ووحشيّ. لكن من سيرسل الهدية؟ تفحّص وجوه التلاميذ من حوله. أدرك أن أياً منهم لن يحفظ السر. حل المسألة برفع إصبعين. بإحسان عذب يتميز به موسم عيد الميلاد، أومأت الأخت سيليا بموافقتها له أن يغادر الغرفة. مشى في الممر الجانبي على رؤوس أصابعه نحو غرفة المعاطف.

لقد تعرف إلى معطف روزا في الحال، لأنه كان خبيراً به، لمسه واشتمّه في مناسبات مشابهة. دسّ المكتوب داخل الصندوق ورمى الصندوق داخل جيب المعطف. عانق المعطف، مستنشقاً العطر. وجد في جيب جانبي زوجاً من قفازات للأولاد. كانا ممزّقين، في الأصابع الصغيرة ثقوب. عجباً أيتهاالثقوب الصغيرة الظريفة! قبّلها بحنان. عزيزتي الثقوب الصغيرة في الأصابعّ أيتها الثقوب الصغيرة الحلوة، لا تبكي، أيتها الثقوب اللطيفة، كوني شجاعة وأبقي أصابعها دافئة، أصابعها الصغيرة البارعة!

عاد إلى غرفة الصف، عبر الممر الجانبي نحو مقعده، عيناه بعيدتان عن روزا قدر الإمكان، لأنه يجب ألا تعرف أو أنها ستشكّ به.

عندما رنّ جرس الانصراف، كان أول الخارجين من الأبواب الكبيرة الرئيسة، يركض في الشارع. الليلة سيعرف إذا اهتمت معرفة باتة، لأن الليلة كانت ليلة مأدبة جمعية الاسم المقدس للأولاد الشمامسة. عابراً في البلدة، أبقى عينيه مفتوحتين باحثاً عن أبيه، لكن تيقّظه لم يجد نفعاً. عرف أن عليه أن يبقى في المدرسة لتمرين الشمامسة، لكن ذلك الواجب أصبح لا يطاق، وأخوه أوغست خلفه، والولد الذي إلى جانبه، شريكه، قزم بائس من الصف الرابع.

بوصوله إلى البيت كان مذهولاً لمرأى شجرة عيد ميلاد أنيقة صغيرة، منصوبة في زاوية بمحاذاة النافذة في الغرفة الأمامية. كانت أمه ترشف الشاي في المطبخ غير مكترثة.

" لا أعرف من كان"، قالت." الرجل في الشاحنة".

" أيُّ نوع من الرجال، ماما؟"

" رجل".

" أي نوع من الشاحنات؟"

" مجرد شاحنة".

" ماذا مكتوب على الشاحنة؟"

" لا أعرف، لم ألق بالاً".

عرف بأنها تكذب. كرهها لتقبّلها المعذّب لمأزقهم. كان عليها أن ترمي الشجرة في وجه الرجل. صدقة! ماذا كانوا يظنون بعائلته-فقيرة؟ شكّ بعائلة بليدسو المجاورة: السيدة بليدسو، التي لن تدع أولادها داني وفيليب يلعبان مع ذلك الولد بانديني، لأنه كان: (1) إيطالياً، (2) كاثوليكياً، و(3) قائداً سيّئاً لعصابة من الهمج يرمون القمامة على شرفتها الرئيسة كل عيد هالوين.

حسناً، ألم ترسل داني بسلّة عيد الشكر في العيد الماضي، عندما لم يكونوا بحاجة إليها؟أوَلم يأمر بانديني داني أن يعيدها؟

" هل كانت شاحنة جيش الخلاص؟"

" لا أعرف".

" هل كان الرجل يرتدي قبعة جندي؟"

" لا أتذكر".

" ألم تكن لجيش الخلاص؟ أراهن أن السيدة بليدسو قد دعتهم!"

" وماذا في ذلك؟"خرج صوتها من بين أسنانها." أريد أن يرى والدك هذه الشجرة. أريده أن ينظر إليها ويرى ماذا فعل بنا. حتى الجيران يعرفون بالأمر. آه، عار، عار عليه!"

" فليذهب الجيران إلى الجحيم!"

تقدّم نحو الشجرة بقبضتين مطويتين بعدائية. " إلى الجحيم بالجيران"! كانت الشجرة بطوله تقريباً، خمسة أقدام. هرع نحو هيكلها الجمَلونيّ الشائك واقتلع الأغصان. كانت تقاوم بمرونة نضرة، تنحني وتتصدّع، لكن لا تنكسر. عندما شوّهها حتى اكتفى، رماها في ثلج الباحة الأمامية. أمه لم تحتجّ، محدّقة دوماً في كوب الشاي، عيناها الداكنتان تتأملان.

" آمل أن ترى عائلة بليدسو ذلك!" قال. " هذا سيعلمهم".

" الله سيعاقبه"، قالت ماريا. " سيدفع ثمن هذا".

لكنه كان يفكّر بروزا، وبماذا سيرتدي في مأدبة الشمامسة. لطالما تشاجر هو وأوغست ووالده حول ربطة العنق الرمادية المفضلة، يصرّ باندايني على أنها لم تكن تلائم الأولاد، فيجيب هو وأوغست بأنها لا تناسب رجلاًمسنّاً. ومع ذلك بطريقة ما ظلت دوماً"ربطة عنق البابا"، لأنها كانت تمنح شعوراً بالأب الجيد، على مقدمتها بقع نبيذ باهتة ورائحة سيجار توسكانيللي الغامضة. أحب تلك الربطة، ودوماً استقبحها، إذ كان عليه أن يرتديها مباشرة بعد أوغست، لأن خاصية والده الغامضة حينئذ كانت، بطريقة ما، تغيب عنها. أحبّ مناديل أبيه أيضاً. كانت أكبر بكثير من مناديله، وكان فيها نعومة وليونة، لأن أمه غسلتها وكوتها مرات عدة، وفيها شعور غامض أن أمه وأباه معاً في الوقت نفسه. كانت بخلاف ربطة العنق، التي كانت أبوية خالصة، وعندما استعمل واحداً من مناديل أبيه جاءه شعور خافت بأبيه وأمه معاً، جزء من صورة، من مجموعة أمور.

وقف أمام المرآة وقتاً طويلاًفي غرفته يتحدث إلى روزا، يتدرّب على عرفانه لها بالجميل. الآن كان واثقاً من أن الهدية ستفشي سرّ حبّه تلقائياً. الطريقة التي نظر بها إليها ذلك الصباح، ولحاقه بها عند الظهيرة-ستؤلّف بلا شك تلك التمهيدات مع الجوهرة. كان مسروراً. أراد أن تكون مشاعره

في المتناول. تخيّل قولها "أعرف أنها منك، منذ البداية، آرتورو"! واقفاً إلى المرآة أجاب:" أوه حسناً، روزا، أنت تعرفين كيف يكون، رجل يحب أن يقدم لفتاته هدية عيد الميلاد"!

عندما وصل أخواه إلى البيت عند الساعة الرابعة والنصف كان مرتدياً ملابسه، لم يكن لديه بذلة كاملة، لكن ماريا دوماً كبست سرواله" الجديد" ومعطفه "الجديد" بإتقان. لم يتلاءما لكنهما كانا متقاربين للغاية، البنطال من نسيج صوفيٌّ أزرق والمعطف رماديّ داكن.

أحاله التبدل في ملابسه "الجديدة" إلى صورة إحباط وبؤس، عندما جلس في الكرسي الهزّاز، يداه مطويتان في حجره. كان الأمر الوحيد الذي يفعله عندما يرتدي ملابسه "الجديدة"، وهو دوماً يفعله على نحو سيّئ، ببساطة، أن يجلس وينتظر المدة حتى النهاية. الآن لديه أربع ساعات من الانتظار قبل أن تبدأ المأدبة، لكن كان هناك بعض العزاء في حقيقة أنه لن يأكل البيض تلك الليلة على الأقل.

عندما أطلق أوغست وفدريكو وابلاً من الأسئلة عن شجرة عيد الميلاد المحطّمة في الباحة الأمامية، بدت ملابسه "الجديدة" أضيق من المعتاد. كان الليل سيزداد دفئاً وصفاء، لذا لبس سترة واحدة فوق معطفه الرمادي بدلاً من اثنتين، وغادر مسروراً في أن يكون بعيداً عن كآبة البيت.

شعر بسكينة نصر وشيك وهو سائر في الشارع في ذلك العالم المظلّل بالأبيض والأسود: ابتسامة روزا الليلة، هديته تلف عنقها وهي تنتظر الشامسة في الصالة، ابتساماتها له، وله وحده.

آه يا لها من ليلة!

تحدث إلى نفسه وهو يسير، يستنشق هواء جبلياًواهياً، يتمايل في مجد ما

ملكت يمينه، روزا فتاتي، روزا من أجلي وليست لأحد آخر. أزعجه أمر واحد فقط على نحو غامض: كان جائعاً، لكن فراغ معدته تبدد بفيض فرحه. كانت ولائم خدمة الكاهن تلك، وقد حضر سبعاً منها في حياته، مآثر سامية في الطعام. كلهارأها أمامه، صحون ضخمة من الدجاج المقلي والديك الرومي، كعكة محلاة حارّة، بطاطس حلوة، صلصة التوت البري، وكل ما بوسعه أن يأكله من آيس كريم الشوكولا، وخلف كل ذلك روزا وحجر كريم يلف عنقها، هديته، تبتسم وهو يأكل بنهم، تخدمه بعينين سوداوين برّاقتين وأسنان ناصعة البياض، كانت جيدة بما فيه الكفاية للأكل.

يا لها من ليلة! انحنى وأمسك الثلج الأبيض، تاركاً إياه يذوب في فمه، يسيل السائل البارد في حلقه. لقد فعل هذا مرات عدة، يرشف الثلج الحلو ويستمتع بأثره البارد في حلقه.

كان تجاوب بطنه مع السائل البارد في معدته الفارغة خرخرة خفيفة في مكان ما وسطه وترتفع نحو منطقة القلب. كان يعبر الجسر المحمول، وسطه تماماً، عندما ذاب كل شيء أمام عينيه فجأة في الظلمة. فقدت قدماه كل استجابة حسّية. خرجت أنفاسه في نفضات مسعورة. وجد نفسه مسطّحاً على ظهره. انهار بارتخاء. طرق قلبه عميقاً في صدره بالحركة. أمسكه بكلتا يديه، يقبض الرعب عليه. كان يموت: أوه يا إلهي، كان سيموت! بدا الجسر نفسه يهتزّ بعنف خفقان قلبه.

لكن، مرّت خمس ثوان، عشر، عشرين ثانية وكان لا يزال حياً. لا يزال رعب تلك اللحظة يكوي قلبه. ما الذي حدث؟ لماذا سقط؟ نهض وأسرع على الجسر المحمول، يرتجف خوفاً. ما الذي فعله؟ لقد كان قلبه، عرف أن قلبه توقف عن الخفقان وعاد ثانية-لكن لماذا؟

Mea culpa, mea culpa, mea maxima culpa ! اتضح العالم

الغامض من حوله، وكان وحيداً على السكة الحديدية، مسرعاً إلى الشارع حيث مشى الرجال والنساء، حيث لم يكن موحشاً جداً، مثل خناجر ثاقبة خطر له وهو يركض أنه كان تحذيراً إلهياً، تلك كانت وسيلة لإخباره أن الله على علم بجريمته: هو، اللصّ، سارق جوهرة أمه، مذنب أمام الوصايا العشر. لصّ، لصّ، طريد الله، طفل جحيم مع وصمة سوداء على كتاب روحه.

ربما يحدث ثانية. الآن، بعد خمس دقائق. عشر دقائق. السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة، أنا آسف! لم يعد يركض، بل مشى بنشاط يكاد يجري خائفاً من فرط هياج قلبه. وداعاً لروزا ولأفكار الحب! وداعاً ووداعاً! ومرحباً بالأسف والندامة!

آه، يا لذكاء الله! آه، كم كان الربّ طيباً معه، مانحاً إياه فرصة أخرى، محذّراً إياه ومع ذلك لم يقتله. انظر! أنظر كيف أمشي. أنا أتنفس. أنا حيّ. أمشي إلى الله. روحي سوداء. سوف يطهّر الله روحي. هو طيب معي. قدماي تمسّان الأرض، واحد اثنان، واحد اثنان. سأخبر الأب أندرو. سأقول له كل شيء.

رنّ الجرس على جدار كرسي الاعتراف. ظهر الأب أندرو بعد خمس دقائق من باب الكنيسة الجانبي. رفع الكاهن الطويل القامة نصف الأصلع حاجبيه متفاجئاً، إذ وجد شخصاً واحداً فقط في تلك الكنيسة المزينة لعيد الميلاد-وذلك الوحيد، الولد، عيناه مغلقتان بإحكام، وفكّاه أحدثا صريراً، شفتاه تتمتمان صلاة. ابتسم الكاهن، وأزال مسواكاً من فمه، أحنى ركبته ومشى نحو المعترف. فتح آرتورو عينيه ورآه يتقدم مثل شيء جميل أسود، وكان في حضوره عزاء، ودفء في ردائه الأسود.

" ماذا الآن آرتورو؟" قال همساً وكان ذلك مستحباً. وضع يده على

كتف آرتورو. كانت مثل لمسة إلهية. تلاشى التياعه تحتها.استثير في أعماقه غموض السلام الوليد، على عمق عشرة ملايين ميل في داخله.

" عليّ أن أعترف، يا أبتِ!"

" بالتأكيد، آرتورو!"

سوَّى الأب آندرو وشاحه ودخل باب المعترف. تبعه جاثياً في مقصورة التائب، يفصله الحجاب الخشبي عن الكاهن. قال له بعد الشعائر المتبعة: " البارحة يا أبت آندرو، كنت أنقّب في صندوق أمي، ووجدت جوهرة بسلسلة ذهبية، وسرقتها أبتِ. وضعتها في جيبي، وهي ليست لي، إنها لأمي، أبي قدّمها لها ولابد أنها كانت ثمينة جداً، لكنّي سرقتها بأية حال، واليوم أعطيتها لفتاة في مدرستنا. قدّمت متاعاً مسروقاً هدية عيد الميلاد".

" هل قلت إنها كانت ثمينة؟" سأل الكاهن.

" بدت كذلك"، أجاب.

" كم ثمنها آرتورو؟"

" بدت ثمينة جداً، يا أبت. أنا آسف للغاية، يا أبت. لن أسرق ثانية طوال حياتي!"

" أقول لك، آرتورو"، قال الكاهن. " سأمنحك المغفرة إذا ما وعدتني أن تذهب إلى أمك وتقول لها إنك سرقت الجوهرة. قل لها ما قلتَه لي تماماً. إذا ثمّنتها وأرادت أن تعيدها، عليك أن تعدني بأنك ستسترجعها من الفتاة، وتعيدها إلى أمك. الآن إذا لم يكن بوسعك فعل ذلك، عليك أن تعدني بأنك ستشتري لأمك واحدة. أليس هذا عادلاً آرتورو؟ أظن أن الله سيقبل بأن تحصل على نصيب منصف".

" سأعيدها. سأحاول!"

نكس رأسه بينما كان الكاهن يهمس كلمات المغفرة باللاتينية. هذا كان كل شيء. سهل مثل فطيرة. غادر المعترف وجثا في الكنيسة، يداه تضغطان على قلبه الذي كان نبضه مسموعاً. لقد أُنقذ. كان عالماً رائعاً في النهاية. جثا لوقت طويل، يستمتع بعذوبة النجاة. كانارفيقين، وهو والله، وكان الله رفيقاً جيداً. لكنه لم يخاطر. صلى لساعتين كل صلاة يعرفها حتى دقت الساعة الثامنة. كان كل شيء يأتي ممتازاً. كانت نصيحة الكاهن سهلة. سيخبر أمه الليلة بعد المأدبة بالحقيقة-بأنه سرق جوهرتها وأعطاها لروزا. ستحتجّ أولاً، لكن احتجاجها لن يدوم طويلاً. عرف أمه، وكيف تكون الأشياء معها.

عبر ملعب المدرسة وصعد الدرج نحو الصالة. كانت روزا أول من رآه في الردهة. مشت نحوه مباشرة.

" أريد أن أتحدث إليك"، قالت.

" بالتأكيد، روزا".

تبعها على الدرج، خائفاً من أن شيئاً رهيباً كان على وشك الحدوث. انتظرته عند أسفل الدرج ليفتح الباب، فكّها مغلق، معطفها المصنوع من وبر الجمل ملفوف حولها بإحكام.

" أنا جائع بالتأكيد"، قال.

" حقاً؟" كان صوتها بارداً ومتكبراً.

وقفا على الدرج عند الباب، عند حافة المنصة الإسمنتية. رفعت يدها.

" هاك"، قالت". لا أريد هذه!"

كانت الجوهرة.

" لا يمكنني أن أقبل شيئاً مسروقاً"! قالت." تقول أمي بأنك ربما سرقتها".

" لم أفعل!" صرخ". لم أفعل!"

" خذها!" قالت". لا أريدها!"

وضعها في جيبه. التفتت دون كلمة لتدخل المبنى.

" لكن، روزا!"

عند الباب التفتت وابتسمت بعذوبة:

" عليك ألا تسرق، آرتورو!"

" لم أسرق!" وثب نحوها، جرّها من العتبة ودفعها.استندت على حافة المنصة وسقطت على الثلج، بعد أن تهادت ولوّحت بذراعيها في جهد عقيم لتستعيد توازنها. عندما استقرّت أطلقت صرخة من فمها الفاغر على اتساعه.

" أنا لست لصاً!" قال وهو ينظر إليها تحته.

قفز من المنصة إلى الرصيف وأسرع بأقصى ما استطاع من سرعة. نظر عند الزاوية إلى الجوهرة للحظة، ثم قذفها بكل قوته على سطح منزل من طابقين محاذٍ للشارع. ثم تابع سيره ثانية. إلى الجحيم بمأدبة الشهامسة! لم يكن جائعاً بأية حال.

الفصل السابع

كان سفيفو بانديني عائداً إلى البيت عشية عيد الميلاد. ينتعل حذاءً جديداً، الاستخفاف مرسوم على فكِّه، مذنب في قرارة قلبه. حذاء ممتاز، بانديني، من أين حصلت عليه؟ لا شأن لك. كان يملك المال في جيبه. عصره بقبضته. من أين حصلت على ذلك المال، بانديني؟ من لعب البوكر. كنت ألعب طوال عشرة أيام.

حقاً!

لكن تلك كانت قصّته، وماذا في الأمر إذا لم تصدّق زوجته؟ سحق الثلج بحذائه الأسود، وقطعه بكعبيه الجديدين الحادين.

كانوا بانتظاره: عرفوا بقدومه بشكل من الأشكال. كان المنزل نفسه يشعر بذلك. كانت الأمور على ما يرام. ماريا إلى النافذة تسبِّح بسرعة كبيرة، كما لو أن الوقت يداهمها: عدّة صلوات أخرى قبل وصوله.

ميلاد مجيد! فتح الأولاد هداياهم. حصل كل واحد على هدية. بيجامات من الجدة توسكانا. جلسوا في بيجاماتهم-ينتظرون. ماذا؟ كان الترقب جيداً: شيء ما كان على وشك الحدوث. بيجامات زرقاء وخضراء. اضطروا لارتدائها، فلم يكن هناك ما يفعلونه. لكن شيئاً ما كان على وشك الحدوث. كان رائعاً في صمت الانتظار أن تفكر بأن بابا عائد إلى البيت وتتكتم على معرفتك.

كان على فدريكو أن يفسده.

" أراهن أن بابا عائد إلى البيت الليلة!"

كان فكّاً للسحر. فكرة تخصّ كل واحد منهم. صمت. ندم فدريكو على كلماته وتناهى إلى التساؤل عن السبب الذي منعهم من الإجابة.

وقع خطوات على الشرفة. يمكن لجميع الرجال والنساء على وجه الأرض صعود ذلك الدرج، ومع ذلك ما من أحد يمكن أن يصدر صوتاً مثل ذلك. نظروا إلى ماريا. حبست أنفاسها، وأسرعت تتلو صلاة أخرى. فتح الباب ودخل. أغلق الباب بحذر، كما لو أن الحياة بأكملها أُنفقت في تعلّم إغلاق الأبواب بمهارة.

" مرحباً!"

لم يكن ولداً ألقي القبض عليه وهو يسرق الكرات الزجاجية، ولا كلباً عوقب لأنه مزّق فردة حذاء. بل كان سفيفو بانديني، رجل ناضج تماماً له زوجة وثلاثة أبناء.

" أين ماما"؟ قال، وهو ينظر نحوها مباشرة، مثل ثمل أراد إثبات أن بوسعه طرح سؤال رصين. رآها في الزاوية، في مكان جلوسها الذي يعرفه، فقد هلع لمرأى انعكاس صورتها من الشارع.

" آه، ها هي!"

أكرهك، فكَّرت. أردت أن أفقأ عينيك بأصابعي وأعميك. أنت وحش، لقد آذيتني ولن أرتاح حتى أؤذيك.

بابا بحذاء جديد. أصدر صريراً بخطواته كما لو أن فأراً صغيراًيجري بداخله. عبر الغرفة إلى الحمّام. صوت غريب-بابا الكبير في البيت ثانية.

أتمنى أن تموت. لن تمسّني ثانية! أكرهك! يا إلهي، ماذا فعلت بي؟ يا زوجي، أكرهك كثيراً!

عاد ووقف وسط الغرفة، مديراً ظهره لزوجته. أخرج النقود من جيبه وقال لأبنائه: " أخال أن نذهب جميعاً إلى مركزالمدينة قبل أن تغلق المتاجر أبوابها، أنتم وأنا وماما، جميعنا، نذهب ونشتري بعض هدايا عيد الميلاد للجميع!"

" أريد دراجة هوائية!" قال فدريكو.

" بالتأكيد، ستحصل على دراجة هوائية!"

لم يعرف آرتورو ماذا يريد، وكذلك أوغست. تلوّى الشر بداخل بانديني، لكنه ابتسم وقال بأنهم سيجدون شيئاً للجميع. عيد ميلاد كبير. أكبر الأعياد.

يمكنني أن أرى تلك المرأة الأخرى بين ذراعيه، يمكنني أن أشمّ رائحتها في ملابسه، شفتاها وقد طافتا على وجهه، يداها وقد جسّتا صدره. إنه يقرفني، وأنا أريده أن يتألم حتى الموت.

" وماذا سنجلب لماما؟"

التفت وطالعها، عيناه على المال وهو يبسط لفافة الأوراق النقدية.

" انظروا إلى كل هذه النقود! من الأفضل أن نعطيها جميعاً لماما، ها؟ باباكسب جميع النقود من لعب الورق. بابا لاعب ورق جيد!"

رفع عينيه ونظر إليها، تتشبّث بجانبَي الكرسي، كما لو أنها على وشك القفز نحوه، وأدرك أنه خائف منها، وابتسم، لا تفكّها لكن خوفاً، يوهن الشر الذي ارتكبه من شجاعته. فرد المال على شكل مروحة: كانت أوراقاً

من خمسات وعشرات ومئات أيضاً، ومثل محكوم ذاهب إلى عقوبته أبقى الابتسامة السخيفة على شفتيه وهو ينحني ليناولها الأوراق، محاولاً أن يفكر بالكلمات القديمة، كلماتهما، هو وهي، لغتهما. تشبّثت بالكرسي في رعب مجبرة نفسها على عدم التراجع عن أفعى المعصية التي تلفّ نفسها على هيئة وجهه الشنيع. انحنى مقترباً أكثر، لا يبعد سوى بضعة إنشات عن شعرها، سخيف للغاية في إصلاحاته، حتى لم تعد تحتمله، لم يعد بوسعها الامتناع عنه. وبغتة، بحركةٍ فاجأتها هي أيضاً، كانت أصابعها العشرة الطويلة على عينيه، تمزّق، قوة حارقة في أصابعها العشرة الطويلة أراقت خطوطاً من الدم على وجهه، عندما صرخ وتراجع، تجمعت القطرات الحمراء المنهمرة بسرعة على مقدّمة قميصه، وعنقه وياقته. لكن كانت عيناه، يا إلهي عيني، عيني!تراجع مغطّياً إياهما بيديه المجوفتين، واقفاً أمام الجدار، وجهه يتبخّر ألماً، خائفاً أن يرفع يديه، خائفاً من أن يكون قد فقد بصره.

" ماريا"، نشج. " يا إلهي، ماذا فعلت بي؟!"

يمكنه أن يرى، رأى بغير وضوح من خلال غشاوة حمراء، وترنّح في المكان.

" آه ماريا، ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟!"

ترنّح حول الغرفة. سمع بكاء أطفاله، كلمات آرتورو: " أوه يا إلهي!" دار ودار مترنّحاً، دم ودموع في عينيه.

" يا يسوع المسيح، ما الذي حدث لي؟"

رست عند قدميه الأوراق النقدية الخضراء، وترنّح بينها وفوقها بحذائه الجديد، لطخت قطرات صغيرة حمراء مقدمة الحذاء اللماع الأسود، يدور ويدور متأوّهاً ويتحسّس طريقه إلى الباب ويخرج نحو الليل البارد، متوغلاً

نحو كومة الثلج في الباحة، لا يكفّ عن التأوه، يداه الكبيرتان تغرفان الثلج كالماء وتضغطانه على وجهه الملتهب. تساقط الثلج الأبيض مراراً وتكراراً من يديه على الأرض، أحمر ومشبعاً بالماء. وقف أبناؤه في المنزل متحجّرين، في بيجاماتهم الجديدة، الباب الأمامي مفتوح، الضوء وسط الغرفة يعمي فرجتهم على سفيفو بانديني وهو يلطخ وجهه ببياض السماء. جلست ماريا في الكرسي. لم تتحرك وهي تحدق بالدم والمال المتناثرفي أنحاء الغرفة.

عليها اللعنة، فكّر آرتورو. عليها اللعنة وإلى الجحيم.

كان يبكي، مجروحاً من هوان والده، والده ذلك الرجل الشديد الصلابة والقوي دوماً، وقد رآه يتخبّط جريحاً ويبكي، والده الذي لم يبكِ أبداً ولم يهُن. أراد أن يكون مع أبيه، فانتعل حذاءه وأسرع إلى الخارج، حيث كان بانديني منحنياً، يتلجلج ويرتجف. لكن كان من الجيد أن يسمع شيئاً آخر عدا صوت تلجلجه–أن يسمع غضبه وشتائمه. تحمّس عندما سمع أبيه يتعهد بالانتقام. سأقتلها، والله، سأقتلها. كان يمسك بزمام نفسه الآن. أوقف الثلج تدفّق الدم. وقف يلهث، يتفحص ملابسه المدماة، يداه مبقعّتان بلون قرمزي.

" على شخص ما أن يدفع ثمن هذا"، قال".-Sangue de la Madon na! لن يُنسى".

" بابا–"،

" ماذا تريد؟"

" لا شيء".

" إذاً، ادخل البيت. ادخل هناك حيث أمك المجنونة تلك!"

هذا كان كل شيء. شقّ طريقه في الثلج نحو الرصيف، ومشى في الشارع بخطوات واسعة. راقبه الولد يذهب، وجهه مرفوع عالياً نحو الليل.

كانت تلك طريقته في المشي، يتعثر بالرغم من تصميمه. لكن لا-عاد بعد بضعة أقدام: "ميلادكم مجيد أيها الأولاد! خذوا ذلك المال واذهبوا واشتروا ما تريدون!"

ومضى ثانية، ذقنه بارز، ينزلق في الهواء البارد، تحت وطأة جرح عميق لم يكن نازفاً.

عاد الولد إلى المنزل. لم يكن المال على الأرض. رمق فدريكو، الذي غصّ بمرارة وهو يمسك قطعة ممزقة من ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات بنظرة، وروى له ما حدث. فتح الموقد. جذوات الورق المحروق السود دخّنت على نحو باهت. أغلق الموقد وتفحّص الأرض، التي لم تحمل سوى بقع الدم الجافة. حدق بأمه بكراهية. لم تتحرك ولم يرفّ لها جفن، لكنها كانت تتمتم بشفتيها، لأنها تابعت صلاتها.

" ميلاد مجيد!" تهكّم.

ناح فدريكو. كان أوغست أيضاً مصعوقاً للغاية فلم يقدر على الكلام.

نعم: ميلاد مجيد. آه، أعطه لها بابا! أنت وأنا، بابا، لأني أشعر بك، لأنه حدث لي أيضاً، لكن كان عليك أن تفعل مثلما فعلت، بابا، توقعها مثلما فعلت، وستشعر بتحسّن. لأنك تقتلني، بابا، أنت ووجهك الدامي تمشي وحدك هنا وهناك، أنت تقتلني.

خرج وجلس في الشرفة. كان الليل زاخراً بأبيه. رأى البقع الحمراء في الثلج حيث تخبّط بانديني وانحنى ليرفعه نحو وجهه. دم أبي، دمي. خرج من الشرفة وركل الثلج النظيف فوق المكان حتى اختفى. يجب ألا يراه أحد: لا أحد. ثم عاد إلى المنزل.

لم تكن أمه قد تحركت. كم كرهها! بقبضة واحدة انتزع المسبحة من يديها

وقطعها إرباً. راقبته، كشهيدة. نهضت وتبعته إلى الخارج، المسبحة المقطوعة في قبضته. رماها في الثلج بعيداً، ناثراً إياها مثل بذار. مشت خلفه في الثلج.

بدهشة راقبها وهي تخوض في الثلج الأبيض حتى ركبتيها، تحدق في المكان كما لو أنها دائخة. وجدت خرزة هنا وخرزة هناك، تحمل بيدها حفنات الثلج. هذا أقرفه. كانت تنبش البقعة نفسها التي اصطبغ ثلجها بدم أبيه.

فلتذهب إلى الجحيم! كان مغادراً. أراد والده. ارتدى ثيابه ومشى في الشارع. ميلاد مجيد. كانت البلدة مطليّة باللونين الأخضر والأبيض. مئة دولار في الموقد-لكن ماذا عنه وعن إخوته؟ يمكنك أن تكوني تقيّة وراسخة في الدين، لكن لِمَ يجب أن يتعذبوا جميعاً؟ كان بداخل أمه الكثير من الله.

إلى أين الآن؟ لم يكن يعرف، لكن ليس إلى البيت بصحبتها. يمكنه أن يفهم والده. رجل وجب عليه أن يفعل شيئاً: ألّا يملك قطّ شيئاً شديد الرتابة. كان عليه أن يقرّ بذلك: إذا كان له أن يختار بين ماريا وإيفي هيلد جاردي، ستفوز إيفي في كل مرة. عندما تبلغ النساء الإيطاليات عمراًمعيّناً تنحل سيقانهن، وتتسع بطونهن، تتدلى نهودهن ويفقدن البريق. حاول أن يتخيل روزا بينيللي في الأربعين من عمرها. سترقّ ساقاها مثل سيقان أمه، سيكون لها بطن سمينة. لكنه لم يتمكن من تخيّل ذلك. روزا تلك، جميلة جداً! تمنّى أن تموت بدلاً من ذلك.

تصوّر مرضاً يميتها فيقام لها مأتم. هذا قد يسعده. قد يذهب إلى سرير موتها ويقف عنده. بوهن، ستمسك يده بأصابعها الحارة وتقول له بأنها ستموت، وقد يجيب: سيّئ جداً روزا، هذه قسمتك لكن سأتذكّرك دوماً روزا! ثم الجنازة، البكاء، وتوارى روزا الثرى. لكنه سيكون بارداً إزاء ذلك كله، واقفاً هناك مبتسماً قليلاً بأحلامهاالكبيرة. بعد سنوات في

ملعب فريق اليانكيز، فوق صراخ الجماهير سيتذكّر فتاة تحتضر أمسكت يده ورَجته الغفران، لن يتريّث سوى بضع ثوان عند تلك الذكرى، ثم سيتحوّل نحوالنساء بين الجماهير ويومئ. نساؤه، ما من إيطالية بينهن، سيكنّ شقراوات، طويلات القامة ومبتسمات، الكثير منهن، مثل إيفي هيلد جاردي ولسن إيطاليات على الإطلاق.

لذا أعطه لها، بابا! أنا لك، يا أيها الولد الكبير. يوماً ما سأفعل هذا أيضاً، سأكون تماماً هناك ذات يوم مع حبيبة مثلها، ولن تكون من النوع الذي يخدش وجهي، ولن تكون من النوع الذي يناديني باللص الصغير.

ومع ذلك، كيف يعرف أن روزا لم تكن تحتضر؟ بالتأكيد هي تحتضر، تماماً مثلما يقترب الجميع من القبررويداً رويداً. لكن فقط افترض، لما يثير هذا الأمر من دهشة، أن روزا حقاً كانت تحتضر! ماذا عن صديقه جو تانر؟ قُتل السنة الماضية وهو يركب الدراجة، ذات يوم كان حيّاً، في اليوم التالي لم يكن. وماذا عن نيللي فرازير؟ حجر صغير في فردة حذائها، لم تخرجه، تسمُّم دموي، وفجأة ماتت وحضروا الجنازة.

كيف يعرف أن روزا لم يدهسهاالترام منذ أن رآها تلك المرة الأخيرة الرهيبة؟ كان الاحتمال ممكناً. كيف يعرف أنها لم تمت بالصدمة الكهربائية؟ هذا يحدث كثيراً. لم لا يحدث معها؟ بالتأكيد هو حقاً لم يرغب بموتها، لم يأمل حقاً في قرارة قلبه أن تموت، لكن مع ذلك كان هناك مجال لحدوثه. روزا المسكينة، شابة جداً وجميلة–وميتة.

كان يتجول وسط البلدة، لاشيء هناك سوى أناس يهرعون بالأكياس. كان أمام شركة ويلكس للأجهزة، يحدّق نحو بسطة الرياضة. بدأت تثلج. نظر إلى الجبال. كانت مبقّعة بغيوم سوداء. واستحوذعليه هاجس غريب: روزا بينيللي ميتة. كان متأكداً من أنها ميتة. كل ما كان عليه فعله هو أن يقطع

ثلاثة شوارع نحو شارع بيرل، وشارعين شرقاً نحو الشارع الثاني عشر وسيتحقق من الأمر. سيمشي إلى هناك، وعند الباب الأمامي لمنزل بينيللي سيكون إكليل زهر رمزاً لمأتم. كان واثقاً جداً من ذلك لأنه مشى في ذلك الاتجاه من فوره. روزا ميتة. كان نبيّاً، بالنسبة لتفهّم أشياء غريبة. وهكذا حدث أخيراً: ما تمنّاه أصبح حقيقة، وقد رحلت.

حسناً، حسناً، عالم مضحك. رفع عينيه إلى السماء، نحوالملايين من ندف الثلج المنهمرة على الأرض. نهاية روزا بينيللي. تحدّث جهاراً، مخاطباً مستمعين وهميين. كنت واقفاً أمام ويلكس للأجهزة، وفجأة وردني ذلك الخاطر. ثم مشيت نحو منزلها، وواثقاً بما فيه الكفاية، كان هناك إكليل زهر على الباب. فتاة جميلة، روزا. بالتأكيد كره أن يراها تموت. هرع الآن، الهاجس يضعف، وحثّ خطاه، يعجل كي يجعله يصمد مدة أطول. كان يبكي: أوه روزا، أرجوك لا تموتي، روزا. كوني حيّة عندما أصل! ها أنا قادم روزا، يا حبيبتي. على الطريق من ملعب اليانكيز في طائرة خاصة. هبطت تماماً على مرج دار الحكومة-كاد يقتل هناك ثلاثمئة شخص وهم يراقبونني. لكني فعلتها، روزا. وصلت إلى هناك بخير، وها أنا هنا إلى جانبك، تماماً في الوقت المناسب، والطبيب يقول بأنك حية الآن، وعليَّ أن أذهب، وألا أعود أبداً. عائد إلى اليانكيز، روزا. إلى فلوريدا، روزا. تدريب الربيع. اليانكيز يحتاجونني أيضاً، لكنك ستعرفين أين أنا، روزا. فقط اقرئي الصحف وستعرفين.

لم يكن هناك إكليل زهور لجنازة على باب بينيللي. ما رآه هناك بدلاً من ذلك، ولهث مرعوباً إلى أن اتضحت رؤيته عبر الثلج المبهر، كان إكليل زهور عيد الميلاد.انشرح صدره، وحثّ الخطا في العاصفة. بالتأكيد أنا مسرور! من يرغب برؤية ميت؟ لكنه لم يكن مسروراً على الإطلاق. لم يكن نجماً في

اليانكيز. لم يأت على متن طائرة خاصة. لم يكن ذاهباً إلى فلوريدا. تلك كانت عشية عيد الميلاد في روكلين، كولورادو. كانت تثلج كالشيطان، وكان أبوه يعيش مع امرأة اسمها إيفي هيلد جاردي. كان وجه أبيه ممزّقاً بأصابع أمه، عند تلك اللحظة عرف أن أمه كانت تصلّي، أخواه يبكيان، والجمرات في موقد الغرفة الأمامية سبق أن كانت مئة دولار.

ميلاد مجيد، آرتورو!

الفصل الثامن

طريق موحش ضيّق ومتضائل في طرف روكلين الغربي، يسدّه الثلج المنهمر. يتساقط الثلج بغزارة الآن. يزحف الطريق صاعداً نحو الغرب، طريق شاهق والجبال من خلفه. الثلج! إنه يخنق العالم، وها هو هناك قدماً فارغ باهت، ليس سوى الطريق الرفيع الذي سرعان ما يتضاءل. طريق مراوغ، حافل بالتعرجات المفاجئة، وينحدرمتملّصاً من شجرات الصنوبر القزمة الواقفة بأذرعهاالبيضاء التائقة للإمساك به.

ماريا، ماذا فعلت بسفيفو بانديني؟ ماذا فعلت بوجهي؟

يمضي رجل مربوع القامة متعثّراً، يغطّي الثلج أكتافه وأذرعه. الطريق شاهق في هذه البقعة، رجل يشقّ طريقه، ينسحب الثلج العميق عند ساقيه، يخوض في الماء الذي لم يذب.

إلى أين الآن بانديني؟

اندفع على هذه الطريق منذ فترة قصيرة لا تتجاوز خمساً وأربعين دقيقة، موقناً أنه لن يعود ثانية، وكان الله شاهداً عليه. خمس وأربعون دقيقة، أقل من ساعة، وقد حدث فيها الكثير، وكان عائداً على طريق كان يأمل نسيانها.

ماريا، ماذا فعلت؟

يحجب وجه سفيفو بانديني منديل مخضب بالدم، كما يحجب الشتاء الحانق سفيفو بانديني وهو يصعد الطريق عائداً إلى منزل الأرملة هيلد

جاردي، متحدثاً إلى ندف الثلج أثناء صعوده. إذاً، قل لندف الثلج، باندينى، قل لهم ملوّحاً بيديك الباردتين. نشج باندينى -رجل ناضج، اثنان وأربعون سنة، يبكي لأنها كانت عشية عيد الميلاد وكان عائداً إلى المعصية، لأنه يفضّل أن يكون مع أطفاله.

ماريا، ما الذي فعلته؟

ماريا، جرى الأمر على هذا الشكل: أرسلت أمك تلك الرسالة منذ عشرة أيام، غضبتُ وغادرت المنزل، لأني لا أطيقها. عليَّ الذهاب عندما تأتي. وهذا ما حدث. واجهت الكثير من المشاكل، ماريا. الأولاد. المنزل. الثلج: انظري إلى الثلج الليلة، ماريا. هل بوسعي بناء لبنة واحدة؟ وأنا مهموم، وأمك قادمة، وأقول لنفسي: أظن أني سأذهب إلى وسط البلدة وأشرب بضعة كؤوس. لأني واجهت مشاكل. لأن عندي أولاد. آه ماريا.

ذهب إلى قاعة الإمبريال للبلياردو وسط المدينة، والتقى هناك بصديقه روكو ساتشوني، وقال روكو إن عليهما الذهاب إلى غرفته ليشربا كأساً، يدخنان السيجار، ويتحدثان. هو وروكو صديقان قديمان: رجلان في غرفة مليئة بدخان السيجار يشربان الويسكي في يوم بارد، يتحدثان. موسم عيد الميلاد: بعض المشاريب. ميلاد مجيد، سفيفو.Gratia ، روكو. عيد ميلاد سعيد.

نظر روكو إلى وجه صديقه وسأله عما يكدّره، فأخبره باندينى: لا يوجد مال، روكو، الأولاد وموسم العيد. وحماته عليها اللعنة. كان روكو رجلاً فقيراً أيضاً، ليس في مثل فقر باندينى، مع ذلك، وأعطاه عشرة دولارات. كيف يمكن لباندينيْ أن يقبلها؟ لقد اقترض الكثير من صديقه، والآن هذا. لا شكراً، روكو. أنا أشرب على حسابك، وهذا يكفي. وهكذا، a la salute ! نخب الأيام الخالية.

مشروب ثم آخر، رجلان في غرفة وأقدامهما على المشعاع الحار جداً. ثم رن جرس فوق باب غرفة روكو. مرة ثم أخرى: الهاتف. قفز روكو وهرع نحو القاعة إلى الهاتف. عاد بعد حين، وجهه بهيج ومنفرج الأسارير. يتلقى روكو كثيراً من الاتصالات في الفندق، لأنه نشر إعلاناً في صحيفة روكلين هيرالد Rocklin Herald

روكو ساتشوني، بنّاء بالطوب ومعمار. جميع أنواع أعمال الترميم. متخصص في أعمال الأسمنت.اتصل بفندق ر. م.

وإليكما كان، ماريا. اتصلت امرأة تدعى هيلد جاردي، بروكو، وقالت له إن موقدها معطل. هلّا أتى روكو لإصلاحه في الحال؟ روكو، صديقه.

" اذهب أنت سفيفو!" قال." ربما يمكنك الحصول على بعض النقود قبل عيد الميلاد".

وتلك كانت البداية. غادر الفندق حاملاًعلى ظهره كيس عدّة روكو، عبر البلدة إلى الطرف الغربي، وسلك هذاالطريق نفسه في أصيل متأخر قبل عشرة أيام. صاعداً هذا الطريق نفسه، وتذكّر سنجاباً برياً يقف تحت تلك الشجرة هناك، يراقبه وهو يمر. بضعة دولارات لإصلاح الموقد، ربما عمل ثلاث ساعات، ربما أكثر-بضعة دولارات.

الأرملة هيلد جاردي؟ بالتأكيد يعرفها، ولكن من ذا الذي لا يعرفها في روكلين؟ بلدة تسكنها عشرة آلاف نسمة، وامرأة تملك معظم الأراضي-مَن مِن بين هؤلاء العشرة آلاف يمكنه أن يتدارك معرفتها؟ لكن من ذا الذي لم يعرفها البتة بما فيه الكفاية ليلقي عليها التحية؟ وتلك كانت الحقيقة.

على هذا الطريق نفسه، منذ عشرة أيام، يحمل قليلاً من الأسمنت وزِنة سبعين باونداً من أداوت البناء على ظهره. تلك كانت المرة الأولى التي رأى

فيها كوخ هيلد جاردي، مكان شهير نواحي روكلين بسبب بنائه الحجري الممتاز للغاية. وافاه في الأصيل المتأخر، بدا ذلك المنزل الخفيض المبني من بلاط أبيض منتصباً بين أشجار الصنوبر السامقة مكاناً منبثقاً من أحلامه: لا يقاوم، من النوع الذي قد يملكه ذات يوم، لو استطاع أن يمتلك ثمنه. وقف يحدق به طويلاً، متمنيا لو كان لهيد في إنشائه، بهجة البنَّاء، في معالجة تلك الأحجار الطويلة البيضاء، البالغة النعومة تحت يدي البنّاء، ومع ذلك قوية إلى حد أنها قد تصمدأطول من حضارة.

ما الذي قد يفكر الرجل به، عندما يقترب من باب مثل هذا المنزل الأبيض ويتناول المقرعة الملمّعة النحاسية التي لها شكل رأس ثعلب؟

مخطئة، ماريا.

لم يسبق له أن تحدث أبداً إلى المرأة حتى اللحظة التي فتحت فيها الباب. امرأة تفوقه طولاً، ضخمة وممتلئة. نعم: امرأة حسناء. ليست مثل ماريا، لكن مع ذلك حسناء. شعرها داكن، وعيناها زرقاوان، امرأة بدا عليها الثراء.

أفصح كيس عدّته عنه. إذاً، كان روكو ساتشوني، البنّاء. كيف حالك؟

لا، لكنه صديق روكو. روكو مريض.

لا يهم مادام بوسعه إصلاح الموقد. ادخل سيد بانديني، الموقد هناك. وهكذا دخل، قبعته في يده، كيس العدة في اليد الأخرى. منزل جميل، سجاد هندي يفترش الأرض، روافد عريضة عبر السقف، الأشغال الخشبية مطلية بالورنيش الأصفر اللماع. ربما يقدّر بعشرين وحتى ثلاثين ألف دولار.

هناك أشياء لا يمكن للرجل أن يخبر بها زوجته. هل ستفهم ماريا اندفاعة المهانة تلك عند عبوره الغرفة الفارهة، الحرج عندما ترنح لما انزلق حذاؤه البالي المبلل بالثلج على الأرض الصفراء الصقيلة؟ هل يمكنه أن يخبر

ماريا بأن امرأة جذابة شعرت بشفقة مفاجئة نحوه؟ هذا كان حقيقياً: حتى لو أنه كان يدير ظهره، شعر بحرج الأرملة السريع من أجله، من أجل غرابته الخرقاء.

" زلقة إلى حد ما، أليست كذلك؟"

ضحكت الأرملة: " أنا أتعثر دوماً!"

لكن ذلك كان لمساعدته على إخفاء حرجه. أمر صغير، كياسة تشعره بالأريحية.

لم يكن في الموقد عطل خطير، بعض القرميد المقلقل في بطانة المدخنة، أمر ساعة من العمل. لكن هناك خدع في المهنة، والأرملة ثرية. استقام بعد الفحص، قال لها إن العمل سيكلف خمسة عشر دولاراً، وبضمن ذلك سعر المواد. لم تعترض. ثم خطرت له فكرة تالية مقزّزة: أن حال حذائه كان مبعث تساهلها: لقد رأت النعلين المستهلكين عندما جثا ليتفحص الموقد. كيف صعدته بنظرها من أخمص قدميه حتى رأسه ثم بالعكس، كان لتلك البسمة الرئيفة معنى بعث الشتاء في لحمه. لن يستطيع أن يخبر ماريا بذلك.

اجلس، سيد بانديني.

وجد كرسي القراءة العميق مريحاً بشكل مبهج، كرسي من عالم الأرملة، تمدَّد فيه وعاين الغرفة الزاهية الممتلئة بالكتب والحلي الصغيرة على نحو أنيق. امرأة مثقفة تخفَّت في ترف ثقافتها. كانت جالسة على الأريكة، ساقاها الممتلئتان في جواربها الحريرية الشفافة، ساقان فاخرتان حفَّتا بالحرير عندما صالبتهما أمام عينيه المدهوشتين. طلبت منه الجلوس والتحدث معها. كان ممتناً للغاية حتى أنه لم يقدرعلى الكلام، لم يستطع سوى إطلاق نعرات سعيدة رداً على كل ما قالته، تتدفق كلماتها الدقيقة المترفة من حلقها العميق المتنعم.

أدهشته، جحظت عيناه بالفضول حول عالمها المصان، أملس جداً وساطع، مثل حرير فاخرأحاط بالترف المكتنز لساقيها الحسناوين.

سوف تهزأ ماريا لو عرفت بما تحدثت عنه الأرملة، لأنه لقي حلقه متضيّقاً جداً، يغصّ كثيراً بغرابة المشهد: هي هناك، السيدة هيلد جاردي الثرية، التي تقدّر ثروتها بمئة، وربما مئتي ألف دولار، ولا تبعد أكثر من أربعة أقدام-دانيةً جداً حتى أن بوسعه الانحناء فيمسّها.

إذاً، كان إيطالياً؟ رائع. فقط السنة الماضية سافرت إلى إيطاليا. جميلة. لابد أن يكون فخوراً جداً بإرثه، هل يعرف أن إيطاليا كانت مهداً للحضارة الغربية؟ هل سبق أن رأى الكامبوسانتو(المقبرة الكبيرة)، كاتدرائية القديس بطرس، لوحات مايكل آنجلو، المتوسط الأزرق؟ الريفيرا الإيطالية؟

لا، لم ير أياً منها. قال لها بكلمات بسيطة إنه من أبروتزي، وإنه لم يذهب يوماً إلى الشمال، ولم يذهب إلى روما. لقد عمل بجدّ عندما كان ولداً. لم يكن هناك وقت لأي شيء آخر.

أبروتزي! كانت الأرملة تعرف كل شيء. إذاً، بالتأكيد قرأ أعمال دانونزيو-هو أيضاً كان من أبروتزي.

لا، لم يقرأ لدانونزيو. لقد سمع به، لكنه لم يقرأ له يوماً. نعم، يعرف أن الرجل العظيم كان من مقاطعته. هذا سرّه. جعله ممتنّاً لدانونزيو. الآن صار بينهما شيئاً مشتركاً، وجد نفسه عاجزاً عن الاستفاضة في الموضوع، وهذا أرعبه. راقبته الأرملة برهة من الوقت، خلت عيناها الزرقاوان من التعبير عندما ركّزتا على شفتيه. أدار رأسه بارتباك، تبعت تحديقته الأشعة الثقيلة في الغرفة، الستائر المزركشة، الحليّ الصغيرة المفرودة في كل مكان بإسراف دقيق.

امرأة لطيفة، ماريا: امرأة صالحة أتت لتنقذه، وجعلت المحادثة مريحة. هل يحب بناء الطوب؟ هل لديه عائلة؟ ثلاثة أطفال؟ رائع. هي أيضاً كانت ترغب بأن يكون لديها أطفال. هل زوجته إيطالية أيضاً؟ هل يعيش في روكلين منذ مدة طويلة؟ الطقس. تحدثت عن الطقس. آه. تحدث حينئذ متخبطاً عن عذابه بسبب الطقس. متنحباً أو يكاد، تذمّرمن توقّف حركة العمل، كراهيته العنيفة للأيام الباردة الغائمة، إلى أن نظرت إلى ساعتها هلعة من سيله المرير، وطلبت منه أن يعود غداً صباحا ليبدأ بالعمل على الموقد. عند الباب، قبعة في يده، وقف ينتظر كلماتها الوداعية.

" ضع قبعتك سيّد بانديني"! ابتسمت." ستصاب بالبرد". مكشّراً، رشح إبطاه وعنقه بعرق التوتر، جذب قبعته للأسفل، مشوّشاً ومضيعاً الكلمات.

بقي مع روكو تلك الليلة. مع روكو، ماريا، وليس مع الأرملة. في اليوم التالي، بعد طلب الآجر الحراري من مخزن الأخشاب، عاد إلى كوخ الأرملة ليصلح الموقد. فرد خيشاً فوق السجادة، خلط الملاط في دلو، ونزع الآجر الفالت في بطانة المدخنة، ووضع آجراً جديداً مكانه. مصمّماً أن يبقى في هذا العمل يوماً كاملاً، خلع جميع الآجر. ربما ينتهي في ساعة، ربما يخلع فقط آجرة واحدة أو اثنتين أو ثلاث، لكن عند الظهر كان منهياً نصف العمل فقط. ثم ظهرت الأرملة، جاءت بهدوء من إحدى الغرف الشذية الرائحة. ثانيةً، الرعدة في حلقه. ثانيةً، لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى الابتسام. كيف كان يتقدم في هذا العمل؟ لقد أدى عملاًمتأنّياً:لم يلطّخ الملاط وجوه الآجرّات التي وضعها. حتى الخيش كان نظيفاً، الآجر القديم مكوّم بأناقة جانباً. لحظت هذا، وسُرّ لذلك. لم تغْوِه رغبةٌ وهي تتقدم لتفحص الآجر الجديد داخل الموقد، مؤخرتها الملساء المحزّمة مكوّرة جداً وهي تغرق حتى

وركيها. لا ماريا، لم يؤثّر به كعبها العالي، قميصها الرهيف، أريج عطر شعرها الداكن، ولم تراوده فكرة شاردة بالخيانة. راقبها كالسابق بعجب وفضول: هذه المرأة التي تملك مئة ألف، وربما مئتين في المصرف.

لم تكن خطّته في الذهاب إلى مركز المدينة للغداء واردة. حالما سمعت بها أصرّت أن يحلّ ضيفاً عليها. لم تتمكّن عيناه من لقاء الأزرق في عينيها. حنى رأسه، ضرب الخيش بأصابع إحدى قدميه، وتوسّل أن تعفيه. تناول الغداء مع الأرملة هيلد جاردي؟الجلوس أمامها إلى الطاولة ووضع الطعام في فمه بينما تجلس هذه المرأة قبالته؟ بصعوبة تمكّن من التعبير عن رفضه همساً.

" لا، لا. أرجوك يا سيدة هيلد جاردي، شكراً لك! شكراً لك جزيلاً! أرجوك، لا! شكراً لك!"

لكنه مكث، لم تكن لديه الجرأة على مضايقتها. سألها مبتسماً وهويرفع يديه الملوثتين بالملاط، ما إذا كان بوسعه أن يغسلهما، وأرشدته عبر القاعة البيضاء النظيفة إلى الحمام. كانت الغرفة مثل صندوق للمجوهرات: بلاط أصفر لماع، المغسلة صفراء، ستائر الأورجانزا بلون الخزامى على النافذة الطويلة، وعاء من الزهور الأرجوانية على طاولة التسريحة ذات المرآة، زجاجات عطر بمقابض صفراء، مشط أصفر، ومجموعة فراشٍ. التفت سريعاً وأقفل الباب. لا يمكن أن يجفل أكثر حتى وإن وقفت عارية أمامه. كانت يداه الوسختان لا تستحقان هذا. فضّل مغسلة المطبخ، كما يفعل في المنزل. لكن أريحيتها طمأنته، ودخل خائفاً، على باطن قدميه، ووقف أمام المغسلة بتردّد معذّب. فتح صنبور المياه بمرفقه، خشية أن تترك أصابعه أثراً عليه. كان يستحيل استعمال الصابون الأخضر المعطر: فعل أفضل ما بوسعه بالماء وحده. عندما انتهى، جفّف يديه بطرف قميصه، متجاهلاً المناشف الناعمة الخضراء المعلقة على الجدار. التجربة جعلته خائفاً مما قد يحدث على

الغداء. قبل أن يغادر الحمام، خرَّ على ركبتيه ومسح بقعة أو اثنتين من الماء بكمّ قميصه.

غداء مكون من أوراق الخس، الأناناس، وجبنة القريش. جالساً ليتناول الطعام في ركن الفطور، منديل زهري اللون على ركبتيه، يتنابه شكّ من أن هذا كان مزحة، وأن الأرملة كانت تتسلّى به. لكنها أكلت أيضاً، بشهية تنمي عن لذّته. لوقدمت له ماريا مثل هذا الطعام لرماه من النافذة. ثم جلبت الأرملة الشاي في فنجان صيني صغير. كان هناك قطعتان بيضاوان من الحلوى في صحن الفنجان، ليستا أكبر من طرف إبهامه. الشاي والحلوى. Diavolo! لطالما شابه الشاي بالتأنّث والضعف، ولم يكن لديه ولع بالحلوى. لكن الأرملة ابتسمت بلطف وهي تمضغ قطعة حلوى بين إصبعين، عندما قذف الحلوى في فمه كما يتناول المرء حبوب دواء بغيضة.

انتهى قبل وقت طويل من إنهائها قطعة الحلوى الثانية، تجرّع فنجان الشاي، واستند إلى الوراء على ساقي كرسيه الخلفيتين، تموء معدته وتنعق باحتجاجها على مثل هؤلاء الزوار الغرباء. لم ينبس أثناء الغداء بكلمة. هذا جعله يعي أن ليس هناك ما يقال بينهما. ابتسمت بين الحين والآخر، نظرت مرة إلى إطار فنجانها. هذا أحرجه وأحزنه: استنتج أن حياة الأغنياء لم تكن من أجله. سيأكل في البيت بيضاً مقلياً، قطعة خبز، ويتبعها بكأس من النبيذ.

عندما انتهت، مسّت زوايا شفتيها القرمزيتين بطرف منديلها، سألت ما إذا كان يرغب بشيء آخر. كان بودّه أن يجيب: " ماذا لديك أيضاً"؟ لكنه ربت على بطنه بدلاً من ذلك، ينفخه ويملّسه.

" لا، شكراً لك، يا سيدة هيلد جاردي! أنا ممتلئ تماماً حتى أذني".

ابتسمت. بقبضتين معقودتين على حزامه، ظل مستنداً إلى الوراء في

كرسيه، يلعق أسنانه ويتوق إلى سيجار.

امرأة ممتازة، ماريا. التي شعرت بكل رغباته.

" هل تدخن؟" سألت، مخرجة علبة سجائر من درج الطاولة. أخرج من جيب قميصه عقب سيجار توسكانيللي، قضم طرفه وبصقه على الأرض، أشعل عود ثقاب ونفثه. أصرّت أن يبقى حيث هو، مرتاحاً ومتخفّفاً، جمعت الأطباق، تتدلى السيجارة من زاوية فمها. خفّف السيجار من توتره. راقبها مصالباً ذراعيه، بحرّية أكبر، متفحّصاً الردفين الأملسين، الذراعين الناعمتين البيضاوين. كانت أفكاره حتى ذلك الحين نظيفة، ما من شهوة شاردة تلبّد عقله. كانت امرأة غنية وكان قربها، جالساً في مطبخها، كان ممتنّاً للقرب: من أجل ذلك وليس أكثر، كان الله شاهداً عليه.

عاد إلى عمله عندما أنهى سيجاره. عند الساعة الرابعة والنصف كان قد انتهى. جمع أدواته وانتظر أن تأتي إلى الغرفة ثانية. كان طوال الأصيل يسمعها في جزء آخر من المنزل. انتظر لبعض الوقت، منظّفاً حنجرته بصوت مرتفع، يرمي مالجه، يغني لحناً بكلمات: " انتهى، أوه كله قد تم، كله انتهى، كله انتهى". أخيراً أتى بها الهرج إلى الغرفة. تحمل كتاباً في يدها، تضع نظّارات القراءة. توقّع أن تدفع له في الحال. وبدلاً من ذلك تفاجأ عندما طلبت منه الجلوس للحظة. لم تنظر حتى إلى العمل المنجز.

" أنت عامل رائع، يا سيد بانديني. رائع. أنا مسرورة جداً!"

ماريا قد تتهكم، لكن تلك الكلمات كادت أن تستل الدموع من عينيه.

" لقد بذلت أفضل ما بوسعي، يا سيدة هيلد جاردي، فعلت أفضل ما بوسعي".

لكنها لم تبدِ رغبة في السَّداد. مرة أخرى العينان الزرقاوان الضاربتان

إلى البياض. جعله تثمينها الواضح يحول نظرته إلى الموقد. ظلت العينان عليه، تتفحّصه بغموض وافتتان، كما لو أنها تناهت إلى حلم يقظة بأشياء أخرى. مشى نحو الموقد ورمى نظرة على الرف، كما لو ليعاير زاويته، زامّاً شفتيه بنظرة التخمين الحسابي تلك. ظل على هذه الحال حتى استنفد الأمرمعقوليته، عاد إلى الكرسي العميق وجلس مجدداً. تبعته تحديقة الأرملة تلقائياً. أراد أن يتحدث، لكن ما الذي يمكن أن يقال؟

أخيراً كُسر الصمت: كان لديها عمل آخر من أجله. كانت تملك منزلاً في البلدة، في شارع ويندسور. هناك أيضاً لم يكن الموقد شغّالاً. هل يذهب إلى هناك غداً ليتفحصه؟ نهضت، وعبرت الغرفة إلى طاولة الكتابة بمحاذاة النافذة، وكتبت العنوان. كانت تدير له ظهرها، جسدها منحنٍ عند الخصر، ردفاها المكوّران يشعّان بشهوانية، ومع ذلك ماريا قد تمزق عينيه وتبصق في محجريهما الفارغين، يمكنه أن يقسم أن ما من شرّ أظلم نظرته، وما من رغبة توارت في قلبه.

تلك الليلة، مستلقياً في العتمة بجانب روكو سانتوشي، منعه شخير صديقه النائم من النوم، كان هناك سبب آخر لم يسمح لسفيفو بالنوم، وكان ذلك وعد الغد. استلقى ينعر بامتنان في العتمة.Mannaggia، لم يكن أحمق، كان لديه من الحكمة ما يكفي ليدرك أنه أثار إعجاب الأرملة هيلد جاردي. ربما تشفق عليه، ربما تعطيه عملاً جديداً فقط لأنها شعرت بأنه يحتاج إليه، لكن أياً كان الأمر، لم يكن هناك شكّ بقدرته، لقد وصفته بالعامل الرائع وكافأته بعمل آخر.

دع الشتاء يضرب! دع الحرارة تنخفض حتى درجة التجمد. دع الثلج يتكوم ويدفن البلدة! لا يهتمّ: غداً هناك عمل. وبعد ذلك، سيكون هناك عمل دوماً. أعجبت الأرملة هيلد جاردي به، لقد احترمت قدرته. بما لها

وبقدرته سيكون هناك دوماً عمل يكفي ليسخر من الشتاء.

دخل منزل شارع ويندسور عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي. لا يعيش أحد في المنزل، كان الباب الرئيس مفتوحاً عندما حاول فتحه. لا يوجد أثاث: فقط غرف فارغة. ولم يتمكّن من إيجاد أي خطب في الموقد. لم يكن متقَناً كالموقد في منزل الأرملة، لكنه كان جيداً. لم يكن الملاط متصدعاً، والآجر استجاب بصلابة لطرقات المطرقة. إذا ما الأمر؟ وجد خشباً في السقيفة الخلفية وأشعل ناراً.امتصت المدخنة اللهب بنهم. ملأت الحرارة الغرفة. ما من خطب.

الساعة الثامنة، عاد إلى منزل الأرملة ثانية. وجدها في رداء أزرق، نشيطة مبتسمة بتحية الصباح. السيد بانديني! لكن ليس عليك أن تقف خارجاً في البرد. ادخل واحتس كوباً من القهوة! ماتت الاعتراضات على شفتيه. نفض الثلج عن حذائه المبلّل وتبع الثوب الأزرق المنساب نحو المطبخ. شرب القهوة واقفاً أمام الحوض، يصبّها في الصحن، ثم ينفخ عليها ليبردها. لم ينظر إليها تحت الأكتاف. لم يجرؤ. ماريا لن تصدق ذلك أبداً. متوتراً ودون كلام، تصرّف كرجل.

قال لها بأنه لم يستطع إيجاد خطب في موقد منزل شارع ويندسور. سرته نزاهته، التي وافته البارحة أيضاً بعد العمل المبالغ به. بدت الأرملة متفاجئة. كانت واثقة من أن ثمة خطباً في موقد شارع ويندسور. طلبت منه الانتظارقليلاً حتى ترتدي ملابسها. ستعيده إلى شارع ويندسور وتُريه المشكلة. الآن كانت تحدّق في قدميه الرطبتين.

" سيد بانديني، ألا ترتدي حذاء مقاسه تسعة؟"

صعد الدم إلى وجهه، وبقبق في قهوته. اعتذرت سريعاً. كانت العادة

السيئة البارزة في حياتها-هاجسهاهذا في سؤالها الناس عن مقاس أحذيتهم التي يرتدونها. كان نوعاً من لعبة تخمين لعبتها مع نفسها. هل سيسامحها؟

هزّته الحادثةبعمق. جلس إلى الطاولة ليخفي هذا الشعور بالعار سريعاً، حذاؤه المبلل تحتها، بعيداً عن النظر. لكن الأرملة ابتسمت وأصرّت. هل كان ظنّها في محله؟ هل كان القياس تسعة صحيحاً؟

" بالتأكيد، يا سيدة هيلد جاردي".

منتظراً أن ترتدي ملابسها، شعر سفيفو بانديني بأنه يصل إلى مكان ما في العالم. منذ الآن فصاعداً، من الأفضل لهيلمر المصرفي وكل دائنيه أن يكونوا حذرين. كان لبانديني أصدقاء نافذين أيضاً.

لكن ما الذي كان عليه أن يخفيه عن ذلك اليوم؟ لا-كان فخوراً بذلك اليوم. ركب إلى جانب الأرملة في سيارتها، وسط البلدة، شارع بيرل، الأرملة إلى المقود في معطف من جلد الفقمة. لو رأته ماريا وأولادها يثرثر بيسر معها، سيفخرون به. قد يرفعون ذقونهم بفخر ويقولون: ها هو بابا! لكن ماريا مزّقت لحم وجهه.

ماالذي حدث في المنزل الفارغ في شارع ويندسور؟ هل قاد الأرملة إلى غرفة مهجورة واعتدى عليها؟ هل قبّلها؟ إذاً اذهبي إلى ذلك المنزل، ماريا. تحدّثي إلى الغرف الباردة. اكنسي بيوت العنكبوت من الزوايا واسأليها، اسألي الأرض العارية، وألواح النافذة المتجمدة، اسأليها إذا ما ارتكب سفيفو باندينى خطأ. وقفت الأرملة أمام الموقد.

" ترين!" قال." النار التي أشعلتها لا تزال ملتهبة. ما من خطب. إنه يعمل بشكل ممتاز".

لم تكن راضية.

"ذلك الشيء الأسود"، قالت، " لا يبدو جيداً في موقد". أرادت أن يبدو نظيفاً وجديداً، كانت تتوقع نزيلاً مأمولاً، وكل شيء يجب أن يكون مُرضياً.

لكنه كان رجلاً شريفاً ليس لديه رغبة بغشّ هذه المرأة.

" كل المواقد تسودّ، يا سيدة هيلد جاردي. إنه الدخان. كلها تصبح هكذا. لا يمكنك فعل شيء".

لا، لا يبدو جيداً.

حدّثها عن حمض المورياتيك. محلول من حمض المورياتيك والماء، يطبق بفرشاة: هذا قد يزيل السواد. ليس أكثر من عمل ساعتين-ساعتين؟ هذا لن ينجح أبداً. لا، يا سيد بانديني. أرادت انتزاع الآجر ليوضع مكانه آجراً جديداً. هزّ رأسه على الإسراف.

" هذا سيستغرق يوماً ونصف، يا سيدة هيلد جاردي، ويكلّفك خمسة وعشرين دولاراً، بضمنها ثمن المواد".

شدّت المعطف حولها، ترتجف في الغرفة الباردة.

" التكلفة لا تهمّ، يا سيد بانديني"، قالت." يجب أن ينجز. لا استكثر شيئاً على نزلائي".

ماذا بوسعه أن يرد على ذلك؟ هل تنتظر ماريا منه أن يتهرب من العمل، يرفض تنفيذه؟ لقد تصرّف مثل رجل متعقّل، سعيداً لهذه الفرصة كي يكسب المزيد من النقود. أعادته الأرملة إلى باحة مخزن الأخشاب.

"البرد شديد في ذلك المنزل". قالت." يجب أن يكون لديك سخّان من نوع ما". كان جوابه تشوشا ساذجا وضح من خلاله أنه طالما هناك عمل

فهناك دفء، وعندما يكون للرجل حرية التحرك فهذا يكفي، لأن دمه حينئذٍ سيسخن أيضاً. لكن اهتمامها تركه حارّاً ومختنقاً بجانبها في السيارة، حضورها العطر يغيظه، عندما استنشق منخراه، بثبات، شذا بشرتها ولباسها اللذيذ. أرجحت يداها في القفازات السيارة لتقف أمام شركة جيجي للأخشاب.

كان العجوز جيجي واقفاً إلى النافذة، عندما خرج بانديني وانحنى بتحية الوداع للأرملة. شلّته بابتسامة قاسية هزّت ركبتيه، لكنه كان يختال مثل ديك جريء عندما دخل المكتب، وصفق الباب بمظهر المستخفّ، وأخرج سيجاراً، أشعل عود ثقاب بمقدّمة النضد، نفخ التبغ بشكل تأملي، نافثاً اندفاعة من الدخان في وجه العجوز جيجي، الذي طرف بعينيه وأشاح ببصره بعد أن تغلغلت تحديقة بانديني اللدودة في جمجمته. نخر بانديني بالرضا. هل يدين بنقود لشركة جيجي للأخشاب؟ إذاً، دع العجوز جيجي يطّلع على الوقائع. دعه يتذكر أنه رأى بعينه بانديني بين أناس متنفّذين. طلب مئة قطعة من القرميد، وكيساً من الإسمنت، وياردة من الرمل، لترسل إلى عنوان في شارع ويندسور.

" وأسرع بها! "قال من فوق كتفه." عليَّ أن أحصل عليها خلال نصف ساعة". وعاد مختالاً إلى منزل شارع ويندسور، ذقنه في الهواء، يتهاوى دخان سيجاره التوسكانيللي القوي الأزرق من فوق كتفه. كان لابد لماريا أن ترى تعبير الكلب المجلود على وجه العجوز جيجي، الحماس المتذلل الذي دوّن به طلب بانديني.

المواد كانت في طريقها للوصول، فما إن وصل إلى البيت الفارغ، حتى ظهرت شاحنة شركة جيجي للأخشاب عند الإفريز الأمامي. خلع معطفه وانغمس في المهمة. أقسم أن هذه ستكون واحدة من أجمل أعمال بناء الطوب

في ولاية كولورادو. سيظل الموقد بعد خمسين سنة، مئتي سنة، صامداً. لأن سفيفو بانديني عندما ينفذ عملاً، فهو ينفذه بإتقان.

غنّى وهو يعمل أغنية عن الربيع: "عد إلى سورينتو". تنهّد المنزل الفارغ بالصدى، امتلأت الغرف الباردة برنين صوته، طرقات مطرقته وحفيف مالجه. يوم احتفالي: مرّ الوقت سريعاً. أصبحت الغرفة دافئة بحرارة طاقته، تعرّقت ألواح النافذة بالفرح عندما ذاب الجليد والشارع أصبح مرئياً.

الآن توقفت شاحنة عند الإفريز. توقف باندیني عن عمله ليراقب السائق ذا المعطف الأخضر يرفع الغرض المشعّ ويحمله نحو المنزل. شاحنة حمراء من شركة واطسن للتجهيزات. وضع باندیني مالجه. لم يطلب من شركة واطسن للتجهيزات. لا-هو لم يطلب شيئاً من شركة واطسن. لقد حجزوا مرتباته مرة، ضماناً لفاتورة لم يتمكن من دفعها. كره شركة واطسن، واحدة من ألدّ أعدائه.

"هل اسمك باندیني؟"

"ماذا يهمّك؟"

"لا أهتمّ. وقّع هنا!"

سخّان يعمل على الزيت من السيدة هيلد جاردي لسفيفو باندیني. وقّع الورقة وغادر السائق. وقف باندیني أمام المشعاع كما لو أنه الأرملة نفسها. صفر بذهول. هذا كان كثيراً على أي رجل-كثيراً جداً.

"امرأة ممتازة"، قال، هازاً رأسه". ممتازة جداً".

فجأة كان هناك دموع في عينيه. سقط المالج من يديه وهو يخرّ على ركبتيه ليتفحّص المشعاع الساطع المطلي بالنيكل." أنت أحسن امرأة في هذه البلدة، يا سيدة هيلد جاردي، وعندما أنتهي من هذا الموقد ستكونين فخورة به".

عاد مرة أخرى إلى عمله، يبتسم بين الحين والآخر للمشعاع من فوق كتفيه، يتحدث إليه كما لو أنه كان رفيقه." مرحباً، يا سيدة هيلد جاردي! ألا تزالين هنا؟ تراقبينني، ها؟ تضعين عينيك على سفيفو بانديني، أليس كذلك؟ حسناً، أنت تنظرين إلى أفضل بنّاء في كولورادو يا سيّدتي".

تقدّم العمل بأسرع مما تخيّل. واصل حتى كانت اشتدّت الحلكة ومنعت الرؤيا. مع ظهر اليوم التالي سينتهي. جمع أدواته، غسل ماجله، وتهيّأ للمغادرة. ما إن حلّت تلك الساعة المتأخرة، واقفاً في الضوء الضبابي القادم من مصباح الشارع، حتى أدرك بأنه نسي أن يشعل السخّان. صرخت يداه بالبرد. وضع السخّان داخل الموقد، أشعله وضبط اللهب نحو وهج شاحب. كان آمناً هناك: يمكنه أن يشتعل طوال الليل ويمنع الملاط الطري من التجمّد.

لم يذهب إلى زوجته وأطفاله. بقي مع روكو ثانية تلك الليلة. مع روكو، ماريا؛ وليس مع امرأة، لكن مع روكو ساتشوني، رجل. ونام جيداً؛ ليس سقوطاً في وهاد سوداء بلا قرار، لا أفاعي بعيون خضراء تزحف خلفه في أحلامه.

ربما سألت ماريا لِمَ لمْ يعد إلى البيت. هذا كان شأنه. Dio rospo! هل عليه أن يشرح كل شيء؟

أصيل اليوم التالي عند الساعة الرابعة سبق الأرملة إلى هناك مع فاتورة العمل. كتبها على ورقة رسائل من فندق Rocky Mountain. لم يكن متهجّياً جيداً، وكان يعرف ذلك. لقد وضعه على الشكل التالي ببساطة: العمل 40 دولاراً، ووقّع. سوف يذهب نصف هذا المبلغ ثمناً للمواد. لقد كسب عشرين دولاراً. لم تلقِ الأرملة بنظرة على الفاتورة حتى. رفعت نظارات القراءة وأصرت على أن يأخذ راحته. شكرها على المشعاع وكان مسروراً لوجوده في منزلها. لم تكن مفاصله متجمدة كثيراً كما في السابق. حلّت أقدامه

على الأرض اللماعة. كان بوسعه أن يتأمل الأريكة الناعمة قبل أن يجلس عليها. قلّلت الأرملة من شأن المشعاع بابتسامة.

" كان ذلك المنزل مثل الثلاجة، يا سفيفو".

سفيفو. لقد نادته باسمه الأول. ضحك ضحكاً صريحاً. لم يكن يقصد، لكن الضحكة أفلتت منه لأن فمها استفزّه وهو يلفظ اسمه. كان اللهب في الموقد حاراً. كان حذاؤه الرطب قربه. تصاعد منه بخار له رائحة لاذعة. كانت الأرملة خلفه، تتجوّل، ولم يجرؤ على النظر. مرة أخرى فقد القدرة على استعمال صوته. كانت تلك الكتلة الجليدية في فمه بسبب لسانه: لم يكن ليتحرك. تلك الرجفة الحارة في صدغيه، تجعل شعره يبدو مشتعلاً: كان ذلك نبض دماغه: لم يمنحه الكلمات. نادته الأرملة الجميلة، ذات المئتي ألف دولار في المصرف، باسمه الأول. فرقع خشب الصنوبر في النار بجذله القائظ. جلس يحدق في النار، وجهه مبتسم وهو يدوّر يديه الكبيرتين معاً، العظام تطقطق فرحاً. لم يتحرك، يشلّه القلق والبهجة، ملتاعاً مع فقدان صوته. أخيراً كان قادراً على الكلام.

" نار زكية"، قال. "زكية".

لا جواب. نظر من فوق كتفه. لم تكن هناك، لكنه سمع صوتها قادمة من الردهة. التفت وركّز عينيه البراقتين المستثارتين على اللهب. جاءت بصينية تحمل كؤوساً وزجاجة. وضعتها على رفّ الموقد وصبّت كأسين. رأى وميض الماس على أصابعها. رأى ردفيها الصلبين، الخط الانسيابي، انحناءة ظهرها الأنثوية، الجمال الممتلئ لذراعها وهي تصبّ المشروب من الزجاجة المبقبقة.

" تفضّل، سفيفو. هل لديك مانع من أن أناديك كذلك؟"

تناول المشروب الأحمر الضارب إلى السمرة وحدّق به، متسائلاً ماذا يكون، هذا المشروب بلون عينيه، هذا المشروب صبّته نساء غنيّات في حناجرهنّ. ثم تذكّر أنها تحدثت إليه عن اسمه. اندفع دمه بعنف ينتفخ عند الحدود الحارة المتوهجة لوجهه.

" لا أبالي، يا سيدة هيلد جاردي، بأيّ اسم ناديتني".

هذا جعله يضحك وكان سعيداً لأنه أخيراً قال شيئاً مضحكاً على الطريقة الأمريكية، ومع ذلك لم يكن يقصد أن يفعل هذا. كان المشروب نبيذاً إسبانيّاً، مالقة، حلو، حار، فعّال. رشفه بحذر، ثم قذفه بثقة قروية نشطة. كان حلواً وحاراً في معدته. تلمّظ وسحب العضلات الكبيرة لساعده عبر شفتيه.

" قسماً بالله ذلك جيد!"

صبّت له ملء كأس آخر. احتجّ بذرائع تقليدية، عيناه تفرقعان بالبهجة عندما ضحك النبيذ في طريقه إلى كأسه الممدود.

" لديّ مفاجأة لك، يا سفيفو!"

مشت نحو المكتب وعادت بطرد ملفوف بورقة هدايا عيد الميلاد. أصبحت ابتسامتها مجفلة وهي تفكّ الخيوط الحمراء بأصابعها المشغولة بالجواهر، وراقب في غصّة من المتعة. فتحتها والمنديل الورقي بداخلها لمع كما لو أن حيوانات صغيرة ترعرعت فيه. كانت الهدية حذاء. أمسكته، فردة في كل يد، وراقبت اللهب المتلاعب في عينيه المهتاجتين. لم يُطق احتماله. التوى فمه بعذاب مرتاب، لأنها علمت أنه بحاجة إلى حذاء. احتجّ بصوت ناعر، تأرجح على الأريكة، ومرّر أصابعه المغضّنة عبر شعره، ولهث في ابتسامة شاقّة، ثم اختفت عيناه في بركة من الدموع. تلمّس جيبه مخرجاً منديلاً منقطاً

أحمر مطقطقاً، ونظّف منخريه بنفخات متلاحقة سريعة.

" أنت سخيف جداً سفيفو"، ابتسمت". ظننت أنك ستكون مسروراً!"

" لا"، قال." لا. يا سيدة هيلد جاردي. أنا أشتري أحذيتي".

وضع يده على قلبه.

" أنت منحتني عملاً وأنا أشتري حاجاتي".

جرفته جانباً كعاطفة سخيفة. كان كأس النبيذ تلهية. شربه، نهض وملأه وشربه ثانية. تقدّمت منه ووضعت يدها على ذراعه. نظر في وجهها الذي ابتسم بشفقة، ومرة أخرى خرج دفق من الدموع منه وانهمر على خدّيه، وجلده الرثاء الذاتي، لأنه كان عليه أن يخضع لمثل هذا الإحراج! جلس ثانية، قبضتاه مثبتتان عند ذقنه، عيناه مغلقتان. حتى هذا يجب أن يحدث لسفيفو بانديني!

لكن حتى وهو يبكي انحنى ليفكّ رباط حذائه القديم المبلل. خرجت الفردة اليمين مصدرة صوت شفط، كاشفة عن الجورب الرمادي بثقوب عند الإبهامين، الإبهام الكبير أحمر وعار. لسبب ما هزّه. ضحكت الأرملة. كان في تفكّهها شفاؤه. تلاشى شعوره بالخزي. مضى بلهفة يخلع الفردة الأخرى. ارتشفت الأرملة النبيذ وراقبته.

كان الحذاء كنغر، قالت له، كان باهظاً. انتعله وشعر بليونته الباردة. يا رب السماوات، يا له من حذاء! عقد أربطته ووقف. كان ناعماً للغاية كما لو أنه يخطو حافياً على سجادة سميكة، يا لها من أشياء أليفة في قدميه. مشى في الغرفة يجرّبه.

" مناسب تماماً"، قال." جيّد للغاية، يا سيدة هيلد جاردي!" ماذا الآن؟ أدارت ظهرها وجلست. تقدّم نحو الموقد.

" سأدفع لك يا سيدة هيلد جاردي. ستقتطعين ثمنه من الفاتورة". لم يكن مناسباً. كان على وجهها ترقّب وخيبة لم يتمكن من سبرها.

" أفضل الأحذية التي امتلكتها على الإطلاق" قال جالساً وباسطاً إياه أمامه.ارتمت على الطرف الآخر من الأريكة. طلبت منه بصوت متعب أن يصبّ لها كأساً. أعطاها الشراب وتناولته دون كلمة شكر، لم تقل شيئاً وهي ترشف النبيذ، تتنهّد بسخط خفيف. استشعر انزعاجها. ربما أطال البقاء. نهض بنيّة المغادرة. شعر على نحو غامض بصمتها الكامن. كان فكّها مغلقاً، شفتاها خيط رفيع. ربما كانت مريضة، ترغب بالانفراد بنفسها. التقط حذاءه القديم وحزمه تحت ذراعيه.

" أظنّ أن عليَّ الذهاب الآن، يا سيدة هيلد جاردي".

حدّقت بألسنة النار.

" شكراً لك يا سيدة هيلد جاردي. إذا ما رغبت بعمل آخر ذات...".

" بالتأكيد سفيفو"، رفعت بصرها وابتسمت." أنت عامل ممتاز، سفيفو. أنا راضية تمام الرضا!"

" شكراً لك يا سيدة هيلد جاردي!"

ماذا عن أجوره؟ عبر الغرفة وتردّد عند الباب. لم تره وهو يذهب. أخذ المقبض بيده ولواه.

" وداعاً سيدة هيلد جاردي!"

وثبت على قدميها. انتظر لحظة! كان هناك شيء رمت سؤاله عنه. هلّا نظر إلى كومة الأحجار تلك في الباحة الخلفية على الجهة اليسرى من المنزل قبل أن يغادر؟ ربما يمكنه أن يخبرها ماذا تفعل بها. تبع الردفين المكوّرين عبر

القاعة نحو الشرفة الخلفية، حيث نظر إلى الحجارة من النافذة، طنّان من البلاط تحت الثلج. فكّر للحظة وقدّم اقتراحاته: يمكنها أن تفعل كثيراً من الأمور بتلك الأحجار-يمكنها أن تصنع منها رصيفاً، وتبني حائطاً منخفضاً حول الحديقة، تنصب مزولة ومقاعد للحديقة، نافورة، مرمدة. كان وجهها شاحباً وخائفاً عندما التفت من النافذة، حفّت ذراعه بذقنها بلطف. كانت تنحني من فوق كتفه، لا تمسّه تماماً. اعتذر. ابتسمت.

" سنتحدث عن هذا لاحقاً"، قالت." في الربيع".

لم تتحرك، تسد طريق العودة إلى القاعة.

" أريدك أن تنفّذ جميع أعمالي سفيفو!"

جالت عيناها فيه. جذبها الحذاء الجديد. ابتسمت ثانية:" كيف تجده؟"

" أفضل ما حصلت عليه على الإطلاق!"

ومع ذلك كان هناك شيء آخر. هل ينتظر لحظة واحدة حتى تفكر به؟ كان هناك شيء-شيء-شيء-وظلت تفرقع أصابعها وتعضّ شفتها متأملة. عادا عبر المدخل الضيق. توقفت عند أول باب. تلمّست المقبض بيدها. كان الضوء شاحباً في القاعة. دفعت الباب وفتحته.

" هذه غرفتي!" قالت.

رأى نبض قلبها في حنجرتها. كان وجهها شاحباً، عيناها تبرقان بخجل سريع. غطّت يدها المزدانة بالمجوهرات الاضطراب في حنجرتها. رأى من فوق كتفها الغرفة: السرير الأبيض، التسريحة، خزانة الأدراج. دخلت الغرفة، أضاءت المصباح، ودارت في حلقة وسط السجادة.

" إنها غرفة جميلة، ألا تظن ذلك؟"

راقبها هي، وليس الغرفة. راقبها، عيناها تنتقلان من السرير لتعودا إليه مجدداً. شعر بأن عقله يسخن، ينشد ثمار الخيال، تلك المرأة وهذه الغرفة. مشت نحو السرير، يتموّج ردفاها مثل عنقود من الأفاعي وهي تسقط على السرير وتستلقي هناك، تومئ بيدها بحركة فارغة.

" ممتع جدّاً هنا!"

إيماءة خليعة، طائشة كالنبيذ. غذّى عطر المكان نبض قلبه. كانت عيناها محمومتين، افترّت شفتاها عن تعبير معذّب كشف عن أسنانها. لم يتمكن من التأكد من نفسه. حرف عينيه وهو يراقبها. لا-لا يمكن أن تقصده. تملك هذه المرأة الكثير من المال. تفوق ثروتها الخيال. مثل هذه الأمور لا تحدث.

استلقت قبالته، توسّد رأسها ذراعها الممدودة. لابد أن تكون الابتسامة الرخوة مؤلمة، لأنها بدت آتية مع اضطراب هلع. استجابت حنجرته بلجب الدم، ابتلع ريقه، وأشاح ببصره، نحو الباب المؤدي إلى القاعة. ما كان يفكر به من الأفضل نسيانه. لم تكن هذه المرأة لتهتم برجل فقير.

" أظن أن من الأفضل أن أغادر الآن، يا سيدة هيلد جاردي"!

" أحمق!" ابتسمت.

كشّر عن ذهوله، تشوّش دمه وعقله. سيجلو هواء المساء ذلك. التفت ومشى عبر القاعة نحو الباب الرئيس.

"أنت أحمق"، سمعها تقول. " أيها الفلاح الجاهل!"

Mannaggia! ولم تدفع له أيضاً. التوت شفتاه باستهزاء. وصفت سفيفو بانديني بالأحمق! نهضت من السرير ولاقته، امتدّت يداها لمعانقته. بعد لحظة كانت تناضل لتنتزع نفسها. جفلت من فرح رهيب عندما تراجع، قميصها الممزّق ينساب من قبضتيه.

لقد مزّق قميصها كما مزّقت ماريا لحم وجهه. متذكراً ذلك الآن، كانت تلك الليلة في غرفة نوم الأرملة حتى البارحة جديرة إلى حد كبير بالنسبة له. ما من كائن حي آخر كان في ذلك المنزل، فقط هو والمرأة أمامه، تبكي بألم مدهش، طالبة الرحمة، بكاؤها زائف، ينشد القسوة. ضحك بانتصار فقره وقرويّته. هذه الأرملة، هي وثروتها ودفء عميق، أمةَ وضحية تحدّيها، تنشج في تخليها المبتهج عن دفاعها، كل واحد لهث بنصره. يمكنه أن يفعل معها ما يرغب، يخفّف صرختها إلى همس، لكنه نهض ودخل الغرفة حيث توهّج الموقد بكسل في ظلمة الشتاء المسرعة، تاركاً إياها تبكي وتشهق على السرير. ثم جاءت إليه عند الموقد وخرّت أمامه على ركبتيها، وجهها مخضلّ بالدموع. ابتسم وأعار نفسه مرة أخرى لعذابها اللذيذ. وعندما تركها تنشج مشبعة، نزل الطريق بسرور عميق نابع من قناعة بأنه كان سيداً على الأرض.

وهكذا كان. أقول لماريا؟ هذا كان شأنه الخاص. لن يقول، لقد أسدى لماريا صنيعاً-هي ومسابحها وصلواتها، وصاياها وغفرانها. إذا ما سألت سوف يكذب. لكنها لم تسأل. مثل قطّة قفزت إلى خلاصة مكتوبة على وجهه الممزق. لا تزنِ. كان ما فعلته الأرملة. كان ضحيّتها.

لقد ارتكبت الزنى. ضحية راغبة.

كان يزور منزلها يومياً خلال أسبوع عيد الميلاد. أحياناً صفر وهو يطرق مقرعة الباب التي على شكل رأس ثعلب. أحياناً كان صامتاً. دوماً يتأرجح الباب ليفتح بعد لحظة وابتسامة مرحبة تلاقي عينيه. لم يتمكن من التخلص من حرجه. لطالما كان ذلك المنزل مكاناً لا ينتمي إليه، مثيراً وبعيد المنال. رحّبت به في فساتين زرقاء وحمراء صفراء وخضراء. اشترت له السيجار، من ماركة Chancellors في علب ميلادية. كانت على رفّ الموقد أمام عينيه، عرف بأنها له، لكنه انتظر دوماً دعوتها ليأخذ واحداً.

موعد غريب. دون قبلات أومعانقات. ستأخذ يده وهو يدخل وتصافحها بودّ. كانت مسرورة لقدومه-ألا يحبّ أن يجلس إلى حين؟ شكرها وعبر الغرفة نحو الموقد. بضع كلمات عن الطقس، سؤال مهذّب عن صحته. صمت عندما عادت إلى كتابها. خمس دقائق، عشر.

لا صوت إلا صوت تقليب صفحات الكتاب. سترفع بصرها وتبتسم. جلس دوماً ومرفقاه على ركبتيه، عنقه الثخين منتفخ، يحدق بألسنة النار، يفكّر بأفكاره الخاصة: ببيته، وأطفاله، بالمرأة بجانبه، بثروتها، متسائلاً عن ماضيها. حفيف الصفحات، قرقرة زنود خشب الصنوبروهسيسها. ثم سترفع بصرها ثانية. لماذا لا يدخن سيجاراً؟ كان السيجار من أجله، اخدم نفسك. شكراً لك، يا سيدة هيلد جاردي. وسوف يشعل سيجاراً، ساحباً ورقة عطرة، مراقباً الدخان الأبيض يتعثّر من خدَّيه، مفكّراً بأفكاره.

كانت الويسكي في الدورق على الطاولة الخفيضة، وبجانبها كؤوس وصودا. هل يرغب بشراب؟ ثم سينتظر، الدقيقة تمرّ، الصفحات تخفّ، حتى تنظر إليه مرة أخرى، تبتسم كياسةًلتُعْلمه بأنها تذكّرت أنه موجود.

" ألا تريد شراباً، سفيفو؟"

احتجاجات، التململ في كرسيه، ينفض رماد سيجاره، ينتفض عند ياقته. لا شكراً لك، يا سيدة هيلد جاردي! لم يكن ما قد تدعوه مدمناً على الشراب. مرة كل حين-نعم. لكن ليس اليوم. أصغت بابتسامة الصالونات تلك، تتلصّص عليه من فوق نظارتها الخاصة بالقراءة، ولا تصغي حقيقة على الإطلاق.

" لا تتردّد إذا كنت ترغب بكأس!"

صبّ قدحاً، منفقاً إياه بهزّة احترافية. تلقّفته معدته مثل مخدّر، تلطخه

خالقة رغبة بالمزيد. كان الثلج مكسوراً. صبّ كأساً آخر ثم آخر، ويسكي ثمينة من زجاجة من اسكتلندا، أربعون سنتاً للكأس في قاعة الإمبريال. لكن كان هناك دوماً فاتحة صغيرة من الاضطراب، صفير في الظلمة، قبل أن يصبّ واحداً، سعال، أو قد يفرك يديه معاً ويقف ليدعها تعرف بأنه على وشك أن يشرب ثانية، أو دمدمة نغمة بلا اسم وبلا شكل. بعد ذلك كان أسهل، المشروب يحرّره، وقذفه دون تردّد. كانت الويسكي، مثل السيجار، من أجله. عندما غادر، كان الدورق فارغاً وعندما عاد كان مليئاً مجدداً.

كان الحال دوماً مشابهاً، انتظار ظلال المساء، الأرملة تقرأ وهو يدخن ويشرب. لا يمكن أن يدوم. عشية عيد الميلاد وسينتهي. كان هناك شيء في ذلك الوقت والموسم-عيد الميلاد قادم، السنة القديمة ترحل-هذا قال له بأنه لن يدوم سوى بضعة أيام، وشعر بأنها تعرف أيضاً.

كانت عائلته أسفل التلة عند طرف البلدة الآخر، زوجته والأطفال. كان زمن عيد الميلاد وقتاً للزوجة والأولاد. سيغادر، ولن يعود مجدداً. سيكون في جيوبه مال. في هذه الأثناء، أحب المكان هنا. أحب الويسكي الممتازة، السيجار المعطر. أحب هذه الغرفة الممتعة والمرأة الغنية التي تعيش فيها. لم تكن بعيدة عنه، تقرأ كتابها، وخلال فترة قصيرة ستمشي إلى غرفة النوم وسيتبعها. ستلهث وتبكي، ثم سيغادر مع الشفق، يمنح النصر المتعة لساقيه. أحب استئذان الرحيل أكثر من كل شيء. هذه الاندفاعة من الرضا، تلك الشوفينية المبهمة تقول له إن ما من أناس على الأرض يعادلون الإيطاليين، ذلك الفرح في قرويته. الأرملة تملك المال-نعم. لكن هناك تستلقي، مهشّمة، وكان بانديني أفضل منها، وحق الله!

لو أنه ذهب إلى البيت في تلك الليالي لشعر بأن الأمر انتهى. لكن لم يكن هناك وقت للتفكير بعائلته. بضعة أيام أخرى وقلقه سيبدأ ثانية. دع

تلك الأيام تمضي في عالم بعيد عن عالمه. لا أحد يعرف ما عدا صديقه روكو ساتشوني.

كان روكو سعيداً من أجله، معيراً إياه قمصاناً وربطات عنق، يفتح خزانة بِذلهِ الكبيرة. يتمدّد في الظلمة قبل النوم، منتظراًرواية بانديني عن ذلك اليوم. فيما يتعلق بأمور أخرى تحدّثا بالإنجليزية، لكن، عن الأرملة كانا يتحدّثان دوماً بالإيطالية، همساً وبسرّية.

" تريد أن تتزوّجني!" يقول بانديني." كانت على ركبتيها، تترجّاني أن أطلّق ماريا".

" نعم"، أجاب روكو." حقاً!"

" ليس هذا فقط، لقد وعدت أيضاً أن تدفع لي مئة ألف دولار".

" وماذا قلت؟"

" أفكّر في الأمر". كذب.

لهث روكو متأرجحاً في الظلمة.

" تفكّر في الأمر! Sangue de la Madonna هل فقدت عقلك؟ خذها! خذ خمسين ألفاً! عشرة آلاف! خذ أي شيء-افعله دون مقابل!"

لا، قال له بانديني، كان العرض مستحيلاً. مئة ألف بالتأكيد ستحلّ مشاكله لمدة طويلة، لكن روكو بدا غافلاً عن وجود مسألة شرف هنا، ولم يكن بانديني راغباً بفضح زوجته والأطفال مقابل الذهب وحسب. تأوّه روكو وشدّ شعره، يدمدم بالشتائم.

" حمار"! قال". يا إلهي! يا لك من حمار!"

صُدم بانديني. هل يقصد روكو أن يقول له بأنه حقاً قد يبيع شرفه

مقابل المال-مقابل مئة ألف دولار؟ ساخطاً، نتر روكو مفتاح الإضاءة فوق السرير. ثم جلس، وجهه شاحب، وعيناه جاحظتان، يقبض بقبضتيه الحمراوين على ياقة قميصه الداخلي الشتائي. " أنت تود أن تعلم ما إذا كنت سأبيع شرفي مقابل مئة ألف دولار؟" سأل. " إذاً انظر!" مع هذا، هزّ ذراعه، ممزّقاً مقدمة قميصه، الأزرار تتطاير وتتناثر على الأرض. جلس يضرب على صدره العاري بوحشية، على قلبه. " أنا لن أبيع شرفي فقط"، صرخ. " سأبيع نفسي جسداً وروحاً، بألف وخمسمئة دولار على الأقل!"

تلك كانت الليلة التي طلب فيها روكو من بانديني أن يقدّمه إلى الأرملة هيلد جاردي. هزّ بانديني رأسه بارتياب: " أنت لن تفهمها روكو. إنها امرأة واسعة المعرفة متخرجة من الجامعة".

قال روكو ساخطاً: "من أنت بحق الجحيم؟"

أشار باندينى إلى أن الأرملة هيلد جاردي كانت قارئة نهمة للكتب، في حين روكو لا يمكنه القراءة أو الكتابة بالإنجليزية. علاوة على ذلك روكو لا تزال إنجليزيته سيئة. حضوره سيؤذي بقية الشعب الإيطالي فقط.

سخر روكو." ماذا في ذلك؟" قال. " هناك أمور أخرى إلى جانب القراءة والكتابة". عبر الغرفة نحو خزانة الملابس وفتح الباب." القراءة والكتابة"! سخر." وبأي فائدة عاد عليك ذلك؟ هل لديك مثلي الكثير من البذل؟ هل لديك الكثير من ربطات العنق؟ لديّ ملابس أكثر من رئيس جامعة كولورادو. بأي نفع عادت عليك القراءة والكتابة؟"

ابتسم إزاء فكرة روكو، لكن روكو كان يملك الفكرة الصائبة. البنّاؤون ورؤساء الجامعة جميعُهم متشابهون. مسألة أين ولماذا.

" سأتكلم مع الأرملة لمصلحتك"! وعده." لكنها غير مهتمة بما يرتديه

الرجل. بل العكس تماماً".

أومأ روكو بتعقل. " إذاً، ليس لدي ما أقلق بشأنه".

كانت ساعاته الأخيرة مع الأرملة مثل الساعات الأولى. مرحباً ووداعاً، أضافاهما إلى الأمر نفسه. كانا غريبين، والشهوة وحدها تجسر صدع اختلافاتهما، ولم يكن هناك أي رغبة ذلك الأصيل.

" صديقي روكو ساتشوني"، قال بانديني". إنه بنّاء جيّد أيضاً".

أخفضت كتابها ونظرت إليه من فوق إطار نظارتها.

" حقّاً"، تمتمت.

دوّر كأس الويسكي.

" إنه رجل صالح، حسن جداً".

" حقّاً!" قالت ثانية. واصلت القراءة لبضع دقائق. ربما لم يكن عليه قول ذلك. التلميح الواضح أجفله.

جلس مجهداً في البلبلة التي صنعها، يتصبّب عرقاً، وارتسمت تكشيرة سخيفة على التواءات وجهه العليلة. مزيد من الصمت. نظر نحو النافذة. الآن كان الليل يدحرج سجاجيد ظليلة عبر الثلج. سيحلّ وقت الرحيل قريباً.

كان محبطاً للغاية. ليت شيئاً عدا الحيوان تسلّل بينه وبين هذه المرأة. لو أنه يمزق فقط تلك الستارة التي بسطها أمامه أمر ثروتها. عندئذ يمكنه أن يتحدث كما يتحدث إلى أي امرأة. جعلته أحمق للغاية. يا يسوع المسيح! لكنه لم يكن أحمق. يمكنه التحدث. لديه عقل فكّر وتصارع عبر شدائد أعظم بكثير من شدائدها. عن الكتب، لا. لم يكن لديه وقت للكتب في حياته

القلقة المسيّرة. لكنه قرأ بعمق في لغة الحياة أكثر ممّا فعلت، بالرغم من كتبها الشائعة. طفح بعالم من أشياء للتحدث عنها.

عندما جلس هناك يحدق بها ما حسبها المرة الأخيرة، أدرك أنه لم يكن خائفاً من هذه المرأة. وأنه لم يكن يوماً خائفاً منها، وأنها هي من كانت تخشاه. أثارت الحقيقة استياءه، يرتعد عقله من العهر الذي طوّع لحمه. لم ترفع بصرها عن كتابها. لم تر الإهانة المبيّتة تلفّ جانباً من جانبي وجهه. فجأة سرَّ لأنها النهاية. نهض باختيال متّئد وتوجّه نحو النافذة.

" إنها تظلم"، قال." قريباً جداً سأذهب ولن أعود".

وضعت الكتاب تلقائياً.

"هل قلتَ شيئاً، سفيفو؟"

" قريباً جداً، لن أعود مجدّداً".

" لقد كان مبهجاً، أليس كذلك؟"

" أنت لا تفهمين شيئاً"، قال." لا شيء!"

" ماذا تعني؟"

لم يعرف. كان هناك، ولكن ليس هناك. فتح فمه ليتحدث، فتح يديه وبسطهما.

" امرأة مثلك..".

لم يستطع قول المزيد. إذا نجح في ذلك، سيكون قوله ركيكاً وسيّئ التعبير، تململ عبثاً متغلّباً على الشيء الذي أراد شرحه.

"دعه، بانديني، انسه"!

كانت مسرورة لرؤيته يعاود الجلوس، تبتسم تعبيراً عن رضاها وتعود إلى كتابها. نظر إليها بمرارة. لا تنتمي هذه المرأة إلى الجنس البشري. كانت شديدة البرودة، عالة على حيويته. استقبح تهذيبها، كان كذبة. احتقر رضاها عن نفسها، عاف تربيتها الحسنة. بالتأكيد، الآن انتهى وكان ذاهباً، يمكنها أن تضع الكتاب وتتحدث إليه. ربما لن يقولا شيئاً مهماً، لكنه كان راغباً في المحاولة وهي لم تكن كذلك.

"يجب ألا أنسى أن أدفع لك"، قالت.

مئة دولار. عدّها ودسّها في جيبه الخلفي.

" هل هذا كافٍ؟" سألت.

ابتسم:" لو لم أكن بحاجة إلى هذا المال، مليون دولار لن تكون كافية".

" إذاً تريد المزيد. مئتين؟"

من الأفضل ألّا ينازع. من الأفضل أن يذهب إلى الأبد، دون مرارة. دفع قبضتيه في أكمام معطفه ومضغ طرف سيجاره.

"ستأتي لرؤيتي، ألن تفعل؟!"

"ما من شك، سيدة هيلد جاردي!"

لكنه كان متأكداً من أنه لن يعود قط.

" وداعاً، سيّد بانديني!"

" وداعاً، سيدة هيلد جاردي!"

" ميلاد مجيد!"

" ولك أيضاً، يا سيدة هيلد جاردي!"

وداعاً ومرحباً ثانية في أقل من ساعة.

سمعت الأرملة طرقه على الباب ففتحت له، ورأت المنديل المنقّط يغطّي كلّ شيء ما عدا عينيه المحتقنتين بالدم. انقطعت أنفاسها رعباً.

"يا إلهي!"

ضرب الأرض برجليه لينفض الثلج عن قدميه، ونفض صدر معطفه بيد واحدة. لم تر اللذة المريرة في الابتسامة خلف المنديل، ولم تسمع الشتائم الإيطالية المكتومة. كان لشخص ما يد في هذا، ولم يكن سفيفو بانديني. اتهمتها عيناه وهي تدخل، يذوب الثلج عن حذائه مشكلاً بركاً على السجادة.

تراجعت نحو خزانة الكتب، تراقبه بصمت. لسعت حرارة الموقد وجهه. بتأوّه الحنق أسرع إلى الحمّام. تبعته، واقفة عند الباب المفتوح وهو ينتحب في حفنات من الماء البارد. زحفت الشفقة على وجنتيها وهو يلهث. عندما نظر عبر المرآة رأى صورته الممزقة الملتوية وخيبته، وهزّ رأسه في ثورة الرفض.

"آه، مسكين سفيفو! ما كان هذا؟ ما الذي حدث؟"

"ماذا تتخيّلين؟"

"زوجتك؟"

ربّتت على الجروح بكمّ.

"لكن هذا مستحيل!"

"بلى!"

تصلّبت، رفعت ذقنها بفخر.

"أقول لك هذا مستحيل. من أخبرها؟"

"من أين لي أن أعرف؟"

وجد عدّة تضميد في الخزانة وبدأ يمزّق شرائط الشاش واللاصق. كان الشريط اللاصق قاسياً. زعق بوابل من اللعنات على صلابته، ممزّقاً إياه على ركبته بعنف أماله للخلف نحو الحوض. بانتصار رفع الشريط أمام عينيه وشزره.

" لا تكن عنيفاً عليّ!" قال للشريط.

رفعت يدها لمساعدته.

"لا"، قال مزمجراً." ما من قطعة من الشريط بوسعها هزيمة سفيفو بانديني".

التفتت مبتعدة. عندما عادت كان يطبّق الشاش واللاصق، كانت هناك أربعة أشرطة طويلة على كل خدّ، تصل من محجرَي عينيه حتى ذقنه. رآها وكان مجفلاً. كانت قد ارتدت ثياب الخروج: معطف من الفراء، ووشاحاً أزرق، وقبعة، وحذاء مطاطياً. أناقة فتنتها التامة تلك، تلك بساطة قبعتها الصغيرة الغنية المائلة بشكل بشوش جانباً، الوشاح الصوفي الزاهي المنسكب من ياقة فرائها الباذخة، الحذاء الرمادي بإبزيمه الأنيق والقفازين الرماديين الطويلين، ميزتها ثانية بما كانت عليه، امرأة غنية تدلّ ببراعة على اختلافها. شعر بالرعب.

" الباب عند نهاية القاعة هو باب غرفة نوم إضافية"، قالت."سأعود حوالي منتصف الليل".

" هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟"

" إنها عشية عيد الميلاد". قالتها كما لو أنها كانت لتمكث في البيت لو كان يوماً آخر.

رحلت، صوت سيارتها ينجرف حتى يختفي على طريق الجبل. الآن استحوذ عليه دافع غريب. كان وحيداً في المنزل، وحيداً تماماً. مشى نحو غرفتها وتحسّس وفتّش في متاعها. فتح الأدراج، تفحّص الرسائل القديمة والوثائق. على طاولة التسريحة فتح كل زجاجة عطر، اشتمّها، وأعادها تماماً حيث وجدها. تلك كانت رغبة لطالما راودته، تنفجر خارج السيطرة الآن ما دام وحيداً، هذه الرغبة بلمس كلّ ما تملكه، وشمّه وملاطفته وتفحّصه، على مهل. لاطف ثيابها الداخلية، ضغط جواهرها الباردة بين راحتيه. فتح الأدراج الصغيرة الجذابة في مكتبها، تفحّص أقلام الحبر والأقلام الجافة، الزجاجات والصناديق. استرق النظر في الرفوف، باحثاً عبر الحقائب، مزيلاً كل قطعة من الملابس، كل حلية وجوهرة وتذكار، متفحّصاً كل واحدة بعناية، مثمّناً إياها، ثم يعيدها إلى مكانها. هل كان لصّاً يتحسّس الغنيمة؟ هل ينشد غموض ماضي هذه المرأة؟ لا، ولا ثانية. كان هذا عالم جديد وتمنّى أن يعرفه جيداً، وليس أكثر.

كانت الساعة جاوزت الحادية عشرة عندما غرق في السرير العميق في الغرفة الإضافية. كان هذا سريراً لن تعرف عظامه له شبيهاً أبداً. بدا أنه غرق أميالاً قبل أن يسقط في راحة عذبة. ضغطت الأغطية المصنوعة من الساتان والريش حول أذنيه بثقلها الدافئ اللطيف. تنهّد بمايشبه النشيج. هذه الليلة على الأقل، سيكون هناك سلام. استلقى متحدّثاً إلى نفسه بلغة مولده.

" سيكون كل شيء على ما يرام-بضعة أيام وسينسى كل شيء. هي تحتاجني. أطفالي يحتاجونني. بضعة أيام أخرى وسوف تتجاوز الأمر".

من البعيد سمع قرع الأجراس، نداء قدّاس منتصف الليل في كنيسة

القلب الأقدس. نهض على مرفق واحد وأصغى. صباح عيد الميلاد. رأى زوجته تجثو في القداس، أبناءه الثلاثة في موكب ديني عند المذبح الأساسي، والكورس يغني ترنيمة "Adeste Fideles". زوجته ماريا المثيرة للشفقة، سترتدي الليلة تلك القبعة القديمة البالية، القديمة قدم زواجهما، تجدّد سنة بعد سنة لتشابه الصيحات الجديدة قدر الإمكان. الليلة-لا، في تلك اللحظة-عرف أنها جثت على ركبتين تعبتين، شفتاها المرتجفتان تتلوان صلاة من أجله ومن أجل أطفاله. يا نجمة أورشليم! يا مولد الطفل يسوع!

رأى من خلال النافذة ندف الثلج المتساقطة، سفيفو بانديني في سرير امرأة أخرى، بينما زوجته تصلي لروحه الخالدة. تمدّد إلى الوراء، يرشف الدموع الكبيرة التي سالت على وجهه المضمّد. غداً سيذهب إلى البيت ثانية. كان عليه أن يفعل. على ركبتيه سيتوسل طالباً الغفران والسلام. على ركبتيه، بعد أن يذهب الأولاد وينفرد بزوجته. لن يفعل هذا أبداً في حضورهم. الأولاد قد يضحكون ويفسدون الأمر برمته.

نظرة إلى المرآة في صباح اليوم التالي قتلت تصميمه. كانت هناك صورة شنيعة لوجهه المنهوب، بدا الآن قرمزيّاً ومتورّماً، انتفاخات سوداء تحت العينين. لا يمكنه أن يلتقي أيَّ رجل، بتلك الندوب الفاضحة. أبناؤه قد يرتدّون مرتعبين. هدر وشتم، رمى نفسه في كرسي وشدّ شعره. يا يسوع المسيح! لم يجرؤ على المشي في الشوارع. لن يفشل رجل، بمجرّد رؤيته، في قراءة لغة العنف التي خربشت على طلعته. لأن كل الأكاذيب التي قد يرويها-أنه وقع في الثلج، وأنه تشاجر مع رجل في لعبة ورق-لن يكون هناك شك في أنّ يدَي امرأة مزّقتا خدّيه.

ارتدى ثيابه، وعلى أطراف أصابعه مرّ بباب الأرملة المغلق إلى المطبخ، حيث تناول فطوراً من الخبز والزبدة والقهوة السوداء. بعد أن غسل الأطباق

عاد إلى غرفته. رأى بطرف عينه نفسه في مرآة التسريحة. أغضبه الانعكاس كثيراً فأغلق قبضتيه بإحكام، وكظم الرغبة بتحطيم المرآة. يئنّ ويلعن، رمى نفسه على السرير، رأسه يتقلّب من جانب إلى آخر، عندما أدرك أنه قد يكون ضعيفاً مدة أسبوع إلى أن تشفى الخدوش ويخف التورّم، فيكون وجهه مناسباً لنظرة المجتمع البشري.

يوم عيد ميلاد غائم. توقّف تساقط الثلج. استلقى يستمع إلى دمدمة الكتل الجليدية الذائبة. نحو الظهر سمع طرق براجم الأرملة المحترس على الباب. عرف أنها هي، ومع ذلك قفز من السرير مثل مجرم تطارده الشرطة.

" هل أنت هناك؟" سألت.

لم يستطع مواجهتها.

" لحظة!" قال.

بسرعة فتح درج التسريحة العلوي، وسحب منشفة يد، وضغطها على كامل وجهه، ما عدا عينيه. ثم فتح الباب. إذا أجفلها محيّاه فهي لم تظهر ذلك. كان شعرها مرفوعاً إلى الأعلى في شبكة رقيقة، هيئتها الممتلئة ملفوفة في عباءة زهرية اللون مزركشة.

" ميلاد مجيد!" ابتسمت.

" وجهي"، اعتذر مشيراً إليه." المنشفة تحافظ عليه دافئاً. تجعله يشفى سريعاً".

" هل نمت جيداً؟"

" أفضل سرير نمت فيه على الإطلاق. سرير ممتاز، وثير جداً".

عبرت الغرفة وجلست على طرف السرير، تنطّط نفسها تجريبياً.

" عجباً!" قالت." إنه أطرى من سريري!"

" سرير جيد جداً، حسن جداً".

تردّدت، ثم وقفت. عيناها لاقتا عينيه دون مواربة.

" تعرف بأنه مرحّب بك"، قالت." أتمنى أن تبقى!"

ماذا ينبغي عليه أن يقول؟ وقف صامتاً، عقله يفتش عن إجابة مناسبة. "سأدفع لكِ مقابل الطعام والغرفة"، قال." أياً كان ما تطلبين، سأدفع".

" عجباً، يا لها من فكرة!" أجابت." لا تتجاسر على التلميح إلى شيء كهذا! أنت ضيفي. هذا ليس نزلاً-هذا بيتي!"

" أنت امرأة طيبة، يا سيدة هيلد جاردي. امرأة ممتازة".

" هراء!"

لا يهم، لقد قرر أن يدفع لها. يومين أو ثلاثة أيام، إلى أن يشفى وجهه... دولارين في اليوم... ليس المزيد من الشيء الآخر.

كان هناك أمر آخر:

" علينا أن نكون حذرين للغاية"، قالت." أنت تعلم كيف يتحدث الناس".

" أعلم، حسناً!" أجاب.

كان لا يزال هناك شيء آخر. نبشت أصابعها في جيب العباءة. مفتاح مرفق به سلسلة خرزية.

" هذا للباب الجانبي"، قالت.

رمته في راحة يده المفتوحة وتفحّصه، مدّعياً أنه أكثر الأشياء استثنائية،

لكنه لم يكن سوى مفتاح، وبعد حين دفعه في جيبه.

مسألة أخرى:

أملت ألا يمانع، لكنه كان يوم عيد الميلاد، هذا الأصيل تنتظر ضيوفاً. هدايا عيد الميلاد وما شابه.

" لذا ربما من الأفضل".

" بالتأكيد"، قاطعها." أعلم".

" ما من داع كبير للعجلة. ساعة تقريباً".

ثم غادرت. جلس على السرير ساحباً المنشفة من على وجهه، وفرك ظاهر عنقه بدهشة. ثانية لاقت نظرته الصورة القبيحة في المرآة. Dio Chris-to! لقد بدا أكثر سوءاً بكل الأحوال. ما الذي سيفعله الآن؟

فجأة رأى نفسه في ضوء آخر. أثارته تفاهة موقفه. يا له من مغفل! ذلك أنه يمكن أن يساق من أنفه لأن أناساً كانوا قادمين إلى هذا المنزل؟ هو لم يكن مجرماً، كان رجلاً، رجلاً جيداً أيضاً. لديه مهنة. ينتسب إلى نقابة العمال. كان مواطناً أمريكياً. أباً، ولديه أبناء. ولم يكن بيته بعيداً، ربما لا يملكه، لكنه بيته، سقف له. ما الذي حلّ به ليتوجب عليه التسلل والتخفي مثل قاتل؟ ارتكب خطأ–certamente–لكن في أي مكان على وجه الأرض يوجد رجل لم يرتكب خطأ؟

وجهه–باه!

وقف أمام المرآة وابتسم هازئاً. نزع الضمادات واحدة فواحدة. كانت هناك أشياء أكثر أهمية من وجهه. عدا أنه خلال أيام سيتعافى كوجه جديد. لم يكن جباناً، كان سفيفو باندينى، أولاً وأخيراً، رجلاً شجاعاً. ولسوف يقف

وقفة رجل أمام ماريا ويطلب منها السماح. لن يتضرع أو يتوسل. سامحيني، سيقول. سامحيني. لقد اقترفت خطأ لن يتكرر ثانية.

عازماً سرَت فيه رعشة من الرضا. اختطف معطفه، شدّ قبعته على عينيه، وخرج بهدوء من المنزل دونما كلمة للأرملة.

عيد الميلاد! ألقى بصدره فيه، التقط أنفاساً عميقة منه. أيَّ عيد ميلاد سيكون هذا! كم جميل أن تعزّز شجاعة قناعاته. بهجة أن تكون رجلاً شجاعاً شريفاً!عندما وصل إلى أول شارع ضمن حدود المدينة، رأى امرأة بقبّعة حمراء تدنو منه. كان اختباراً لوجهه. رمى أكتافه إلى الخلف وأبرز ذقنه. سرَّه أن المرأة لم تنظر إليه سوى نظرة سريعة. صفر بقية الطريق إلى البيت 'Adeste Fideles'.

ماريا، ها أنا قادم!

لم يكن الثلج في الممر الأمامي قد جُرف بعد. إذاً، كان الأولاد يتكاسلون عن العمل في غيابه. حسناً، سيضع حداً لهذا في الحال. من الآن فصاعداً، ستسير الأمور على نحو مختلف. ليس هو فقط، لكن العائلة بأجمعها ستقلب صفحة جديدة، بدءاً من هذا اليوم.

غريب، لكن الباب الرئيس كان مقفلاً، الستائر مسدلة. ليس غريباً جداً: تذكّر أنه يوم عيد الميلاد، كان هناك خمسة قداديس في الكنيسة، القداس الأخير عند الساعة الثانية عشرة ظهراً. سيكون الأولاد هناك. ماريا، بأية حال، لطالما ذهبت إلى قداس منتصف الليل عشية عيد الميلاد. إذاً، لابد أن تكون في البيت. ضرب على الحاجب دون أن يظفر بجواب. ثم ذهب إلى الباب الخلفي وكان مقفلاً أيضاً. استرق النظر من نافذة المطبخ. قمع من البخار يتصاعد من إبريق الشاي على الموقد وعرف أنه لا بد من وجود أحد

هناك. ضرب ثانية هذه المرة بكلتا قبضتيه. لا جواب.

" يا للشيطان"!تبرّم، مواصلاً الدوران حول المنزل نحو نافذة غرفة نومه. كان هنا حجاب النافذة مسدلاً، لكن النافذة كانت مفتوحة. خدشها بأظافره، منادياً باسمها.

" ماريا. أوه، ماريا".

"من؟" كان الصوت وسنان

"إنه أنا، ماريا. افتحي!"

" ماذا تريد؟"

سمع صوت نهوضها من السرير وحركة كرسي، كما لو أنه خبط في الظلمة. فتحت الستائر من الجانب ورأى وجهها، منتفخاً من النوم، عيناها حائرتان ومنسحبتان من الثلج الأبيض المبهر. غصّ، وضحك قليلاً من فرح وخوف.

"ماريا!"

" اذهب"! قالت." لا أريدك".

أغلقت الستائر ثانية.

" لكن ماريا اسمعي!"

كان صوتها مشدوداً ومهتاجاً.

" لا أريد أن تقترب مني. اذهب. لا أطيق رؤيتك!"

ضغط الحاجب براحتي يديه ووضع رأسه عليه، يستعطفها:" ماريا، أرجوك. لديّ شيء أودّ قوله لك. افتحي الباب ماريا، دعيني أتحدّث".

" يا إلهي"! صرخت". اذهب، اذهب! أكرهك، أكرهك"! ثم كان سمع صوت شيء يتحطّم عبر الستارة الخضراء، ومضة، عندما نفض رأسه جانباً، والتمزّق الشديد لسلك الحاجب قريب جداً من أذنه حتى أنه شعر بأنه أصيب. من خلاله سمعها تنشج وتشهق. تراجع وتفحّص الستارة المكسورة والحاجب. كان مقصّ خياطة طويل متوارياً في الحاجب، يثقب المقبض. كان يتصبّب عرقاً من كل مسامه وهو عائد إلى الشارع، وكان قلبه يخفق مثل مطرقة ثقيلة. مدّ يده إلى جيبه ليخرج منديلاً، مسّت أصابعه شيئاً بارداً ومعدنياً. كان المفتاح الذي أعطته إياه الأرملة.

جيد، إذاً. ليكن!

الفصل التاسع

انتهت عطلة عيد الميلاد واستؤنفت الدراسة في السادس من كانون الثاني. كانت عطلة مشؤومة، بائسة تماماً وحافلة بالنزاعات. قبل ساعتين من الجرس الأول جلس أوغست وفدريكو على الدرج الأمامي لمدرسة سانت كاثرين، ينتظران أن يفتح البوّاب الباب. كانت المدرسة خيراً من البيت بكثير مع أن التصريح بذلك لم يكن فكرة جيدة. لكن ليس بالنسبة لآرتورو.

كان كل شيء أفضل من اللقاء بروزا ثانية. غادر البيت قبل بضع دقائق من وقت الحصة الدراسية، يمشي متمهّلاً، مفضّلاً أن يتأخر فيتفادى أدنى احتمال للقائها في الردهة. وصل بعد قرع الجرس بخمس عشرة دقيقة، يجرجر نفسه على الدرج كما لو أن ساقيه مكسورتان. تغيّر سلوكه في اللحظة التي مسّت فيها يده مقبض باب غرفة الصف. نشيطاً ويقظاً، يلهث كما لو أنه كان يجري جرياً سريعاً، أدار المقبض، أسرع في الدخول وتوجّه إلى مقعده على أطراف أصابعه مستعجلاً.

كانت الأخت ماري سيليا عند السبورة، في جهة الغرفة المقابلة لمنضدة روزا. كان مسروراً، لأن هذا أغناه عن أي لقاء طائش بعيني روزا الرقيقتين. كانت الأخت سيليا تشرح مساحة المثلث القائم الزاوية، وببعض العنف، تناثرت ذرات الطبشور عندما ساطت السبورة بأرقام كبيرة جريئة، لمعان عينها الزجاجية أكثر من أي وقت مضى عندما سدّدت باتجاهه، وعادت إلى السبورة. تذكّر الشائعة التي سرت بين الأولاد عن العين: أنه عندما تنام ليلاً،

تتوهّج العين الموضوعة على تسريحتها، تحدق بانتباه، وتصبح أكثر سطوعاً إذا كان هناك لصوص في الأرجاء. أنهت عملها عند السبورة، نفضت يديها لتنظّفهما من الطبشور.

" باندينى"، قالت". لقد بدأت العام الجديد كما هو متوقع. قدِّم شرحاً من فضلك!"

وقف.

" هذا يوشك أن يكون جيداً"، همس أحدهم.

" لقد ذهبت إلى الكنيسة وتلوت صلاة المسبحة"، قال آرتورو". أردت أن أقدم السنة الجديدة للعذراء المباركة".

كان هذا لا يقبل الجدل دوماً.

" كلام فارغ"، همس أحدهم.

" أريد أن أصدقك"، قالت الأخت سيليا". مع أني لا أستطيع. اجلس".

انحنى على مقعده، يستر الجانب الأيسر من وجهه بيديه المجوفتين. استمر النقاش الهندسي بنبرة رتيبة. فتح كتابه وبسطه، يخفي وجهه بكلتا يديه. لكن كان يجب أن يلقي نظرة عليها. فتح أصابعه، واسترق النظر من خلالهما. ثم استقام في جلسته.

كان مقعد روزا فارغاً. أرجح رأسه حول الغرفة. لم تكن موجودة. لم تكن روزا في المدرسة. حاول لمدة عشر دقائق أن يكون مرتاح البال مسروراً. ثم رأى الشقراء جيرتي ويليامز في الجهة المقابلة من الممر. كانت جيرتي ورزوا صديقتين.

"بِسْتْ.. جيرتي!"

نظرت إليه.

" هيه جيرتي، أين روزا؟"

" ليست هنا".

" أعرف ذلك، أيتها الحمقاء. أين هي؟"

" لا أعرف، في البيت على ما أظن".

كره جيرتي. لطالما كان يكرهها ويكره فكّها الشاحب الناتئ، دوماً تسير واللبان في فمها. تحصل جيرتي دوماً على درجات جيدة بفضل مساعدة روزا. لكن جيرتي كانت شفّافة جداً، يمكنك أن ترى من خلال عينيها البيضاوين مؤخرة رأسها، حيث لم يكن يوجد شيء، لا شيء على الإطلاق إلا تشوّقها لفتيتها وليس لفتى مثله، لأن أظافره كانت قذرة، وكان لدى جيرتي ذلك المزاج المتحفّظ ما يجعله يشعر بنفورها.

" هل رأيتها مؤخراً؟"

" ليس مؤخراً".

" متى رأيتها آخر مرة؟"

" منذ مدة طويلة".

" متى؟ أيتها الغبية؟"

" في رأس السنة"، ابتسمت جيرتي متشامخة.

"هل غادرت؟ هل ترتاد مدرسة أخرى؟"

" لا أظن ذلك".

" كيف يمكنك أن تكوني بهذا الغباء؟"

" ألا يعجبك؟"

" ماذا تظنين؟"

" إذاً، رجاء لا تتحدث إلي، آرتورو بانديني، لأني بالتأكيد لا أريد التحدث إليك!"

يا للإزعاج! ضاع يومه. كان كل تلك السنوات مع روزا في نفس الصف. أحبّها طوال سنتين، يوماً بعد يوم، سبع سنوات ونصف السنة وروزا معه في الصف نفسه، والآن كان مقعدها فارغاً. الأمر الوحيد الذي اهتمّ له على الأرض، من بعد البيسبول، وقد رحلت، وليس سوى هواء رقيق يحيط بالمكان الذي أزهر سابقاً بشعرها الأسود. ذلك والمكتب الصغير الأحمر تعلوه طبقة من الغبار. أصبح صوت الأخت ماريا سيليا بارداً ومستصعباً. تلاشى درس الهندسة نحو الإنشاء الإنجليزي. أخرج حوليّة سبالدينج عن البيسبول المنظّم وتفحّص معدلات والي إيمز في الضربات والنزول إلى الملعب، ثالث لاعب بيسبول في فريق توليدو مودهينز في الرابطة الأمريكية.

كان آجنس هوبسن، ذلك الأحمق الصغير، الدجّال، المداهن، بأسنانه الأمامية المعوجّة الموصولة بسلك نحاسي، يقرأ بصوت مرتفع من كتاب (سيدة البحيرة) لوالتر سكوت. كلام فارغ، هراء. تخيّل، ليقتل الملل، معدّل سيرة حياة والي إيمز المهنيّة وقارنها بسيرة نايك كولوب، محطّم السياج الجبار مع فريق كراكرز أتلانتا، هناك في الرابطة الجنوبية. كان معدل كولوب، بعد ساعة من الحسابات المعقّدة امتدّ على خمس صفحات ورقية، يتفوّق على والي إيمز بعشر نقاط.

تنهّد عن طيب خاطر. كان هناك شيء ما في ذلك الاسم-نايككولوب- فيه خبطة ولكمة، سرّه ذلك أكثر من والي إيمز العادي. انتهى إلى كراهية إيمز واستغرق في التفكير بكولوب، كيف شكله؟ عمّ يتحدّث؟ ماذا سيفعل إذا أرسل آرتورو إليه رسالة طالباً توقيعه؟ كان اليوم مرهقاً. فخذاه آلماه وعيناه دمعتا بنعاس. تثاءب وهزئ دون تمييز بكل ما ناقشته الأخت سيليا. أمضى الأصيل نادماً بشدة على أمور لم يفعلها، الغواية التي قاومها، خلال العطلة التي انتهت الآن وذهبت إلى غير رجعة.

الأيام القاتمة، الأيام الحزينة.

كان صباح اليوم التالي في الوقت المحدّد، يمشي الهوينى وهو يقترب من المدرسة، ليتزامن وصوله مع قرع الجرس تماماً عندما عبرت قدماه العتبة الرئيسة. صعد الدرج سريعاً وكان يتطلّع نحو مقعد روزا قبل أن يراه من خلال جدار حجرة المعاطف. كان المقعد فارغاً. نادت الأخت ماري سيليا على الأسماء:

بايني! - حاضر.

بينيجلي! - حاضر.

بينيللي!

صمت.

شاهد الراهبة تضع حرف X في سجلّ الدوام. زلقت السجل في درج المكتب ودعت التلاميذ ليؤدّوا صلوات الصباح. بدأت المحنة ثانية.

" أخرِجوا كتب الهندسة!"

اقفز في البحيرة، فكّر.

بست جيرتي.

" هل رأيت روزا؟"

"لا".

" هل هي في البلدة؟"

" لا أعرف".

" هي صديقتك لماذا لا تسألين؟"

" ربما سأفعل وربما لا".

" فتاة لطيفة".

" لا يعجبك؟"

" أحبّ أن ألكم ذلك اللبان في حنجرتك".

" مع ذلك، لن تفعل!"

عند الظهيرة تمشّى نحو ملعب البيسبول. لم ينهمر الثلج منذ عيد الميلاد. كانت الشمس في السماء ضارية، صفراء حانقة، تنتقم لنفسها من عالم ضخم نام وتجمّد في غيابها. تدهورت كتل الثلج الصغيرة من أشجار الحور العارية حول ملعب الكرة، تتساقط على الأرض وتنجو للحظة عندما يطويها ذلك الفم الأصفر في السماء، في النسيان. رشح بخار من الأرض، نسيج ضبابي ينزّ من الأرض وينسلّ خلسة. في الغرب عدت الغيوم العاصفة في انسحاب صاخب، موقفة هجومها على الجبال، ترفع الذرا الكبيرة البريئة شفاهها الناتئة شاكرة نحو الشمس.

يوم دافئ، لكنه شديد الرطوبة للعب البيسبول. غاصت قدماه في

الوحل الأسود المتبخّر حول صندوق الرامي. ربما غداً. أو بعد غد. لكن أين روزا؟ اتّكأ على إحدى أشجار الحور. هذه كانت أرض روزا. هذه كانت شجرة روزا. نظرت إليها، وربما لمستها. وهذه جبال روزا، وربما تنظر إليها الآن. كل ما نظرت إليه هو ملكها، وكل ما ينظر إليه ملك لها.

مرّ بمنزلها بعد المدرسة، سائراً على الجانب المقابل من الشارع. مرّ كات بلاج ويجينز، الذي يوزّع جريدة دنفر بوست، على دراجته، لا مبالياً ينفق صحف المساء على كل شرفة. صفر آرتورو ولحق به.

" هل تعرف روزا بينيللي؟"

تفل كات بلاج سيلاً من عصارة التبغ على الثلج." هل تعني السيدة الإيطالية على بعد ثلاث منازل في الشارع؟ بالتأكيد أعرفها، لماذا؟"

" هل رأيتها مؤخراً؟"

" لا".

" متى رأيتها آخر مرة، يا كات بلاج؟"

انحنى كات بلاج على مقود الدراجة، مسح العرق عن وجهه، وتفل عصارة التبغ ثانية، وتناهى إلى فحص دقيق. وقف آرتورو بصبر، آملاً أن يسمع أخباراً جيدة.

" رأيتها آخر مرة منذ ثلاث سنوات"، قال كات بلاج أخيراً." لماذا؟"

" لاشيء"، قال." انس الأمر!"

منذ ثلاث سنوات! وقد قالها الأحمق كما لو أن الأمر لا يهمّ.

الأيام القاتمة، الأيام الحزينة.

كان البيت في هرج ومرج. وصلوا من المدرسة، وجدوا الأبواب مفتوحة، يسكنه هواء المساء البارد. كانت المواقد مطفأة، مطامرها تهرق الرماد. أين هي؟ وبحثوا. لم تبتعد كثيراً يوماً، أحياناً في المرعى في الإسطبل الحجري القديم، جلست على صندوق تستند على الجدار، شفتاها تتحركان. فيما مضى بحثوا عنها طويلاً بعد حلول الظلام، في جميع الأنحاء المجاورة، يسترقون النظر إلى الإسطبلات والسقائف، يفتشون عن آثار أقدامها على طول ضفاف النهير الصغير الذي اسمرّ أثناء الليل، جعجاعاً مجدّفاً، يأكل الأرض والأشجار وهو يزمجر معلناً تمرّده. وقفوا على الضفة وراقبوا التيار الهادر. لم يتكلموا. انتشروا وبحثوا جيئة وذهاباً. بعد ساعة عادوا إلى المنزل. أشعل آرتورو النار. أوغست وفدريكو احتشدا فوقه.

" ستعود إلى البيت قريباً جداً".

" بالتأكيد".

" ربما ذهبت إلى الكنيسة".

" ربما".

سمعوها تحت أقدامهم. وجدوها هناك تحت في القبو، تجثو على برميل نبيذ بابا ذاك الذي تعهّد ألا يفتحه إلا بعد مرور عشر سنوات. لم تلقِ بالاً لتضرّعاتهم. نظرت ببرود إلى عيون أوغست التي تسفح الدمع. عرفوا أنهم ليسوا على شيء من الأهمية. أمسك آرتورو ذراعها بلطف لينهضها. صفعته سريعاً بظاهر يدها على وجهه. أحمق. ضحك، خجلاً بعض الشيء، واقفاً ويده تمسّ خدّه الأحمر.

" دعوها وشأنها"! قال لهما." تريد أن تكون بمفردها".

أمر فدريكو أن يجلب لها غطاء. سحب واحداً من على السرير ونزل

به، رفعه ورماه على كتفيها. أنهضت نفسها، فانزلق الغطاء وغطى ساقيها وقدميها. لم يكن هناك شيء آخر يمكن فعله. صعدوا للأعلى وانتظروا.

ظهرت بعد وقت طويل. كانوا حول طاولة المطبخ، يعبثون بكتبهم محاولين أن يكونوا مجتهدين، أن يكونوا أولاداً صالحين. رأوا شفتيها الأرجوانيتين. وسمعوا صوتها الشاحب.

" هل تعشّيتم؟"

بالتأكيد تعشّوا. عشاء رائعاً أيضاً. أعدّوه بأنفسهم.

" ماذا أكلتم"؟

كانوا يخشون الإجابة.

إلى أن تكلم آرتورو: " الخبز والزبدة".

" لا يوجد زبدة"، قالت." لم يكن هناك زبدة في هذا المنزل منذ ثلاثة أسابيع".

هذا جعل فدريكو ينفجر بالبكاء.

كانت نائمة في الصباح عندما غادروا إلى المدرسة. أراد أوغست أن يدخل ويقبّلها قبلة الوداع. وكذلك فعل فدريكو. أرادوا أن يقولوا شيئاً عن غدائهم، لكنها كانت نائمة، تلك المرأة الغريبة على السرير، التي لم تحبّهم.

" من الأفضل أن تدعوها وشأنها".

تنهّدا وغادرا إلى المدرسة. أوغست وفدريكو معاً، ثم لحق بهم آرتورو بعد وقت قصير، بعد أن أطفأ النار وألقى بنظرة أخيرة على المكان. هل يجب عليه أن يوقظها؟ لا، دعها نائمة. ملأ كأس ماء ووضعه على الطاولة الجانبية. ثم خرج على رؤوس أصابعه وذهب إلى المدرسة.

بست جيرتي.

" ماذا تريد؟"

" هل رأيت روزا؟"

"لا".

" ماذا حلّ بها بأية حال؟"

"لا أعرف".

"هل هي مريضة؟"

"لا أظن بذلك".

" لا يمكنك أن تفكري. أنت بلهاء للغاية".

" إذاً، لا تتحدّث إلي!"

خرج ظهراً إلى الملعب ثانية. كانت الشمس لا تزال حانقة. تيبّس السور حول المضمار، وذاب معظم الثلج. كان هناك بقعة أمام سياج الملعب اليميني في الظلال حيث كوّمت الرياح الثلج ورمت شريطاً قذراً عليه. لكنه كان جافاً بما فيه الكفاية في أماكن أخرى، طقس مثاليّ للتمرين. أمضى بقية ساعة الظهيرة يستقصي أعضاء الفريق. ماذا عن التمرين الليلة؟ - الأرض مثالية. أصغوا إليه بوجوه غريبة، حتى رودريجز، الحارس، الوحيد من بين جميع طلاب المدرسة الذي أحبّ البيسبول بتعصّب حاله هو. انتظر، قالوا له. انتظر حتى الربيع، بانديني. ناقشهم في ذلك. وفاز في النقاش. لكن بعد المدرسة، بعد الجلوس وحيداً لساعة تحت أشجار الحور التي تحيط بالملعب، عرف أنهم لن يأتوا، ومشى إلى البيت ببطء. مرّ بمنزل روزا، على الجانب نفسه من الشارع، تماماً عند حديقة منزل روزا الأمامية. كان العشب شديد

الخضرة نضراً، تمكّن من تذوّقه بفمه. خرجت امرأة من المنزل المجاور، أخذت صحيفتها، تفحّصت العناوين، وحدقت به بارتياب. أنا لا أفعل شيئاً: أنا فقط أمرّ. مصفراً ترنيمة، تابع سيره في الشارع.

الأيام القاتمة، الأيام الحزينة.

أنهت أمه التنظيف ذلك اليوم. وصل إلى البيت عبر الزقاق ورأى الغسيل منشوراً على الحبل. تنامت الظلمة وفجأة حلّ البرد. الغسيل المعلّق صلب ومتجمّد. لمس كل رداء متصلّب وهو يصعد الدرب، ممرّراً يده عليه حتى آخر الحبل. زمن غريب لغسيل الملابس، لأن الاثنين كان دوماً يوم الغسيل. اليوم هو الأربعاء، ربما الخميس، بالتأكيد لم يكن الاثنين. غسيل غريب أيضاً. توقّف على الشرفة الخلفية ليفسّر الغرابة. ثم رأى ما كانت: كل قطعة ملابس معلقة هناك، نظيفة وصلبة، تعود لأبيه. لاشيء له أو لأخويه، ليس حتى جورباً.

دجاج على العشاء. وقف في الباب وترنّح عندما ملأت رائحة الدجاج المحمّص منخريه. دجاج، لكن كيف؟ كان توني الطائر الوحيد الذي بقي في القنّ، الديك الكبير. لن تقتل أمه توني. أحبّت أمه توني ذاك بعرفه السميك المرح وريشه الجميل المختال. لقد وضعت خلخالاً أحمر سميكاً في ساقيه المنخوستين، وضحكت على تبختره المفرط. لكنه كان توني: رأى على لوح التجفيف الخلاخل مكسورة نصفين مثل ظفرين حمراوين.

خلال وقت قصير مزّقوه إرباً، مع أنه كان قاسياً. لكن ماريا لم تمسسه. غمست رغيفاً في غشاوة صفراء من زيت الزيتون مفرودة على صحنها. تذكار طوني: يا له من ديك! تأمّلوا في عهد حكمه الطويل في حظيرة الدجاج: تذكّروه حينذاك. غمست ماريا خبزها في زيت الزيتون وحدّقت.

" شيء يحدث لكن لا يمكنك أن تعرف"، قالت." لأنه إذا كنت تؤمن بالله عليك أن تصلي، لكني لن أفصح".

توقفت فكوكهم ونظروا إليها.

صمت.

" ماذا تقولين ماما؟"

" لم أنبس بكلمة".

تبادل فدريكو وأوغست النظرات وحاولا الابتسام. ثم شحب وجه أوغست، ونهض وغادر الطاولة. اختطف فدريكو قطعة من اللحم الأبيض وتبعه. وضع آرتورو قبضتيه تحت الطاولة وعصرهما إلى أن جلب له ألم راحتيه رغبة في البكاء.

" يا لها من دجاجة!" قال". عليك أن تذوقيها ماما، فقط تذوّقيها".

" مهما كان يحدث، يجب أن يكون عندك إيمان"، قالت." ليس لدي فساتين جميلة ولا أذهب إلى الرقص معه، لكن عندي إيمان، وهم لا يعرفون ذلك. لكن الرب يعرف، والعذراء مريم، ومهما كان ما يحدث فهما يعرفان بأمره. أحياناً أجلس هنا طوال اليوم، ومهما كان ما يحدث فهم يعلمون، لأن يسوع مات على الصليب".

" بالتأكيد يعلمون"، قال.

نهض ووضع ذراعيه حولها وقبّلها. نظر في صدرها: النهدين الأبيضين المترهلين، وفكر بطفل صغير، بفدريكو في طفولته.

" بالتأكيد يعلمون"، قال ثانية. لكنه شعر بأنه قادم من أخمص قدميه، ولم يستطع تحمّله." بالتأكيد يعلمون ماما!"

قذف كتفيه إلى الخلف وخرج من المطبخ متهادياً نحو خزانة الملابس في غرفته. أخرج كيس غسيل نصف ممتلئ من الخطاف خلف الباب، وضغطه حول وجهه وفمه. ثم أفرج عنه، يعوي ويبكي إلى أن آلمته خاصرتاه. عندما انتهى، جافّاً ونظيفاً من الداخل، لا ألم سوى اللسعة في عينيه عندما دخل نور غرفة الجلوس، عرف أن عليه أن يجد والده.

" راقِباها"، قال لأخويه. كانت قد عادت إلى السرير ويمكن لهما أن يرياها من خلال الباب المفتوح، وجهها نحو الجهة الأخرى.

" ماذا سنفعل إذا فعلت شيئاً؟" قال أوغست.

" لن تفعل شيئاً. كن هادئاً ولطيفاً!"

ضوء القمر ساطع بما فيه الكفاية للعب الكرة. سلك طريقاً مختصراً عبر الجسر المحمول. تحته، تحت الجسر، اجتمع عابرون حول نار حمراء وصفراء. عند منتصف الليل سوف يتلقّفون الحمولة السريعة إلى دنفر، ثلاثين ميلاً. وجد نفسه يتفحّص الوجوه، باحثاً عن وجه أبيه. لكن باندينى لن يكون هناك، كان يمكن أن يجد والده في قاعة البلياردو أو في غرفة روكو ساتشوني. والده ينتسب إلى النقابة، لن يكون هناك.

ولم يكن في قاعة لعب الورق في قاعة الإمبريال.

جيم الساقي.

" غادر منذ ساعتين مع الحجّار الإيطالي ذاك".

"تقصد روكو ساتشوني؟"

" هذا هو، ذلكَ الإيطالي ذو العيون الجميلة".

وجد روكو في غرفته، جالساً إلى طاولة مذياع بحذاء النافذة، يأكل

الجوز ويصغي إلى موسيقا الجاز. كانت صحيفة مفرودة عند قدميه لتلتقط قشور الجوز. وقف عند الباب، جعلته الظلمة الخفيفة في عيون روكو يعرف أنه لم يكن مرحّباً به. لكنّ أباه لم يكن في الغرفة ولا ما يدلّ عليه.

" أين والدي، يا روكو؟"

"ومن أين لي أن أعرف؟ إنه والدك وليس والدي".

لكن كانت له موهبة ولد في معرفة الحقيقة.

" ظننت أنه يعيش هنا معك".

" إنه يسكن وحده".

تفحّصه آرتورو: كذبة.

" أين يسكن يا روكو؟"

قلب روكو يديه.

" لا يمكنني القول، لم أعد أراه".

كذبة أخرى.

" يقول جيم الساقي بأنك كنت معه الليلة".

قفز روكو على قدميه ولوّح بقبضته.

" جيم ذاك، إنه يكذب النذل! يتدخل فيما لا يعنيه، والدك رجل يعرف ما يفعله".

الآن عرف.

"روكو"، قال." هل تعرف امرأة تدعى إيفي هيلد جاردي".

بدا روكو مشوّشاً." إيفي هيلد جاردي"؟ تفرّس في السقف." من تكون تلك المرأة؟ ولماذا تريد أن تعرف"؟

" لا شيء".

كان واثقاً من ذلك. هرع روكو وراءه نحو القاعة، يصرخ عليه من أعلى الدرج." أيها الولد! إلى أين أنت ذاهب الآن؟"

" إلى البيت".

" جيّد"، قال روكو." البيت مكان جيد للأولاد".

هو لا يقطن هنا. في منتصف الطريق نحو شارع هيلد جاردي عرف أنه لا يجرؤ على مواجهة أبيه. ليس لديه أحقّية هنا. كان حضوره تطفّلياً، وقحاً. كيف يمكنه أن يطلب من لأبيه(أبيه) أن يأتي إلى المنزل؟ لنفترض أن والده أجاب: اخرج من هنا واذهب إلى الجحيم!؟ وكان يعرف أن ذلك تماماً ما قد يقوله والده. كان من الأفضل أن يستدير ويعود إلى البيت، لأنه كان يتحرّك في حيّز يفوق خبرته. كانت هناك امرأة مع والده. وهذا جعل الأمر مختلفاً. الآن تذكّر شيئاً: مرة عندما كان أصغر سناً رأى والده في قاعة البلياردو. نهض والده من الطاولة وتبعه إلى الخارج. ثم وضع أصابعه حول حلقه، ليس بقسوة، ولكن كان يقصدها، وقال: لا تفعل هذا ثانية!

كان خائفاً من والده، خائفاً حتى الموت من والده. لقد ضربه والده ثلاث مرات في حياته فقط. فقط ثلاث، لكنها كانت عنيفة مخيفة لا تنسى. لا، شكراً لك: لن تتكرّر.

وقف في ظلال أشجار الصنوبر القائمة المزروعة في الطريق الدائري، حيث امتداد المرج بسط نفسه نحو الكوخ الحجري. كان هناك ضوء خلف الستائر المعدنية في نافذتين أماميتين، لكن الستائر أدّت مهمتها. منظر ذلك

الكوخ واضح جداً في ضوء القمر ووهج الجبال البيضاء الشاهقة في الغرب، يا له من مكان جميل! جعله فخوراً جداً بأبيه. لا ينفع الكلام: هذا كان جميلاً جداً. كان والده كلباً وضيعاً وكل تلك الأمور، لكنه كان في ذلك الكوخ الآن، وبالتأكيد هذا يثبت شيئاً. لا يمكنك أن تكون شديد الوضاعة إذا استطعت أن تدخل في شيء مثل ذلك. أنت تماماً رجل بابا. أنت تقتل ماما، لكنك رائع. أنت وأنا. لأنه يوماً ما سأفعل أيضاً، واسمها روزا بنيللي.

تسلّل عبر الدرب المفروش بالحصى نحو شريط من مرج نديّ يتحرّك باتجاه المرآب والحديقة خلف المنزل. فوضى من حجر مقطوع، ألواح خشبية، صناديق ملاط، وغربال رمل في الحديقة أنبأت عن أن والده يعمل هنا. شقّ طريقه نحو المكان على أطراف أصابعه. الأمر الذي كان يبنيه، أياً يكن، واقفاً مثل متراس أسود، يغطّيه قشّ وخيش ليحمي الملاط من التجمّد.

فجأة شعر باكتئاب شديد. ربما لم يكن والده يعيش هنا على الإطلاق. ربما كان فقط بنّاء عاديّاً يغادر كل ليلة ويعود في الصباح. رفع الخيش. كان حجر دكّة أو ما شابه، لم يهتمّ. كان الأمر برمته خدعة. لم يكن والده يعيش مع أغنى امرأة في البلدة. يا للجحيم! كان فقط يعمل لصالحها. عاد إلى الطريق باشمئزاز، نحو وسط الدرب المفروش بالحصى، مخذولاً أشدّ الخذلان، فلم تزعجه قرقشة الحصى وصراخه تحت قدميه.

عندما وصل إلى شجرات الصنوبر، سمع قرقعة قفل. في الحال تسطّح على وجهه في سرير من إبر الصنوبر الرطبة، طعن عمود نور من باب الكوخ الليل الصافي. خرج رجل من الباب ووقف على حافة الشرفة القصيرة، قرب فمه رأس سيجار أحمر مشتعل مثل بليّة حمراء. كان بانديني. نظر إلى السماء وأخذ أنفاساً عميقة من الهواء البارد. تململ آرتورو بالبهجة. يا يهوذا الوثّاب المقدّس! لكنه بدا رائعاً! ارتدى خفّين أحمرين زاهيين، بيجاما زرقاء، وثوباً

أحمر منزلياً له شرابات بيضاء على أطراف زناره. يا جيميني الوثاب المقدس! بدا مثل هيلمر المصرفي والرئيس روزفلت. بدا مثل ملك إنكلترا. أوه يا فتى، يا له من رجل! بعد أن دخل والده وأغلق الباب خلفه عانق الأرض مبتهجاً، يحفر بأسنانه في إبر الصنوبر اللاذعة. فكر بأنه أتى إلى هنا ليجلب والده إلى البيت! كم كان مجنوناً. لن يزعج صورة أبيه تلك في بهاء ذلك العالم الجديد، من أجل أيّ شيء. على أمه أن تعاني، يجب أن يجوع هو وأخواه. لكن كان يستحقّه. آه، كم كان منظره رائعاً! راح، وهو يسرع نازلاً التلة هارباً، يقذف أحياناً بحجر في المسيل، غذّى عقلُه نفسَه بشرهٍ، من المشهد الذي غادره لتوّه.

لكن نظرة إلى وجه أمه الهزيل الغائر تنام نوماً غير مريح جعلته يكره والده ثانية.

هزّها.

"" رأيته"، قال.

فتحت عينيها وبلّلت شفتيها.

" أين هو؟"

" يعيش في فندق Rocky Mountain في الغرفة نفسها مع روكو، هو وروكو معاً فقط".

أغمضت عينيها والتفتت عنه مبعدة كتفها عن أدنى لمسة من يده. خلع ملابسه، وأظلم البيت، وزحف نحو السرير ضاغطاً نفسه على ظهر أوغست الدافئ إلى أن غادرته قشعريرة الأغطية. شيء ما أثناء الليل كان يستنهضه. فتح عينيه اللزجتين فوجدها جالسة إلى جانبه، تهزّه لتوقظه. بصعوبة استطاع أن يرى وجهها، لأنها لم تكن قد أضاءت المصباح.

" ماذا قال؟" همست.

"من؟" لكنه تذكر سريعاً ونهض." قال إنه أراد أن يأتي. قال بأنك لن تدعيه. قال بأنك ستطردينه. كان خائفاً من المجيء".

جلست بفخر.

"يستحقّ ذلك"، قالت." لا يمكنه أن يفعل هذا معي".

" بدا حزيناً على نحو مريع. بدا مريضاً".

"هاه!" قالت.

" يريد أن يعود إلى البيت. هو يشعر بالسوء".

" هذا جيّد له"، قالت، وهي تحدّب ظهرها."ربما سيتعلم ما يعنيه البيت بعد هذا. دعه يبقى بعيداً بضعة أيام أخرى. سيأتي زاحفاً على ركبتيه. أعرف ذلك الرجل".

كان متعباً للغاية، غافياً حتى وهي تتحدث.

الأيام القاتمة، الأيام الحزينة.

عندما استيقظ صباح اليوم التالي، وجد أوغست مستيقظاً أيضاً، وأصغيا إلى الضجة التي أيقظتهما. كانت ماما في الغرفة الأمامية، تدفع مكنسة السجاد جيئة وذهاباً، مكنسة السجاد التي راحت تصدر صوتاً ثاقباً. كان الفطور خبزاً وقهوة. بينما كانوا يأكلون صنعت لهم الغداء من بقايا دجاجة البارحة. كانوا مسرورين للغاية: لبست فستانها المنزلي الأزرق اللطيف، وكان شعرها مسرّحاً بإحكام، أكثر ترتيباً من أي يوم مضى، ملفوفاً في هيئة كعكة عند قمّة رأسها. لم يروا سابقاً أبداً أذنيها بهذا الوضوح. كان شعرها مُرخىً عادة، مخفياً إياهما: أذنين جميلتين صغيرتين وزهريتين.

أوغست يتحدث:

" اليوم الجمعة. يجب أن نأكل السمك".

" أغلق وجهك المقدس!" قال آرتورو.

" لا أعرف أنه الجمعة"، قال فدريكو. " لِمَ عليك أن تخبرنا، أوغست؟"

" لأنه أحمق مقدس"، قال آرتورو.

" ليس خطيئة أكل الدجاج يوم الجمعة، إذا كنت لا تستطيع شراء السمك"، قالت ماريا.

حقاً. مرحى لماما. لقد سخروا من أوغست الذي شخر بازدرائه.

" مع ذلك أنا لن آكل الدجاج اليوم".

" حسناً أيها المغفّل!"

لكنه كان متشدّداً. صنعت ماريا له غداء من خبز مغمس في زيت الزيتون ومرشوش عليه الملح. ذهبت حصّته من الدجاج إلى أخويه.

الجمعة. يوم الاختبار. لا روزا.

بست جيرتي.

فرقعت بعلكتها ونظرت باتجاهه.

لا، لم تر روزا.

لا، لا تعرف ما إذا كانت روزا في البلدة.

لا، لم تسمع أي شيء. حتى لو سمعت لن تخبره. لأنها، لتكون صادقة للغاية، لن تتكلم معه.

" أيتها البقرة"، قال. " أيتها البقرة الحلّابة دوماً تجترّين طعامك!"

" داجو!"

احمرّ ونهض جزئياً من مقعده.

" أيتها الكلبة الشقراء الصغيرة القذرة!"

لهثت ودفنت وجهها في رعب.

يوم الاختبار. عند الساعة العاشرة والنصف عرف أنه رسب في امتحان الهندسة. عند جرس الظهر كان لا يزال يجاهد في امتحان إنشاء اللغة الإنجليزية. كان الشخص الأخير في الغرفة، هو وجيرتي ويليامز. أيّ شيء مقابل أن ينتهي قبل جيرتي. تجاهل الأسئلة الثلاثة الأخيرة، غرف أوراقه وسلّمها. عند باب غرفة المعاطف، نظر من فوق كتفه وتهكّم بانتصار على جيرتي، شعرها الأشقر مائل، أسنانها الصغيرة تقضم بشكل محموم طرف قلمها. ردّت على نظرته بنظرة كراهية لا توصف، بعينين قالتا: سأنال منك على هذا آرتورو بانديني: سأنال منك!

عند الساعة الثانية من ذلك الأصيل انتقمت.

بست آرتورو.

وقع المكتوب الذي كتبته على كتاب التاريخ. تلك الابتسامة الوهّاجة على وجه جيرتي، النظرة الوحشية في عينيها، وتوقّف فكّاها عن الحركة، قالت له ألا يقرأ المكتوب. لكنه كان فضولياً.

عزيزي آرتورو بانديني

بعض الناس أذكياء للغاية لصالحهم، وبعض الناس غرباء تماماً ولا يمكنهم تغيير هذا. ربما تظن أنك ذكيّ جداً، لكن الكثير من الناس في هذه المدرسة يكرهونك، آرتورو بانديني. لكن الشخص الذي يكرهك أكثر هي

روزا بينيللي. هي تكرهك أكثر مما أفعل، لأني أعلم أنك إيطاليّ فقير، وإذا بدوت قذراً طوال الوقت لا أهتم. صادف أني علمت أن بعض الناس الذين لا يملكون شيئا سيسرقون، لذا لم أُفاجأ عندما شخص ما (احزر من؟) قال لي إنك سرقت مجوهرات وأعطيتها لابنتها. لكنها كانت شريفة للغاية ولم تحتفظ بها، وأظن أنها أظهرت خلقاً رفيعاً بإعادتها. أرجوك لا تسألني عن روزا بينيللي بعد الآن، آرتورو بانديني، لأنها لا تطيق تحمّلك. الليلة الماضية قالت لي روزا إنك جعلتها ترتجف لأنك كنت رهيباً جداً. أنت غريب، ربما هذا هو السبب.

احزر من؟

شعر بأن معدته تعوم بعيداً عنه، وابتسامة مريضة عبثت بشفتيه المرتجفتين. التفت ببطء ونظر نحو جيرتي، وجهه أحمق ويبتسم باشمئزاز. كان في عينيها الشاحبتين تعبير عن البهجة والندم والرعب. جعّد الورقة، وتدنّى بقدر ما يمكن أن تصل ساقاه، وأخفى وجهه. فيما عدا زمجرة قلبه، كان ميتاً لا يسمع ولا يرى ولا يحس.

خلال فترة قصيرة أدرك الصخب الهامس حوله، من تبرّم وهياج، يرفرف حول الغرفة شيء ما حصل، الهواء ارتعد معه. الأخت المشرفة ابتعدت وعادت الأخت سيليا إلى مكتبها على المنبر.

" الصف سينهض ويجثو!"

نهضوا، وفي سكوت لم ينظر أحد بعيداً عن عينَي الراهبة الهادئتين. "لقد تلقّينا للتو أخباراً مأساوية من مشفى الجامعة!" قالت. " يجب أن نكون شجعاناً، ويجب أن نصلّي. رفيقتنا المحبوبة، توفّيت محبوبتنا روزا بينيللي مصابةً بذات الرئة، عند الساعة الثانية من هذا الأصيل".

كان هناك سمك على العشاء، لأن الجدة دونا أرسلت خمسة دولارات بالبريد. عشاء متأخر: ما إن حلّت الساعة الثامنة حتى جلسوا. ولم يكن هناك أي سبب لذلك. كان السمك مخبوزاً وجاهزاً منذ وقت طويل قبل ذلك، لكن ماريا أبقته في الفرن. عندما اجتمعوا إلى الطاولة كان هناك بعض البلبلة، أوغست وفدريكو يتشاجران على الأمكنة. ثم رأوا ما كان. جهّزت ماما مكان بابا ثانية. " هل هو قادم؟" قال أوغست.

" بالتأكيد قادم"، قالت ماريا. " في أي مكان آخر سيأكل والدكم؟"

حديث غريب. عاينها أوغست. كانت ترتدي ثوباً نظيفاً آخر، الأخضر هذه المرة، وأكلت كثيراً. ابتلع فدريكو حليبه ومسح فمه.

" آرتورو. فتاتك ماتت. كان علينا أن نصلّي من أجلها".

لم يكن يأكل، يربّت على السمك في طبقه بطرف شوكته. لسنتين تفاخر أمام والديه وأخويه بأن روزا كانت فتاته.الآن كان عليه أن يأكل كلماته.

" لم تكن فتاتي، كانت مجرّد صديقة".

لكنه أحنى رأسه، متفادياً تحديقة أمه، يخنقه حنوّها عبر الطاولة.

" توفّيت روزا بينيللي؟" سألت. " متى؟"

وبينما كان أخواه يزوّدانها بالأجوبة، انصبّ عليه دفء عاطفتها وجاذبيّتها، وكان خائفاً أن يرفع عينيه. دفع كرسيه ونهض.

" أنا لست جائعاً كثيراً".

أشاح بعينيه عنها عندما دخل المطبخ وعبر نحو الباحة الخلفية. أراد أن يكون وحيداً فيمكنه أن يفرج عن الضيق في صدره، لأنها كرهتني وأنا جعلتها ترتعد، لكن أمه لن تدعه، كانت قادمة من غرفة الطعام، سمع وقع

خطواتها فنهض وأسرع عبر الباحة الخلفية ونحو الزقاق.

" آرتورو!"

مشى على المرج حيث دفنت كلابه، حيث كانت ظلمة ولم يكن مرئياً، ثم بكى ولهث، جالساً وظهره إلى صفصافة سوداء، لأنها كرهتني، لأني كنت لصاً، لكن يا للجحيم، روزا، لقد سرقتها من أمي وهذه ليست حقاً سرقة، بل هدية عيد الميلاد، ولقد اعترفت بها أيضاً، ذهبت إلى المعترف وأفصحت عن كل شيء.

سمع أمه تناديه من الزقاق، تناديه ليخبرها عن مكانه" أنا قادم"، أجاب، يتأكد من جفاف عينيه، يلعق طعم الدموع على شفتيه. صعد سياج الأسلاك الشائكة عند زاوية المرج، وجاءت نحوه في وسط الزقاق، ترتدي شالاً وتحدّق بكتمان من فوق كتفها في اتجاه المنزل. بسرعة وبصعوبة فتحت قبضته المحكمة.

" صه! لا تقل كلمة لأوغست وفدريكو!"

فتح راحته ووجد قطعة نقدية وقدرها خمسة وعشرون سنتاً.

" اذهب إلى العرض"، همست." اشتر لنفسك آيس كريم بالبقية. صه! لا تقل كلمة لأخويك!"

التفت بلا مبالاة، يمشي في الزقاق القطعة النقدية التافهة في قبضته. نادته بعد بضعة ياردات وعاد.

" صه! لا تقل كلمة لوالدك. حاول أن تعود إلى البيت قبل أن يعود!"

مشى نحو الصيدلية مقابل محطة الوقود ورشف الحليب المحلّى دون أن يستطعمه. دخل حشد من طلاب الجامعة وأخذوا كل المقاعد عند منهل

الصودا. جلست فتاة طويلة في بواكير عشرينياتها بجانبه. حلّت وشاحها ورمت ياقة سترتها الجلدية إلى الخلف. راقبها في المرآة خلف منهل الصودا، الخدّان الورديّان متوهّجان ونضران من هواء الليل البارد، العينان الرماديتان كبيرتان وتسكبان الإثارة. رأته يحدّق بها من خلال الزجاج، فالتفتت وابتسمت له، أسنانها متساوية ولماعة.

" مرحباً!" قالت، ابتسامتها من النوع المحجوز لأولاد أصغر سناً. أجاب:" مرحباً"! لم تقل شيئاً آخر له وانشغلت مع الطالب على جانبها الآخر، رجل صارم يشعّ حرف C فضيّ وذهبيّ على صدره. كان للفتاة همّة وإشراق جعلاه ينسى لوعته. عبق المكان برائحة عطر الليلك فوق الرائحة الأثيرية للعقاقير والأدوية المباحة. راقب يديها الطويلتين الدقيقتين والسماكة الطازجة لشفتيها القويتين وهي ترشف الكوكا، تنبض حنجرتها القرنفلية عندما ينزل فيها المشروب. دفع ثمن مشروبه ورفع نفسه على مقعد المنهل. الفتاة التفتت لتراه يذهب، ابتسمت ابتسامة أخّاذة وهي تقول"وداعاً"! على طريقتها. لا أكثر من ذلك، لكن عندما وقف خارج الصيدلية كان مقتنعاً أن روزا بينيللي لم تكن ميتة، وأنه كان خبراً زائفاً، وأنها كانت حية وتتنفس وتضحك مثل الفتاة الجامعية في المتجر، مثل جميع فتيات العالم.

بعد خمس دقائق، واقفاً تحت مصباح الشارع أمام منزل روزا المظلم، حدّق في رعب وبؤس نحو الشيء الأبيض والشبحي الذي يلمع في الليل، تأرجحت الأشرطة الحريرية الطويلة عندما لاطفتها هبّة ريح: علامة على الميت، إكليل جنازة. فجأة امتلأ فمه ببصاق يشبه الغبار. التفت ومشى في الشارع. الأشجار، الأشجار النادبة! حثّ خطاه. الريح، الريح باردة وموحشة! بدأ يركض. الميت، الميت الرهيب!كانوا فوقه، يدوون فوقه من سماء الليل، ينادونه ويعولون عليه، يسقطون ويتدحرجون ليلقوا القبض

عليه. ركض كالمجنون، تصرخ الشوارع بصدى أقدامه المدمدمة، رطوبة باردة ومربكة في وسط ظهره. سلك طريقاً مختصراً على الجسر المحمول. سقط يتعثر على عارضة السكة الحديدية، يمدّ يديه أولاً نحو الحاجز المتجمّد البارد. كان يركض ثانية حتى قبل أن يزحف على قدميه، وتعثّر ووقع ثانية ونهض ثانية وأسرع. عندما وصل إلى شارعه هرول، وعندما كان فقط على بعد بضع ياردات عن بيته تمهّل يمشي الهوينى، وينفض القذارة عن ملابسه.

البيت.

وكان هناك ضوء في النافذة الأمامية. بيت، حيث لم يحدث شيء يوماً، حيث كان دافئاً وحيث لم يكن موت.

"آرتورو..".

كانت أمه واقفة في الباب. مشى في إثرها ودخل الغرفة الرئيسة الدافئة، يشمّها ويشعر بها، مرتاحاً فيها. كان أوغست وفدريكو في السرير. خلع ملابسه بسرعة، مسعوراً، في ظلمة جزئية. ثم انطفأ الضوء في الغرفة الأمامية وأظلم المنزل.

"آرتورو؟"

مشى إلى جانب سريرها.

"نعم؟"

رمت الأغطية وسحبت ذراعه.

" هنا آرتورو معي!"

بدت أصابعه تنفجر بالبكاء وهو ينزلق بجانبها، وفقد نفسه في الدفء المسكّن لذراعيها.

المسبحة من أجل روزا.

كان هناك أصيل ذلك الأحد، جاثياً مع زملائه في مذبح العذراء المباركة. في المقدمة، ارتفعت رؤوسهم القاتمة نحو تمثال السيدة مريم المصنوع من الشمع، حيث والدا روزا. كانوا أناساً ضخاماً، كان هناك عدد كبير منهم يهتزون ويرتجون، عندما رفرف ترنيم الكاهن الجافّ عبر الكنيسة الباردة مثل طائر متعب مدان بأن يرفع جناحيه مرة أخرى في رحلة لانهاية لها. هذا ما يحدث عندما تموت: يوماً ما سيكون ميتاً وفي مكان ما على الأرض هذا سيحدث ثانية. لن يكون هناك لكن لم يكن ضرورياً أن يكون هناك، لأن هذا سيكون ذكرى سلفاً. سيكون ميتاً، ومع ذلك العيش لن يكون معروفاً بالنسبة له، لأنه قد يحدث ثانية، ذكرى من الحياة قبل أن تعاش.

روزا، روزاي، لا يمكنني أن أصدّق أنك كرهتني، لأنه لا يوجد كره حيث أنت الآن، هنا بيننا وحتى بعيداً. أنا مجرد ولد، روزا، وغموض المكان الذي أنت فيه ليس غموضاً عندما أفكر بجمال وجهك، وضحك حذائك الطويل عندما مشيت في القاعة. لأنك كنت غالية، روزا، كنت فتاة طيبة، وأردتك، ولا يمكن للرجل أن يكون سيئاً جداً إذا ما أحب فتاة جيدة للغاية مثلك. وإذا كنت تكرهينني الآن، روزا، ولا يمكنني أن أصدق أنك تكرهينني الآن، انظري إلى لوعتي وصدقي بأني أريدك هنا، لأنه جيد أيضاً. أعرف بأنه لا يمكنك أن تعودي، روزا حبّي الحقيقي، لكن هناك في هذه الكنيسة الباردة هذا الأصيل حلم بحضورك، راحة في غفرانك، حزن لأني لا أستطيع أن أمسّك، لأني أحبك وسأحبك إلى الأبد، وعندما يجتمعون في ذات يوم من أجلي، سأعرف قبل أن يجتمعوا ولن يكون غريباً علينا....

تجمّعوا بعد المراسم للحظة في الدهليز. طلبت الأخت سيليا منهم الهدوء وهي تشهق في منديل صغير. لاحظوا أن عينها الزجاجية كانت قد

انقلبت إلى حد بعيد يكاد البؤبؤ لا يُرى.

" ستكون الجنازة الساعة التاسعة غداً"، قالت." سينفضّ الصف الثامن طوال يوم".

" يا سلام-يا لها من فرصة!"

طعنته الراهبة بعينها الزجاجية. كان جونزاليس، غبيّ الصف. استند على الحائط وجذب عنقه داخل كتفيه، يكشّر محرجاً.

" أنت" قالت الراهبة، " ستكون أنت!"

كشّر عاجزاً.

" ليتجمّع أولاد الصف الثامن رجاء في غرفة الصف حال مغادرتنا الكنيسة. الفتيات معذورات".

عبروا باحة الكنيسة بصمت، رودريجز، مورجان، كيلروي، هيلمان، بانديني، أوبرين، أوليري، هارنجتون، والآخرون جميعاً. لم يتحدّث أحد وهم يصعدون الدرج، ومشوا إلى مقاعدهم في الطابق الأول. بصمت حدّقوا بمقعد روزا الذي يغطّيه الغبار، كتبها لا تزال في الرف. ثم دخلت الأخت سيليا.

" طلب أهل روزا أن تكونوا أنتم، يا أولاد صفّها، حملة النعش غداً. هؤلاء الذين يتمنّون أن يفعلوا ليرفعوا أيديهم، رجاء!"

ارتفعت سبع أياد إلى السقف. رأت الراهبة كل واحد منهم، منادية إياهم بالاسم ليتقدموا. هارنجتون، كيلروي، أوبرين، أوليري. بانديني. وقف آرتورو بين هؤلاء المختارين، بالقرب من هارينجتون وكيلروي. أنعمت النظر بحالة آرتورو بانديني.

" لا آرتورو!" قالت. " أخشى أنك لست قوياً بما فيه الكفاية".

" لكني قوي"! أصرّ محدّقاً بكيلروي، وبأوبرين، وهيلمان. قوي بما فيه الكفاية! كانوا أطول منه مسافة رأس، لكنه تغلّب عليهم جميعاً بين الحين والآخر. لا، يمكنه أن يتغلب على أي واحد منهم، في أي وقت، ليلاً أو نهاراً.

"لا آرتورو! من فضلك اجلس! مورجان، تقدّم أرجوك!"

جلس هازئاً من سخرية القدر، آه روزا! يمكنه أن يحملها بين ذراعيه ألف ميل، بذراعيه الاثنتين إلى مئة قبر ويعود ثانية، ومع ذلك لم يكن في عيون الأخت سيليا قوياً بما فيه الكفاية. تلك الراهبات! كنّ في غاية العذوبة ولطيفات جداً-وحمقاوات للغاية. كنّ كلهنّ مثل الأخت سيليا: رأوا بعين واحدة سليمة، وكانت الأخرى عمياء وعديمة الفائدة. في تلك الساعة عرف أن عليه ألا يكره أحداً، لكنه لم يستطع: كره الأخت سيليا.

ساخراً ومشمئزاً، نزل الدرجات الأمامية ودخل الأصيل الشتائي الذي كان يزداد برودة. مطرق الرأس دس يديه في جيوبه، انطلق نحو البيت. عندما وصل إلى الناصية ونظر رأى جيرتي وليامز تعبر الشارع، عظما كتفيها الصغيرين عاريين، ويتحركان تحت معطفها الصوفي الأحمر. كشّت ببطء، يداها في جيوب معطفها الذي أحاط بردفيها النحيلين. صرّ على أسنانه وهو يفكر ثانية برسالة جيرتي. روزا تكرهك وأنت جعلتها ترتعد. ثم جيرتي سمعت وقع خطاه وهو يصعد الحاجز. رأته وبدأت تسرع الخطو. لم يكن لديه رغبة بالتحدث معها أو بلحاقها، لكن، في اللحظة التي أسرعت فيها خطاها استولى عليه الدافع للّحاق بها، وكان يمشي سريعاً أيضاً. فجأة، في مكان ما وسط عظمي كتفَي جيرتي النحيلين رأى الحقيقة، روزا لم تقل ذلك، روزا لن تقول ذلك ولا عن أي شخص، كانت كذبة جيرتي، كتبت أنها رأت روزا البارحة، لكن هذا كان مستحيلاً، لأن روزا كانت البارحة

مريضة جداً، وقد ماتت في المستشفى في أصيل اليوم التالي.

انطلق يركض وكذلك فعلت جيرتي، لكنها لم تكن تجاريه في السرعة. عندما أمسك بها، واقفاً أمامها وفارداً ذراعيه ليعيق مرورها، وقفت وسط الرصيف، يداها على ردفيها متحدّية بعينيها الشاحبتين.

" إذا كنت تجرؤ ضع يدك عليَّ، آرتورو بانديني، سأصرخ!"

"جيرتي"، قال." إذا لم تقولي لي حقيقة ذلك المكتوب، فسوف أضربك على فكّك تماماً!"

" أوه ذلك!" قالت بتكبّر." تعرف الكثير عن ذلك!"

" جيرتي"، قال." لم تقل روزا يوماً بأنها تكرهني وأنت تعرفين".

مسّت جيرتي ذراعه وقذفت خصل شعرها الشقراء في الهواء، وقالت:" حسناً، حتى لو لم تقل، أظن أنها فكّرت في ذلك".

وقف هناك وراقبها تتهندم في الشارع، تطوّح برأسها مثل مهر من نوع شيتلاند. ثم شرع بالضحك.

الفصل العاشر

كانت الجنازة صباح الاثنين خاتمةً. لم يكن لديه رغبة بحضورها، كان حزيناً بما فيه الكفاية. بعد أن غادر أوغست وفدريكو إلى المدرسة، جلس على درج الشرفة الأمامية وفتح صدره لدفء شمس شهر كانون الثاني. فترة قصيرة وسيحلّ الربيع: ثلاثة أو أربعة أسابيع وستتوجه نوادي الفرق الكبرى جنوباً للتدريب الربيعي. خلع قميصه واستلقى على بطنه، على المرج البني الجافّ. لا شيء يضاهي الاسمرار الجيد، لا شيء يضاهي أن تتشمّس قبل أي ولد آخر في البلدة.

يوم جميل أشبه بفتاة. انقلب على ظهره وراقب السحب تتعثر جنوباً. كانت الرياح الكبيرة هناك في الأعلى، لقد سمع أنها تأتي من آلاسكا، من روسيا، لكن الجبال العالية حمت البلدة. فكّر في كتب روزا، كيف كانت مغلّفة بمشمّع أزرق بلون السماء ذلك الصباح. يوم هنيء، كلبان يتجوّلان، يعرجان سريعاً عند كل شجرة. ضغط أذنه على الأرض. كانوا في طرف البلدة الشمالي، هناك في مقبرة هايلاند، يوارون روزا الثرى. نفخ برفق في الأرض، قبّلها، تذوّقها بطرف لسانه. سيطلب من والده يوماً ما أن يقطع حجراً لقبر روزا.

تقدّم ساعي البريد من شرفة منزل عائلة جليسون، في الجهة المقابلة من الشارع، واقترب من منزل بانديني. نهض آرتورو وأخذ الرسالة التي قدّمها. كانت من الجدة توسكانا. أخذها إلى الداخل وشاهد أمه تفتحها. كانت

هناك رسالة قصيرة وورقة مالية بقيمة خمسة دولارات. دست ورقة الخمسة دولارات في جيبها وأحرقت الرسالة. عاد إلى المرج وتمدّد هناك ثانية.

خرجت ماريا من المنزل بعد هنيهة، تحمل محفظتها الخاصة بالذهاب إلى وسط البلدة. لم يرفع خدّه عن المرج الجاف، ولم يجب عندما أخبرته أنها ستعود خلال ساعة. تقدّم أحد الكلاب على المرج، واشتمّ شعره. كان بنّياً وأسود اللون، له قوائم كبيرة بيضاء اللون. ابتسم عندما لعق اللسان الدافئ الكبير أذنيه. قوّس ذراعه وآوى الكلب فيها رأسه. سرعان ما غفا الحيوان. وضع أذنه على فراء الصدر وعدَّ نبضات القلب. فتح الكلب عيناً، قفز منتصباً على قائمتيه، ولعق وجهه بعاطفة غامرة. ظهر كلبان آخران مسرعان، شديدا الانشغال على امتداد صفّ الأشجار المحاذي للشارع. رفع الكلب البني والأسود أذنيه معلناً عن نفسه بنباح تحذيري، وركض خلفهما. توقّفا وزجرا يأمرانه أن يدعهما وشأنهما. عاد الكلب البني والأسود إلى آرتورو حزيناً. تلهّف قلبه للحيوان.

" ابقَ هنا معي"! قال." أنت كلبي. اسمك جمبو. جمبو الكبير الطيب".

عدا جمبو بفرح وانقضّ على وجهه ثانية.

عندما عادت ماريا من وسط البلدة كان يغسل جمبو في حوض المطبخ. زعقت ورمت أكياسها، هاربةً إلى غرفة النوم، وأقفلت الباب خلفها.

" أبعِدْه"! صرخت." أخرجه من هنا!"

اهتزّ جمبو محرّراً نفسه وهرع مذعوراً خارج المنزل، يرشّ الماء ورغوة الصابون في كل مكان. تبعه آرتورو، يتشفّعه أن يعود. انقضّ جمبو مرّات متوالية على الأرض، منطلقاً في حلقات كبيرة، يتدحرج على ظهره، هازّاً نفسه كي يجفّ. اختفى أخيراً في سقيفة الفحم. تدحرجت سحابة هباب

الفحم من الباب. وقف آرتورو على الشرفة الخلفية وتأوّه. صرخات أمه من غرفة النوم لا تزال تثقب المنزل. هرع إلى الباب وهدّأها، لكنها رفضت أن تخرج حتى أقفل بابَي كلٍّ من الشرفتين الأمامية والخلفية.

" إنه جمبو وحسب"، سكّنها. " إنه كلبي فقط، جمبو!"

عادت إلى المطبخ واسترقت النظر من النافذة. كان جمبو المسودّ بهباب الفحم لا يزال مندفعاً بوحشية في حلقات، يرمي نفسه على ظهره ويهرع ليفعل هذا ثانية.

" يبدو مثل ذئب!" قالت.

" إنه نصف ذئب، لكنه أليف".

" لا أريده هنا!" قالت.

عرف أن تلك كانت بداية نزاع يدوم أسبوعين على الأقل. هذا ما كان يحدث مع كلابه جميعاً. في النهاية، جمبو، مثل أسلافه، سيتبعها بوفاء، دون اعتبار لأي شخص آخر في العائلة.

راقبها تفضّ مشترياتها.

معكرونة، صلصة الطماطم، جبنة رومانية. لكنهم لم يأكلوا المعكرونة أبداً في أيام الأسبوع. كانت مقتصرة على وجبة عشاء يوم الأحد.

" كيف ذلك؟"

" إنها مفاجأة صغيرة لأبيك".

" هل هو عائد إلى البيت؟"

" سيكون في البيت اليوم".

" كيف تعرفين؟ هل رأيته؟"

" لا تسألني. أعرف أنه قادم وحسب".

اقتطع قطعة جبنة لجمبو وخرج منادياً إياه. جمبو! اكتشف أن بوسع جمبو الجلوس. كان مبتهجاً: كان كلباً ذكياً، وليس مجرد كلب صيد. لا شك أنه كان جزءاً من إرثه الذئبي. وجمبو يركض، أنفه إلى الأرض، يستنشق ويشمّ كل شجرة على جانبي الشارع، تارة يتقدّمه مسافة شارع، ثم خلفه مسافة نصف شارع. تارة يهرع وينبح عليه، مشى غرباً نحو سفح التلال المنخفض، الذرا البيضاء تعلو في البعيد.

زمجر جمبو كذئب، عند حدود المدينة، حيث ينعطف شارع هيلد جاردي بحدّة نحو الجنوب، يتقصّى أشجار الصنوبر والأجمات على جانبيه، واختفى في المسيل، تشكّل زمجرته المهدّدة تحذيراً لأي مخلوق برّي قد يتصدّى له. كلب بوليسي! راقبه آرتورو يشقّ طريقه في الأجمة، بطنه يدنو من الأرض. يا له من كلب! نصف ذئب ونصف كلب بوليسيّ.

سمع صوتاً، يبعد مسافة مئة ياردة عن أعلى التلة، كان صوتاً دافئاً وأليفاً من ذكريات طفولته المبكرة: صوت مطرقة أبيه الحجريّة الحادّ وهي تضرب الإزميل وتشقّ الحجر إرباً. كان مسروراً: هذا أفاد أن والده سيكون في لباس العمل، وقد أحبّ والده في لباس العمل، كان من السهل الاقتراب عندما يكون في ثياب العمل.

كان هناك ضجيج صادر عن الأجمات إلى يساره، وهرع جمبو عائداً إلى الطريق. كان يحمل بين أسنانه أرنبٌ ميت منذ أسابيع، تنبعث منه رائحة التحلّل النتنة. قفز جمبو في الشارع مسافة ياردات، ورمى فريسته، وحطّ رحاله يراقبها، ذقنه مسطّح على الأرض، وقائمتاه الخلفيتان في الهواء،

عيناه تتنقلان بين الأرنب وآرتورو وتعود مجدداً. كان هناك رغاء متوحّش في حنجرته مع اقتراب آرتورو... كانت الرائحة النتنة مقزّزة. هرع وحاول أن يرفس الأرنب بعيداً عن الطريق، لكن جمبو اختطفها قبل أن تجد قدمه العلامة، وانطلق مبتعداً، يعدو ظافراً. راقبه آرتورو بإعجاب بالرغم من الرائحة الكريهة. يا رجل، يا له من كلب! جزء منه ذئب، وجزء كلب بوليسي، وآخر كلب صيد.

لكنه نسي جمبو، نسي كل شيء، حتى أنه نسي ما خطّط ليقوله، عندما ارتفعت قمة رأسه فوق التلة ورأى والده يراقبه وهو يدنو منه، المطرقة في يد، والإزميل في اليد الأخرى. وقف على قمة التلة وانتظر هامداً. حدّق بانديني برهةً طويلة مباشرة في وجهه. ثم رفع مطرقته، وازن الإزميل وضرب الحجر ثانية. يعرف آرتورو أنه لم يكن مرحّباً به. عبر الممرّ المفروش بالحصى إلى دكّة ثقيلة كان بانديني يعمل عليها. كان عليه أن ينتظر طويلاً، يطرف بعينيه ليتفادى شظايا الحجر المتطايرة قبل أن يتكلم والده.

" لماذا لست في المدرسة؟"

" لا مدرسة. لديهم جنازة".

" من مات؟"

" روزا بينيللي".

" ابنة مايك بينيللي؟"

" نعم".

" هو ليس جيداً، مايك بينيللي ذاك. هو يجرّب في منجم الفحم. لا ينفع لشيء".

واصل العمل. كان يهيّئ الحجر، يشكّله ليوضع على طول مقعد حجري قرب المكان الذي يعمل فيه. لا تزال على وجهه آثار عشية عيد الميلاد بادية، ثلاثة خدوش طويلة على خدّه مثل علامات من قلم بنّيّ.

" كيف حال فدريكو؟" سأل.

" إنه بخير".

" وكيف حال أوغست؟"

" حسن جداً".

صمت وليس سوى صوت الضرب بالمطرقة.

" كيف تسير أمور فدريكو في المدرسة؟"

" بخير، كما أظن".

" وماذا عن أوغست؟"

" إنه على خير ما يرام".

" وماذا عنك، هل تحصل على علامات جيدة؟"

" لا بأس بها".

صمت.

" هل فدريكو ولد صالح؟"

" بالتأكيد".

" وأوغست"؟

" إنه حسن جداً".

" وأنت"؟

" أظن ذلك".

صمت. رأى السحب تتجمّع في الشمال، الضباب يزحف على الذرا العالية. بحث عن جمبو لكنه لم يجد له أثراً.

" كل شيء على ما يرام في البيت؟"

" كل شيء ممتاز".

" لا أحد مريض؟"

" لا، نحن جميعاً بخير".

" هل ينام فدريكو جيداً في الليل؟"

" بالتأكيد، كل ليلة".

" وأوغست؟"

" نعم".

"وأنت؟"

" بالتأكيد".

أخيراً قالها. كان عليه أن يدير ظهره ليفعلها، أدار ظهره، التقط حجراً ثقيلاً تطلّب قوة عنقه وظهره وذراعيه جميعها، لذا نطقها مع لهاث سريع:

" كيف حال ماما؟"

" تريدك أن تعود إلى البيت"، قال." لقد حضّرت المعكرونة. تريدك في البيت. قالت لي".

التقط حجراً آخر أكبر هذه المرة، جهد عظيم، وجهه يحمرّ. ثم استقام ثانية، يتنفّس بصعوبة. يده نحت نحو عينه، الإصبع يمرّ على قطرة عند طرف أنفه.

" شيء في عيني"، قال." قطعة حجر صغيرة".

" أعلم، دخلت في عيني سابقاً".

" كيف حال ماما؟"

" بخير. رائعة".

" ألم تعد غاضبة؟"

" لا. تريدك في المنزل. قالت لي. المعكرونة على العشاء. وأنها ليست غاضبة".

" لم أعد أريد مزيداً من المشاكل"، قال بانديني.

" هي لا تعرف أنك هنا. هي تظن أنك تعيش مع روكو ساتشوني".

عاين بانديني وجهه.

" لكني أعيش مع روكو"، قال." كنت هناك طوال الوقت، منذ أن طردتني".

كذبة باردة لعينة.

" أعرف"، قال." قلت لها".

" قلتَ لها"! وضع بانديني مطرقته." وكيف تعرف؟"

" قال لي روكو".

" فهمت". قال بارتياب.

" بابا، متى ستعود إلى البيت؟"

صفر بذهول، نغمة دون لحن، فقط تصفير دون معنى. " ربما لن أعود أبداً إلى البيت"، قال.

"هل يعجبك ذلك؟"

" ماما تريدك. هي تترقّب قدومك. تفتقدك".

ربط حزامه.

" إذاً، هي تفتقدني! وماذا في ذلك؟"

تململ آرتورو.

" كل ما أعرفه هو أنها تريدك في البيت".

" ربما سآتي-وربما لا".

حينئذ تلوّى وجهه وارتعش منخراه. شمّ آرتورو ذلك أيضاً. قرفص جمبو خلفه، الجيفة بين قائمتيه الأماميتين، يقطر الرضاب من لسانه الكبير وهو ينظر نحو بانديني وآرتورو، مخبراً إياهما بأنه أراد أن يلعب المطاردة ثانية.

" اضربه، جمبو!" قال آرتورو. " خذ هذا بعيداً عن هنا"!كشر جمبو عن أسنانه، خرجت الزمجرة من حنجرته، ومرّر ذقنه على جثّة الأرنب. كانت إيماءة تنمّ عن التحدي. أمسك بانديني بأنفه.

" لمن هذ الكلب؟" قال بصوت فيه خنّة.

" إنه كلبي. اسمه جمبو".

" أبعده من هنا!"

لكن جمبو رفض أن يتزحزح. كشّر عن أنيابه الطويلة عندما اقترب

آرتورو منه، رفع قائمتيه الخلفيتين كما لو أنه جاهز للقفز، تدوّي الدمدمة المبحوحة المتوحّشة في حنجرته على نحو فتّاك. راقبه آرتورو بإعجاب وافتتان.

"كما ترى"، قال. "لا يمكنني الاقتراب منه. سوف يمزّقني إرباً".

لا بد أن جمبو قد فهم. ارتفع الخرير في حنجرته إلى حد مرعب. ثم صفع الأرنب بمخالبه والتقطه، مبتعداً بهدوء، ذيله يهتزّ... وصل إلى حافة أشجار الصنوبر عندما انفتح باب جانبيّ وخرجت الأرملة هيلد جاردي تتنشّق على نحو خطر.

"يا للسماء، سفيفو! ما هذه الرائحة الرهيبة؟"

رآها جمبو من فوق كتفه. انزاحت نظرته نحو أشجار الصنوبر ثم عادت مجدداً. رمى الأرنب، التقطه بقبضة محكمة، وتمشّى بشهوة عبر المرج نحو الأرملة هيلد جاردي. لم تكن في مزاج للقفز. خرجت لملاقاته تمسك بمكنسة. رفع جمبو شفتيه مرجعاً إياهما إلى الخلف حتى لمعت أسنانه الكبيرة البيضاء في الشمس، خيوط من الرضاب تقطر من فكّيه. أطلق غرغرته المتوحشة المروّعة، كان التحذير فحيحاً وزمجرة في آن. جمدت الأرملة في مكانها، استعادت رباطة جأشها، تفحّصت فم الكلب، ورفعت رأسها في استياء. رمى جمبو حمله وبسط لسانه الطويل، برضا. لقد قهرهم جميعاً. أغلق عينيه متظاهراً بالنوم.

"أخرِج هذا الكلب اللعين من هنا!" قال بانديني.

"هل هذا الكلب لك؟" سألت الأرملة.

أومأ آرتورو بتفاخر مخفّف.

تفحّصت الأرملة وجهه، ثم وجه بانديني.

" مَن هذا الشاب؟" سألت.

" إنه ابني الأكبر"، قال باندينى.

قالت الأرملة: " أبعد هذا الشيء الرهيب عن أرضي!"

عاهرة، إذاً، كانت ذلك النوع من الأشخاص! إذاً، كانت هذا النوع من الأشخاص! في الحال قرّر ألّا يفعل شيئاً مع جمبو، لأنه عرف أن الكلب كان يلعب. ومع ذلك أحب أن يصدّق أن جمبو كان ضارياً كما تظاهر. انطلق نحو الكلب، يمشي على مهل، بتؤدة. أوقفه باندينى.

" انتظر"، قال. " دعني أتصرّف!"

أمسك بالمطرقة وفكّر في خطوته نحو جمبو، الذي حرّك ذيله وتأرجح وهو يلهث. كان باندينى يبعد عنه عشرة أقدام، قبل أن ينهض على قائمتيه الخلفيتين، مدَّ ذقنه، وشرع بزمجرته المحذّرة. أرسلته تلك النظرة على وجه والده، ذلك العزم على القتل الذي صعد من تفاخر وتبجّح بالشجاعة، لأن الأرملة كانت واقفة هناك، على المرج، وأمسك بكلتا ذراعيه بالمطرقة القصيرة وأوقعها من قبضة باندينى المحكمة. وثب جمبو في الحال تاركاً فريسته يتقدم بعزم نحو باندينى الذي تراجع. خرّ آرتورو على ركبتيه وأوقف جمبو. لعق الكلب وجهه، وغرغر نحو باندينى، ولعق وجهه ثانية. ردّ الكلب على كل حركة من ذراع باندينى بزمجرة. لم يكن جمبو يلعب أبداً. كان جاهزاً للقتال.

" أيها الشاب"، قالت الأرملة". هل ستأخذ ذلك الكلب من هنا، أو هل أتصل بالشرطة ليطلقوا الرصاص عليه؟"

استفزّه ذلك.

" لا تتجاسري، عليك اللعنة!"

نظر جمبو شزراً إلى الأرملة وأظهر أسنانه.

" آرتورو!" احتجّ بانديني". هذه ليست طريقة للتحدث مع السيدة هيلد جاردي".

التفت جمبو نحو بانديني وأسكته بزمجرة.

" أيها الوحش الصغير الحقير!" قالت الأرملة." سفيفو بانديني، هل ستسمح لهذا الولد الشرير أن يستمر على هذا المنوال؟"

"آرتورو!" قال بانديني فجأة.

"أيها الفلاحون!" قالت الأرملة". أيها الغرباء! جميعكم متشابهون، أنتم وكلابكم وجميعكم".

تقدّم سفيفو على المرج نحو الأرملة هيلد جاردي. شفتاه منفرجتان. كانت يداه مطويتين أمامه.

" يا سيدة هيلد جاردي"! قال." هذا ابني. لا يمكنك أن تتحدثي إليه بهذه الطريقة. ذلك الولد أمريكي. وليس أجنبياً".

أنا أتحدث إليك أيضاً"! قالت الأرملة.

" Brutaanimale!" قال ".Puttana!"

طرطش وجهها بالبصاق.

" أنت حيوانة!" قال". حيوانة!"

التفت نحو آرتورو.

" تعال"! قال." لنذهب إلى البيت!"

وقفت الأرملة هامدة. حتى جمبو أحسّ بغضبها وانسلّ خلسة، تاركاً

غنيمته النتنة الرائحة أمامها على المرج. كانت شجرات الصنوبر عند الممرّ المفروش بالحصى بادية على الطريق أسفل التلة، توقف بانديني لينظر إلى الخلف. كان وجهه محمرّاً. رفع قبضته.

" حيوانة!" قال.

انتظر آرتورو على الطريق بعد بضع ياردات. هبطا معاً الممرّ الشاقّ الضارب إلى الحمرة. لم يقولا شيئاً، ظل بانديني يلهث حنقاً. جال جمبو في مكان ما في المسيل، ند عن الأجمة صوت طقطقة وهو يغطّ فيها. مالت السحب عند الذرا، ومع ذلك لا تزال الشمس ساطعة، كانت هناك لمسة برد في الهواء.

" ماذا عن عدّتك؟" قال آرتورو.

" هي ليست عدّتي. إنها عدّة روكو. دعه ينهي العمل. هذا ما أراده بأية حال".

اندفع جمبو من الأجمة. يحمل طائراً ميتاً في فمه، ميتاً تماماً، مرّ على موته عدة أيام.

" هذا الكلب اللعين!" قال بانديني.

" إنه كلب جيد، بابا. إنه كلب صياد طيور".

نظر بانديني إلى الرقعة الزرقاء شرقاً.

" قريباً جداً سيأتي الربيع"، قال.

" بالتأكيد!"

وبينما يقول ذلك، مسّ شيء صغير وبارد ظاهر يده. رآه يذوب، ندفة ثلج على شكل نجمة صغيرة.

ملاحظة المؤلف

الآن، بعد أن أصبحت رجلاً طاعناً في السنّ، لا يمكنني العودة إلى رواية"انتظر حتى الربيع، يا بانديني"، دون أن أضيّع أثرها في الماضي. أحياناً، عندما أكون مستلقياً في السرير ليلاً، ستفتنني عبارة أو فقرة أو شخصية من ذلك العمل القديم، فيما يشبه الحلم، وسوف أضفرها معاً في عبارات، وأسحب منها نوعاً من ذكرى شجية عن غرفة نوم قديمة في كولورادو، أو أمي، أو أبي، أو أخواي وأختي. لا يمكنني تخيّل أن ما كتبته منذ وقت طويل جداً سوف يمنحني السكينة كما يفعل نصف الحلم هذا، ولكني لا أستطيع أن أحمل نفسي على الالتفات إلى الوراء لأفتح روايتي الأولى هذه وأقرأها مجدداً. أنا خائف، لا أحتمل أن أكون مكشوفاً بواسطة عملي. أنا واثق من أني لن أعيد قراءة هذا الكتاب أبداً. لكني واثق من هذا: جميع الأشخاص في حياتي الكتابية، جميع شخصياتي موجودة في هذا العمل المبكر. لم يعد يوجد مني شيء هناك بعد الآن، فقط ذكرى غرف النوم القديمة، وصوت خفّ أمي وهي تدخل المطبخ.

الآن، بعد أن أصبحت رجلاً طاعناً في السنّ، لا يمكنني العودة إلى رواية "انتظر حتى الربيع يا بانديني"، دون أن أضيّع أثرها في الماضي. أحياناً، عندما أكون مستلقياً في السرير ليلا ستفتنني عبارة أو فقرة أو شخصية من ذلك العمل القديم، فيما يشبه الحلم، وسوف أضفرها معاً في عبارات، وأسحب منها نوعاً من ذكرى شجية عن غرفة نوم قديمة في كولورادو، أو أمي، أو أبي، أو أخواي وأختي. لا يمكنني تخيل أن ما كتبته منذ وقت طويل جداً سوف يمنحني السكينة كما يفعل نصف الحلم هذا.


ISBN 978-9938-880-50-2

